جامعة الجزائر 1
كلية العلوم الإسلامية
قسم العقائد و الأديان

الفلاح في القرآن الكريم

- دراسة موضوعية -

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

تخصص: كتاب وسنة

إعداد الطالب:
سوماتية فاروق

1434هـ - **2013**م

جامعة الجزائر 1

كلية العلوم الإسلامية

قسم العقائد و الأديان

الفلاح في القرآن الكريم

- دراسة موضوعية -

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

تخصص: كتاب وسنة

إعداد الطالب :

سوماتية فاروق

إشراف فضيلة الدكتور:

السعيد رحماني

أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور: عبد المجيد بيرم.. رئيسا

الدكتور: السعيد رحماني.................................. مشرفا ومقررا

الدكتور: حمو الشيهاني................................... عضوا مناقشا

1434هـ - 2013م

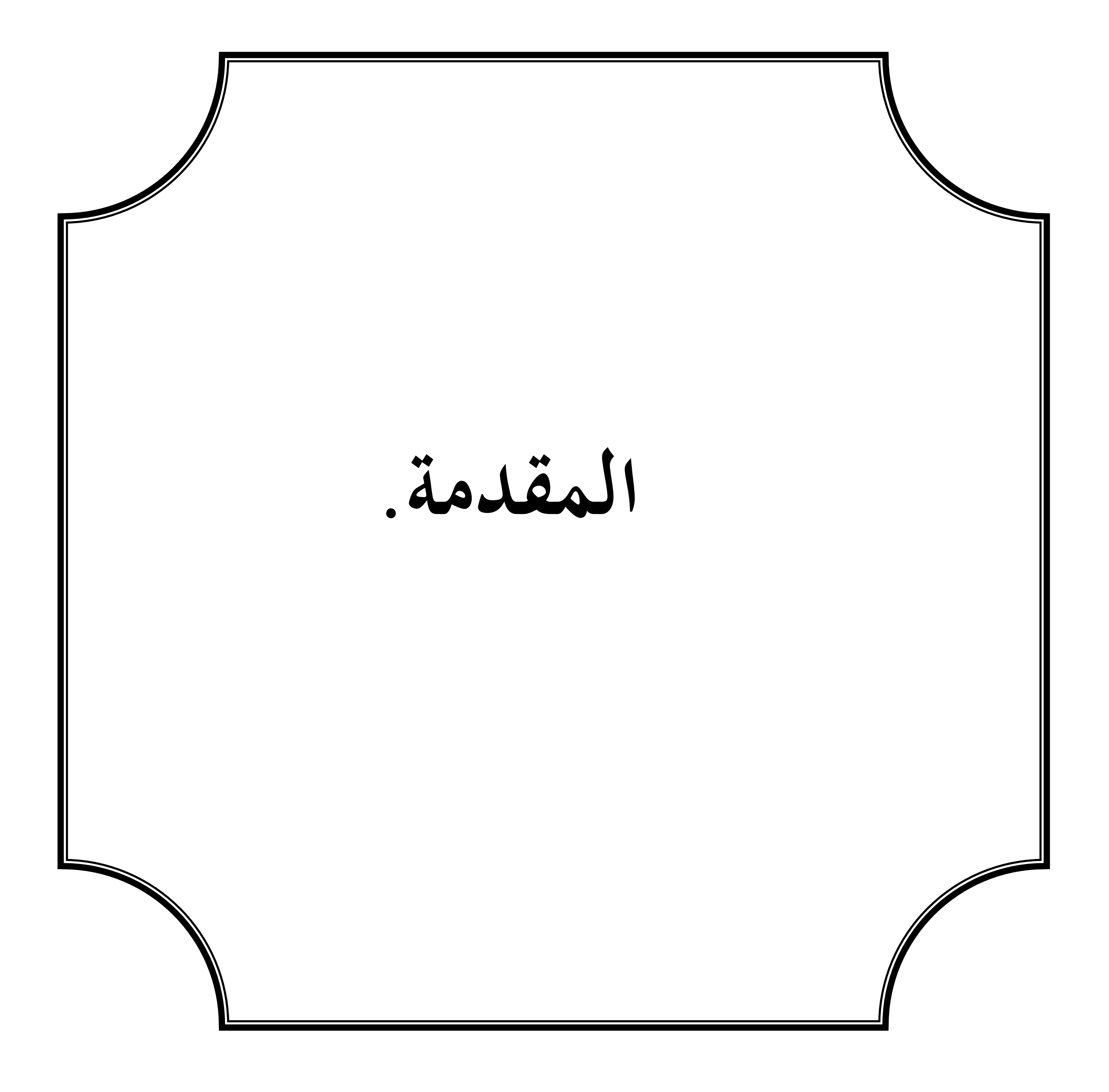
آية في حديث

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال:

"خلق الله تبارك وتعالى الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك. وقال لها تكلمي، فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوك."

صحيح الترغيب والترهيب للألباني

(502/3).



المقدمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذي كتب لعباده المؤمنين الفلاح، وأرشدهم إلى ما فيه الخير والبِرُّ، والتقى والصلاح، وحكم لأوليائه المتقين بالفوز والنجاح ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فالق الحب والنوى وفالق الإصباح ، وأشهد أن نبينا محمدا عبد ەورسوله، أرسله الله بالهدى فلم يزل ﷺ يرشد إلى الحق بالحجاج الوضاح، حتى ظهر دين الله وسرى في الآفاق سريان الرياح، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه ومحبيه، صلاة نحوز بها أعلى مراتب الفلاح، وأسمى درجات النجاح، ونتبوأ بها قمم الخير والصلاح، ونتخلص بها من دركات الإثم والجُناح، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن القرآن الكريم كلام رب العالمين هو أعظم أبواب الهداية، وأجلُّ سبل الفلاح.
أنزله الله على عباده هدى ورحمة وبشرى، وضياء ونورًا، وذكرى للذاكرين، جمع فيه سبحانه العلوم النافعة والمعاني الجليلة الكاملة، والترغيب والترهيب، والأصول والفروع، والوسائل والمقاصد، والعلوم الدينية والدنيوية والأخروية، وجعله مرشدًا للعباد إلى كلِّ طريق نافع وسبيل قويم؛ يفرقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، ويهديهم إلى أقوم الأمور وأرشدها، وأنفعها في كلِّ شيء.

في العقائد والعبادات والآداب، ويرشدهم إلى كلِّ صلاح وفلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم بها أمورهم، وتزكو نفوسهم، وتعتدل أحوالهم، ويستقيم طريقهم، ويحصل لهم الكمال المتنوع من كلِّ وجه، فهو كتاب علم وتعليم؛ تزول به الضلالات المتفرقة والجهالات المتنوعة، وكتاب تربية وتأديب؛ تتحقق به الأخلاق الفاضلة والأعمال الكريمة.

وقد كان ولا يزال المطلب الأعلى، والهدف الأسمى الذي يسعى إليه كل واحد في هذه الحياة، هو طلب السعادة، وصفاء النفس مع سرور القلب، فجميع الناس يرومون الخير والفلاح، ويرجون التوفيق والنجاح في جميع أمورهم ، لذلك اخترت أن يكون موضوع بحثي في مرحلة الماجستير:

الفلاح في القرآن الكريم – دراسة موضوعية –

أهمية الموضوع:

إن الدراسات المتعلقة بـ" التفسير الموضوعي " الذي يعد تفسير العصر والمستقبل، تكتسي أهمية بالغة لشدة الحاجة إليه[1]، لأنه يجمع الآيات القرآنية المرتبطة بموضوع واحد، ويبين ما يتعلق بها من حِكم وأسرار، موضحا الهدي القرآني فيها.

وهذا لون جدير بالاهتمام، لما يحققه من خير مرجو للفرد والأمة، كما يقوي صلة المسلمين بالقرآن الكريم، ويعرفهم على مبادئه وحقائقه.

فبيان الحقائق القرآنية في موضوع الفلاح من وجهة دعوية تربوية تتصل بحياة الناس وتلامس واقعهم، دعت إليه الطبيعة المادية لهذا العصر؛ فقد توهم كثيرٌ من الناس لغفلة قلوبهم، وضعف عقولهم، وسطحية تفكيرهم، أن قمة السعادة والفوز والفلاح، تكمن في السبق في مجالات التقدم المادي، والأخذ بأسباب التحضر العصري؛ فأفنوا كل أوقاتهم وأنهكوا جميع قواهم في السعي وراء الجاه والشهرة، والتمتع بالملذات، والتفنن بالمشتهيات؛ فتركوا العمل للآخرة التي فيها المستقر والمقام إما في جنات وأنهار، وإما في جحيم من نار، والقرآن الكريم اهتم كثيرا ببيان حقيقة الفلاح، لذلك كثيرا ما يأتي ذكر المفلحين وصفاتهم في آيات عديدة ومواضع مختلفة.

وقد أقسم الله عز وجل في كتابه أحد عشر قسما متواليا [1]؛ لبيان أن فلاح العبد منوط بتزكية نفسه، وكما هو معلوم أن القسم في القرآن لا يأتي إلا لبيان أمر مهم وتأكيد تحقيقه.

_ قال ابن القيم: « .... إن الله سبحانه يقسم على أصول الإيمان، التي يجب على الخلق معرفها تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان .... وقد تضمنت سورة الشمس القسم بالخالق والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها والنفس ومسويها على فلاح من زكى نفسه بالطاعة والبر، والبعد عن المعاصي.... ». [3]

---

(1) يشهد لهذا الواقع المؤلم لحياة المجتمعات المسلمة، لاستبدالهم الأفكار الغربية المستوردة بالمنهج القرآني القويم؛ فقد ذكر السيوطي أنهم في زمنه من أشد الناس احتياجا إلى التفسير، فكيف بعصرنا اليوم ؟!

انظر: الإتقان في علوم القرآن، (6/2267). فيه كلام السيوطي عن – وجه الحاجة إلى التفسير – .

(2) هذا القسم ورد في سورة الشمس.

(3) انظر: التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم الجوزية (ص 8– 26) بتصرف.

وإنَّ جمع ودراسة الآيات المتعلقة – بالفلاح في القرآن – ، على وفق منهج موضوعي يتتبع بدقة، وتفحص الدلالات واللطائف المستخرجة من النصوص، وسياقها، ومناسبتها لما قبلها وبعدها؛ لهو أمر جدير بالاهتمام والبيان.

أسباب اختيار الموضوع: [1]

إضافة لما تقدم ذكره في أهمية الموضوع، يمكن إجمال أسباب اختيار الموضوع في النقاط التالية:

1– لم أطلع على دراسة في هذا الموضوع قدمت كرسالة علمية، مع كثرة البحث والتقصي.
2– الفلاح والنجاح مطلب يبتغيه، ويرجوه كل فرد يسعى للسعادة في الدارين.
3– إبراز مدلول لفظ الفلاح ومضامين الآيات المتعلقة به، وكونه ليس في كلام العرب كلّه أَجمعُ من لفظَةِ الفلاحِ لِخَيْرَيْ الدُّنيا والآخرة؛ كما قاله أَئمّةُ اللِّسَان[2].
4– بيان حقيقة الفلاح، وتصحيح المفاهيم الخاطئة التي انتشرت في أوساط الناس، ترغيبا في أسباب الفلاح، وتحذيرا من أسباب الخسران والشقاوة.
5– الرغبة في خدمة كتاب الله باستجلاء المنهج القرآني في تناوله لموضوع الفلاح، وتنزيل ذلك على واقع الناس.
6– طبيعة هذا العصر وما يموج به من فتن وشبهات، تستوجب على الباحثين إفراد الموضوعات القرآنية بالبحث والدراسة، لتكون نبراسا للدعاة والمصلحين قصد معالجة المظاهر السلبية في المجتمعات المسلمة.

---

(1) لطيفة: من أحسن ما قيل في هذا الباب: « دَلَّ على عاقل اختياره، وقالوا: اختيار الرجل من وفور عقله، وقال بعضهم: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من عقله، واختياره قطعة من علمه ».

انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان (6/78).

(2) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزبيدي (7/ 26).

أهداف البحث:

1- جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الفلاح، ثم دراستها دراسة متكاملة [1].

2- الوقوف على عظمة القرآن الكريم من خلال مواضيعه المتنوعة والتعرف على تشريعاته النيرة والمتعددة.

3- بيان ما تضمنه القرآن الكريم من أنواع الهداية الربانية، من خلال تلك المواضيع التربوية.

4- التخلق بأخلاق القرآن والانتفاع به، من حيث زيادة الإيمان.

5- التمكن من تدبر القرآن الكريم وفهمه جيدا.

6- الاطلاع على أساليب القرآن الكريم المتنوعة.

الدراسات السابقة:

مع كثرة تناول الخطباء والوعاظ لموضوع أسباب السعادة والفلاح، واهتمام المصنفين بهذا الباب؛ فإني لم أجد - حسب اطلاعي- مع البحث في فهارس الرسائل الجامعية، والشبكة العنكبوتية، رسالة بعنوان: « الفلاح في القرآن الكريم » دراسة موضوعية [2].

- وقد وقفتُ على مقال لفضيلة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري، بعنوان: « سبيل الفلاح »، وهو منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: (53).

فَسَّر من خلاله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾. [المائدة، الآية:35]؛ بالوقوف عند بعض معاني الآية الكريمة، ولم يتوسع كثيرا في بيان أسباب الفلاح.

---

(1) هدفي من هذه الدراسة المتواضعة هو جمع شيءٍ مما تفرق في موضوع الفلاح، من خلال الرجوع إلى مصادر التفسير واللغة وغيرها. محاولا بذل الجهد ليخرج البحث على الوجه المطلوب.

فمن مقاصد التأليف السبعة التي لا يُؤَلَفُ إلا في أحدها قولهم: "...، و شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه..."

انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني (176/3).

(2) لم أعثر خلال إعداد الخطة على موضوع مشابه، وأثناء كتابة البحث وقفت على رسالة حديثة منشورة في الشبكة بعنوان: "عوامل فلاح الأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم" لباحث من جامعة غزة الإسلامية. حاول فيها دراسة آيات الفلاح في القرآن الكريم وفق منهج التفسير الموضوعي، وبذل مجهودا يشكر عليه، لكنه أخل في بعض المباحث بقواعد البحث العلمي، كما أنه لم يلتزم بمنهجية التفسير الموضوعي في تحليل الآيات التي لم تَبْدُ متناسقة مع عناوين البحث، إضافة لكثرة استطراده وخروجه أحيانا عن موضوع البحث، وطغيان أسلوب السرد التاريخي =

– كما اطَّلعتُ على رسالة بعنوان: « الوسائل المفيدة للحياة السعيدة »، للشيخ عبد الرحمن السعدي. وهي من الحجم الصغير تقع في بضع وثلاثين صفحة، ولم يتطرق المؤلف إلى ذكر الفلاح وبيان أسبابه؛ وإنما ذكر الأمور المعينة على طمأنينة النفس، وانشراح الصدر، كما أنه لم يقصد كتابتها على وفق الترتيب الموضوعي.

إشكالية البحث:

حاولت من خلال هذه الدراسة الإجابة على التساؤلات التالية:

– ما هي حقيقة الفلاح في القرآن الكريم في ظل تغير المفاهيم، وطغيان النزعة المادية لهذا العصر ؟
وما هي صور الفلاح ومظاهره ؟ وهل ميزان الفلاح مقتصر على تحصيل ملذات الدنيا الفانية ؟
ثم ما هي السبل الناجعة والوسائل النافعة؛ لتحقيق الفوز والفلاح في الدارين؟
ومن هم المفلحون في القرآن الكريم، وما هي صفاتهم ؟ ما هي ثمرات الفلاح في العاجل والآجل؟
و أخيرا من هم الذين انتفى عنهم الفلاح في القرآن الكريم ؟

– ولقد أحسن القائل: " كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طبيب له ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد ساهيا في غمرته، عمها في سكرته، سابحا في لجة جهله، مستوحشا من ربه، مستأنسا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته، وذكر الله حبسه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره ؟! " [1].

= على حساب الطرح العلمي الأكاديمي، وكان أسلوبه في أحيان كثيرة أشبه بالتقارير الصحفية الإخبارية؛ وربما يعود السبب في ذلك إلى التأثر المباشر بأحداث الربيع العربي الذي مرت به بعض الدول العربية، ويظهر هذا بوضوح في نهاية الفصل الثالث لمن طالعه، ومما يؤخذ على الباحث عدم التنويع في الاعتماد على المصادر، واكتفاؤه ببعض كتابات المعاصرين مع إهمال المراجع الأصيلة؛ ما جعل بحثه يتسم بالسطحية وعدم التعمق في تحليل النصوص القرآنية.

(1) الفوائد، لابن القيم الجوزية (ص 88– 89).

منهج البحث:

– اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي أولا، وذلك بجمع الآيات المتعلقة بموضوع البحث، ثم استعنت بالمنهج التحليلي، من خلال تحليل النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، مسترشدا بكلام المفسرين، وعلماء اللغة، وشُرَّاح الحديث.

– كما استخدمت المنهج الاستنباطي، القائم على دراسة آيات الموضوع و استنباط حقيقة الفلاح وعلاقته بفوز العباد و سعادتهم، مستدلا على ذلك بأقوال العلماء.

– مع الاعتماد أيضا على المنهج الوصفي، بضرب الأمثلة المتعددة للمفلحين في القرآن الكريم، وذكر صفاتهم.

مراعيا في ذلك قواعد التفسير الموضوعي وفق الخطوات التالية:

– حصر وجمع الآيات الواردة في الفلاح ومشتقاتها لفظا ومعنى، مع إيراد مرادفتها، معتمدا على المعاجم المفهرسة لألفاظ ومعاني القرآن الكريم.

– استخراج معاني الألفاظ السابقة من أمهات كتب اللغة.

– بيان معاني الآيات بيانا وافيا يجلي مضمونها ويكشف عن مكنونها ويربط بين أجزائها، مراعيا سياقها وذكر أسباب نزولها لمعرفة المتقدم من المتأخر منها، مع الاستعانة في الموضوع بما ثبت في السنة النبوية الصحيحة المبينة لما أُجمل ذِكرُه في القرآن.

– الرجوع إلى أمهات كتب التفسير سواء القديم منها أو الحديث على اختلاف مدارسها، مع الاعتماد على أمهات كتب الأخلاق، والآداب الإسلامية.

– بيان الأبعاد المعاصرة للآيات بالالتفات إلى ما تضمنته من إيحاءات مرتبطة بحاجات ومشكلات العصر، مع محاولة التركيز على الدلالات ذات البعد الإيماني، والبعد التربوي.

– اعتماد أسلوب السهولة واليسر في طرح أفكار البحث وعرضها ومعالجة مسائله، واجتناب الإسهاب والإطالة وغموض العبارة.

– التزام الأمانة العلمية في العزو والاقتباس والنقل، وأحلت إلى كل مصدر أفدت منه بقليل أو كثير، وأشرت إلى ذلك في الهامش.

– العناية بقواعد اللغة العربية، والإملاء، وعلامات الترقيم.

– التزمت بالرسم العثماني في كتابة الآيات القرآنية، وعزوها بأرقامها إلى سورها في متن البحث.

– خرجت الأحاديث النبوية وعزوها إلى مواضعها في كتب السنة، فإن كان الحديث في الصحيحين أكتفي بالعزو إليهما، وإن كان في غيرهما اعتمدت ما ذكره أهل الشأن في درجته، وغالبا ما أستأنس بأحكام الشيخ ناصر الدين الألباني.

– بالنسبة لتوثيق المصادر والمراجع، فإني أشير إلى الاسم المتعارف عليه للكتاب في الهامش، مع بيان الجزء والصفحة، وارتأيت تأخير ذكر اسم الكتاب كاملا مع مؤلفه في فهرس المصادر والمراجع، مع بيان دار الطبع وسنة النشر إن وجدت؛ خشية إثقال الحواشي.

– اعتمدت في إعداد البحث على كتابات المعاصرين أيضا، لاتصالها بواقع الأمة المعاش، كما استعنت ببعض الكتب الإلكترونية من المكتبة الشاملة؛ إذا تعذر الحصول على النسخة الورقية، وذلك في إطار ضيق ومحدود.

– ترجمت لأغلب الأعلام في هذه الدراسة، وتوسعت أحيانا في ذكر أحوالهم إذا اقتضى الأمر ذلك، أو للوقوف على فائدة ترجى، سوى للقليل منهم؛ لعدم ورودهم أصالة في البحث.

– لم أكتف بتفسير الآيات المتعلقة بالموضوع وتحليلها فقط، وإنما حاولت استكمال دراسة مباحث الرسالة موضوعيا، مع بيان ما تضمنته من المعاني والمفاهيم القرآنية، وجعلت لها عناوين جانبية؛ لإيضاح مغزاها و مدلولاتها، وإبراز آثارها التربوية المتصلة بحياة الفرد والمجتمع.

خطة الدراسة:

قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة.

أما **المقدمة**: فبينت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، والإشكالية المعالجة ثم الدراسات السابقة، فالمنهج المتبع، وأخيرا خطة الدراسة.

الفصل الأول: معاني الفلاح وأسبابه في القرآن الكريم.

واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معاني الفلاح ووجوهه في القرآن الكريم.

المطلب الأول: تعريف الفلاح في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: وجوه الفلاح ونظائره في القرآن.

المبحث الثاني: حقيقة الفلاح في القرآن الكريم.

المطلب الأول: الفلاح بين العزم والتمني.

المطلب الثاني: أبعاد مفهوم الفلاح.

المبحث الثالث: أسباب الفلاح في القرآن الكريم.

المطلب الأول: تقوى الله.

المطلب الثاني: الصبر.

المطلب الثالث: الجهاد في سبيل الله.

المطلب الرابع: ذكر الله.

المطلب الخامس: التوبة.

المطلب السادس: تزكية النفس.

الفصل الثاني: صفات المفلحين وثمرات الفلاح في القرآن.

وتضمن مبحثين:

المبحث الأول: صفات المفلحين.

المطلب الأول: الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

المطلب الثاني: اتِّباع الرسول ﷺ وطاعته.

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الرابع: ثقل الموازين يوم القيامة.

المطلب الخامس: الإيثار والسخاء.

المطلب السادس: موالاة الله ورسوله.

المبحث الثاني: ثمرات الفلاح.

المطلب الأول: السعادة في الدنيا.

المطلب الثاني: النجاة والفوز في الآخرة.

الفصل الثالث: من نُفِيَ عنهم الفلاح في القرآن.

واحتوى على أربعة مباحث:

المبحث الأول: الكافرون.

المبحث الثاني: الظالمون.

المبحث الثالث: المجرمون.

المبحث الرابع: الساحرون.

الخاتمة: ذكرت فيها أهم نتائج البحث وتوصياته، وملخص للرسالة باللغتين العربية والإنجليزية.

– وأخيرا قمت بتذييل البحث بخمسة فهارس وهي: فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث النبوية، فهرس الأعلام، فهرس المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات.

شكر وتقدير:

في ختام هذه المقدمة وقفة شكر وكلمة ثناء، فلله الحمد أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا على التوفيق والهداية، والشكر الخالص وأوفاه لله جل في علاه على نعمه وعطاياه؛ فإنه كان بي حفيا، وأسأله المزيد من فضله وكرمه وجوده؛ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم، الآية:7].

وبعد شكر ربي ومولاي أتقدم بالشكر لوالداي عملا بقول الحق سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان، الآية:14].

فلهما جزيل الشكر وعظيم الامتنان على حسن الرعاية والتنشئة، وعلى بذلهما المستمر، وحنانهما الغامر؛ فالله العزيز القادر أسأله أن يكتب لهما خيري الدنيا والآخرة، وأن يبارك في عمريهما على طاعة وحسن عمل، في صحة وعافية، وأن يختم لهما بالحسنى، وأدعوك يا ربي أن تعينني على برهما والإحسان إليهما، وأن تجعلني معهما في عداد عبادك الصالحين الذين وعدتهم بجميل عطائك، وجليل هباتك، وجزيل نوالك. ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل، الآية:19].

واعترافا بالفضل لأهله، واتباعا لهدي النبي ﷺ وقوله: « مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » [1]، وقوله عليه السلام: « مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ الله خَيْرًا؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ » [2]؛ وانطلاقا من هذا المبدأ التربوي الإسلامي؛ فإني أتوجه بالشكر والتقدير، وفائق الاحترام إلى شيخي الفاضل، وأستاذي الكريم فضيلة الدكتور السعيد رحماني، الذي تكرم بقبول الإشراف على هذه الرسالة، ولما قدمه من نصح وإرشاد، وبذله من توجيه وإعداد، مُقدِّرا له حسن تفهمه ورحابة صدره، الذي يدل على نبل تعامله، ودماثة خلقه؛ فجزاه الله عني خير الجزاء، وأجزل له المثوبة والعطاء في الدنيا والآخرة.

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة / باب عطية من سأل بالله (212/2)، (ح: 1672)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (464/1).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه (380/4)، (ح: 2035)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (392/2).

والشكر موصول للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على آرائهم القيمة، وتوجيهاتهم السديدة لتقويم هذه الرسالة.

ولا يفوتني شكر كلية العلوم الإسلامية بالجزائر، ممثلة بعميدها، وأساتذتها، وموظفيها؛ على ما أتاحت لي مواصلة الدراسات العليا، وعلى جهودها المبذولة في نشر العلوم الشرعية.

كما أتوجه بالشكر والعرفان لكل من أعان على إنجاز هذا البحث، ولكلِّ من كان له عليَّ فضل، أو مساعدة، فكم كانت لهم من فضائل بالغة وأياد سابغة، وهم خَلْقٌ كثير، لا يضرُّهم إن لم أذكرهم، فالله يعلمهم، والله يرحمهم، ويجزل لهم العطايا والهبات؛ وجزاهم الله عني خير الجزاء.

الفصل الأول:

معاني الفلاح وأسبابه

في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معاني الفلاح ووجوهه في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: حقيقة الفلاح في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أسباب الفلاح في القرآن الكريم.

المبحث الأول:

معاني الفلاح ووجوهه في القرآن الكريم.

المطلب الأول: تعريف الفلاح في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: وجوه الفلاح ونظائره في القرآن.

المطلب الأول:

تعريف الفلاح في اللغة والاصطلاح

الفرع الأول: تعريف الفلاح لغة.

الفرع الثاني: تعريف الفلاح اصطلاحا.

الفرع الأول: تعريف الفلاح لغة.

–الفلاح اسم مصدر من قولك : أفلح فلان يُفلح إفلاحًا وفلاحًا وفَلَحًا، والمصدر الإفلاح[1]
قال ابن فارس[2]: الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على شَقٍّ، والآخر على فَوْزٍ وبَقاء. [3]

– الأول: الشق والقطع.

قال المرتضى الزبيدي[4]: «... الفَلْحُ وما يُشاركه كَالفَلْق والفَلْد والفلْذِ، ونحو ذلك يَدُلُّ على الشَّقّ والفَتْح كما في الكشّاف ، وصَرّحَ به الرّاغبُ وغيره . وهو بناءً على ما عليه قُدماءُ أَهلِ اللُّغَة من أَنّ المشاركةَ في أَكثرِ الحروف اشتقاقٌ يدور عليه معنىَ المادّةِ، فيتّحد أَصلُ مَعناهَا ويتغايَرُ في بَعْض الوُجوه.» [5]

والفَلْحُ: الشَّقُّ والقطع، فَلَح الشيءَ يَفْلَحُه فَلْحاً شَقَّه ومنه قول الشاعر: إِنَّ الحَدِيدَ بالحديد يُفْلَحُ ، أَي: يُشَقُّ ويُقطع.
والفَلْحُ مصدر فَلَحْتُ الأَرض إذا شققتها للزراعة، وفَلَح الأَرضَ للزراعة يَفْلَحُها فَلْحاً إِذا شقها للحرث، ومنه الفَلاَّح وإنما قيل له فَلاَّحٌ، لأَنه يَفْلَحُ الأَرضَ، أَي: يَشقها وحِرْفَتُه الفِلاحة، والفَلَحُ شقٌ في الشَّفَةِ السُّفْلى يقال: رجل أَفْلَحُ وامرأَة فَلْحاءُ. [6]

---

(1) انظر: تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (1/257)، وروح المعاني، للألوسي (24/20)، ومختار الصحاح (ص 213).
(2) هو الإمام اللغوي المحدث أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب الرازي القزويني المالكي؛ كان إماماً في علوم شتى، خصوصا في اللغة، من مؤلفاته: «معجم مقاييس اللغة»، و«المجمل» . توفي سنة 395هـ .
« انظر : وفيات الأعيان، لابن خلكان (1/118)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (17/103) ».
(3) معجم مقاييس اللغة، (4/450) مادة: «فلح».
(4) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بمرتضى: علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. أصله من واسط في العراق، ولد بالهند سنة 1145هـ، ونشأ في زبيد باليمن، و أقام بمصر حتى وفاته بالطاعون سنة 1205هـ.
من مصنفاته: «تاج العروس من جواهر القاموس»، و «إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي».
« انظر : الأعلام، للزركلي (7/70) ».
(5) تاج العروس (7/26).
وقيل: « إن أصل مفهوم هذه المادة: الانشراح، فاشتق منها الفلج والفرج والفرق والفلق والفلغ». وهو قريب مما تقدم
انظر: مفردات القرآن (نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية) (ص 340).
(6) راجع: لسان العرب (5/3458– 3459) مادة: «فلح»، و تهذيب اللغة (5/72).

– الثاني: البقاء والفوز. [1]

– قال ابن منظور[2]: " الفَلاحُ: الفوز والنجاة، والبقاء في النعيم والخير. وفي حديث أَبي الدَّحْداحِ[3]: بَشَّرَك الله بخير وفَلَحٍ، أَي، بَقاءٍ وفَوْز... وإِنما قيل لأَهل الجنة مُفْلِحون، لفوزهم ببقاء الأَبَدِ ..... وفَلاحُ الدهر: بقاؤُه ". [4]

– قال الليث[5] : " الفَلاَح هو البقاءُ في الْخَيْر . وفي الأَذَان حيَّ على الفَلاح ، يعني هَلُمّ على بَقَاءِ الْخَيْرِ . وقال غيره حَيَّ، أي: عجل وأَسْرِعِ على الفَلاَح ، معناه: إلى الفوز بالبقاء الدائم" [6] .

– قال ابنُ الأَثير[7]: " في حديث الأذان [حَيَّ على الفَلاح]، الفَلاح : للبَقَاءُ والفَوْزُ والظَّفَرُ، وهو من أفلح كالنَّجاحِ من أَنْجَحَ: أي هَلُمُّوا إلى سَبَب البَقاء في الجنة والفَوْز بها، وهو الصلاة في الجماعة ". [8]

---

(1) قال القرطبي : " وقد يستعمل الفلاح في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة ".

انظر: الجامع لأحكام القرآن (278/1).

(2) محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري الإفريقي، المصري، جمال الدين أبو الفضل، صاحب "لسان العرب" في اللغة، الذي جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية. ولد سنة 630هـ، وكان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة، توفي سنة 711هـ. " انظر : بغية الوعاة، للسيوطي (188/1)، والدرر الكامنة، لابن حجر (262/4) ".

(3) الصحابي الجليل: أبو الدحداح، كان حليفا للأنصار، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ [الآية 11 سورة الحديد]. ذُكِرت وفاته في حياة النبي ﷺ، ورجح ابن حجر أنه عاش حتى زمن معاوية.

" انظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (ص 800)، والإصابة، لابن حجر (57/7) ".

(4) انظر: لسان العرب (3458/5)، و تاج العروس (25/7)، الصحاح (392/1).

(5) رافع بن الليث بن نصر بن سيار بن المظفر، كان بارعا في الأدب، بصيرا بالشعر والغريب والنحو، توفي سنة 195هـ.

" انظر : بغية الوعاة، للسيوطي (270/2)، والأعلام، للزركلي (13/3) ".

(6) تهذيب اللغة، للأزهري (71/5).

(7) المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، أبو السعادات، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب مجد الدين. من مشاهير العلماء ، وأكابر النبلاء ، وأوحد الفضلاء. ولد سنة 544هـ بجزيرة ابن عمر: (مدينة فوق الموصل ، سميت جزيرة لأن دجلة محيط بها .)، من أشهر مصنفاته " جامع الأصول "، و" النهاية في غريب الحديث ". توفي سنة 606هـ.

" انظر : بغية الوعاة (274/2)، ووفيات الأعيان (141/4) ".

(8) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (469/3).

– كما يطلق الفلاح، ويراد منه الفوز بمـا يُغْتَبَطُ به، والظفر بما فيه صلاح الحال.

وأَفْلَحَ الرجلُ: ظَفِرَ، يقال لكل من أَصاب خيراً: مُفْلح.[1]

– قال الطبري[2]: ((ومن الدلالة على أن أحد معاني الفلاح، إدراكُ الطَّلِبة، والظفر بالحاجة، قول لبيد بن ربيعة[3]: (اعْقِلِي، إنْ كُنْتِ لَمَّـا تَعْقِلِي، ..وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقَلْ.) [4]

يعني: ظَفِر بحاجته وأصابَ خيرًا)).[5]

– قال الزمخشري[6]: ((الفلاح: هو الفوزُ والظَّفر بقسمةٍ من قسم الخير والاستبداد بها)). [7]

– ومن ألفاظ الطلاق الطلاق الدّالّة عليه بالكناية، قولهم في الجاهلية: اسْتَفْلِحِي بأَمرِك، أَي فُوزي به.[8]

ومعناه: اظْفَرِي بأَمْرِك، وفُوزِي بأمْرِك، واستبدي بأمْرِك [9].

– والفلاح: السَّحور، كما جاء في الحديث: ((.... فقام بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تَخَوَّفْنا الفلاح ...... قلت له: وما الفلاح ؟ قال: السَّحور)).[10]

جاء في تحفة الأحوذي: ((... الفلاح الفوز بالبغية، وسُمي السَّحور به لأنه يُعِين على إتمام الصوم. وهو الفوز بما كسبه ونواه والموجب للفلاح في الآخرة، وقال الخطابي: أصل الفلاح البقاء، وسمي السَّحور فلاحا، إذ كان سببا لبقاء الصوم ومعينا عليه)).[11]

---

(1) انظر: لسان العرب (3458/5)، وتفسير النسفي (مدارك التنزيل و حقائق التأويل)، (ص 20).

(2) أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، كان رأسا فِي التفسير، إماما فِي الفقه، والإجماع والاختلاف، علاّمة في التاريخ وأيام الناس، عارفا بالقِراءات وباللغة. ولد سنة 224هـ بآمل أكبر مدن طبرستان. ألّف كتبا لم يصنف مثلها و منها: ((تفسيره جامع البيان))، و((تهذيب الآثار))، و((تاريخ الأمم و الملوك))، توفي ببغداد سنة 310هـ.

انظر: ((طبقات المفسرين، للسيوطي(ص95) ، وسير أعلام النبلاء (267/14))).

(3) الصحابي الجليل: لبيد بن ربيعة بنِ عامِر ابن مالك بن جعفر بن كِلاب العامري، كان شاعراً من فحول الشعراء (أحد أصحاب المعلقات) ، أسلم مع وفد قومه وحسن إسلامه، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، توفي سنة 41هـ، وعمره 140سنة.

انظر: ((أسد الغابة، لابن الأثير (482/4)، والإصابة، لابن حجر (4/6))).

(4) ديوان لبيد بن ربيعة، ص 91،30.

(5) تفسير الطبري (256/1).

(6) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي، العلامة، النحوي، اللغوي، المفسر، الملقب بجار الله لأنه جاور بمكة زمانا، ولد سنة 467هـ بزمخشر، قرية من قرى خوارزم، كان مجاهرا باعتزاله داعيا إليه، له تصانيف كثيرة منها: ((الكشاف)) ، و ((الفائق في غريب الحديث)). توفي سنة 538هـ. انظر: ((طبقات المفسرين، للسيوطي(ص120)، وسير أعلام النبلاء (152/20))).

(7) الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (138/3).

(8) انظر: تاج العروس (28/7).

(9) تهذيب اللغة، للأزهري (72/5)، و غريب الحديث، لأبي عبيد (79/5).

(10) أخرجه الترمذي: كتاب الصوم/ باب ما جاء في قيام شهر رمضان (160/3)، (ح: 806). وقال: حسن صحيح.

(11) تحفة الأحوذي ، للمباركفوري (521/3).

قال ابن الجوزي[1]: ‹‹ وسُمِّي السَّحور فلاحا من البقاء . فبعضُهم يقول لأنّه بقاءٌ في الخير، وبعضهم يقول لأن بقاءَ الصومِ به ››. [2]

الفرع الثاني: تعريف الفلاح اصطلاحا.

بالرجوع إلى المصنفات التي اعتنت بالتعريفات الاصطلاحية، لم أجد من أفاض في بيان المعنى الاصطلاحي للفلاح[3]. وأما أصحاب كتب غريب القرآن فاختلفت تعبيراتهم، لكنها مبنية على الأصل اللغوي لكلمة الفلاح.

- قال الراغب الأصفهاني[4]: ‹‹ .. والفلاح: الظفر وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي؛ فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز، وفلاح أخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل››. [5]

- وقيل: ‹‹ الفلاح: إصابة الخير والنعيم، مع الخلود فيه ››. [6]

- ‹‹ وقيل لكل من كان ذا عقل وحزم: أفلح، أي نجح في سعيه، وفاز بمراده ›› . [7]

وقيل: ‹‹ الفلاح: الظفر بالبغية، وإدراك الأمل›› . [8]

---

(1) جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي، من ولد الإمام أبي بكر الصديق، الفقيه الحنبلي، كان علامة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنف في فنون عديدة منها: ‹‹زاد المسير في علم التفسير››، و ‹‹المنتظم في التاريخ››، و‹‹الموضوعات››. ولد سنة 508هـ، وتوفي سنة597هـ.

انظر: ‹‹وفيات الأعيان، لابن خلكان (140/3)، وطبقات المفسرين، للسيوطي(ص61) ››.

(2) غريب الحديث، لابن الجوزي (205/2).

(3) ومنها: التعريفات للجرجاني، وكتاب الحدود الأنيقة لزكريا الأنصاري. فهذان المصنّفان لم يتطرقا البتة لذكر الفلاح، وأما المناوي صاحب التوقيف على مهمات التعاريف، وأبي البقاء الكفوي في الكليات فالظاهر أنهما نقلا عن الراغب الأصفهاني باختصار.

انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص563)، والكليات، للكفوي (ص697).

(4) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، قرنه بعضهم بالغزالي، من مصنفاته: ‹‹ مفردات القرآن›› ، و‹‹أفانين البلاغة››. ذكرت وفاته سنة 502هـ.

‹‹ انظر : بغية الوعاة (297/2)، والأعلام (255/2) ››.

(5) مفردات غريب القرآن، للأصفهاني (ص385).

(6) الغريبين في القرآن و الحديث، للهروي (1540/5)، بتصرف.

(7) انظر: المعجم المفصل في تفسير غريب القرآن، (ص373). ويستخلص منه أنّ الفلاح هو: ‹‹ النجاح في السعي، والفوز بالمراد ››.

(8) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (86/1)، والجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (185/1).

وعرفه البقاعي[1] بقوله: ((الفلاح: الفوز والظفر بكل مراد، ونوالُ البقاءِ الدائم في الخير)). [2]

– قال القرطبي[3]: ((ثم الفلاح في العرف : الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب)). [4]

– وقال الطاهر بن عاشور[5]: ((والفلاح: الفوز وصلاح الحال، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، والمراد به في اصطلاح الدين: الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة)). [6]

ـــ يتبين مما تقدم عرضه من هذه التعريفات، أنّ المفهوم الاصطلاحي للفلاح يقوم على معاني: الفوز والظفر بكل أنواع الخير مع الخلود فيه، والنجاة من جميع الشرور ومسبباته. [7]

كما تضمنت بعضها معنى: البقاء و الخلود، لأنّه من تمام التمتع بالنعيم بقاؤه وعدم زواله؛ لذلك كثيرا ما يقترن الفوز بالجنة في القرآن الكريم بذكر الخلود فيها.

قال الإمام الرازي[8]: ((اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة، وهو الخلود أولاً والرضا ثانياً ، وروي أنه عليه السلام قال : « إن الخلود في الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة »)). [9]

---

(1) برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُبَاط البِقاعي الشافعي، المحدث، المفسر، العلامة، المؤرخ. ولد سنة **809هـ** بالبقاع بالشام، أخذ عن أساطين عصره كابن ناصر الدين، وابن حجر، وبرع وتميز وناظر، صنّف تصانيف عديدة من أجلّها: ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور))، و((عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران)). توفي بدمشق سنة **885هـ**.

انظر: ((شذرات الذهب، لابن العماد (**509/9**)، والبدر الطالع، للشوكاني (**18/1**))).

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (**91/1**).

(3) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، أبو عبد الله القرطبي، الأنصاري، الأندلسي، المالكي، العالم العارف الزاهد، صاحب التفسير المشهور: ((الجامع لأحكام القرآن)) ، وكتاب((التذكرة بأمور الآخرة))، استقر بمصر حتى وفاته سنة **671هـ**.

انظر: ((الديباج المذهب (ص **406**)، وطبقات المفسرين (ص **92**))).

(4) تفسير القرطبي (**279/1**). وقريب منه في تفسير السعدي: ((والفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب)) (ص **41**).

(5) محمد الطاهر بن عاشور، العلامة المالكي التونسي الشهير، وشيخ جامع الزيتونة، أحد أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، من أشهر مصنفاته: ((التحرير والتنوير)) في تفسير القرآن، و ((مقاصد الشريعة الإسلامية)). ولد سنة **1296هـ**، وتوفي سنة **1393هـ**.

((انظر: الأعلام (**174/6**))).

(6) التحرير والتنوير (**247/1**).

(7) قال الشيخ ابن عثيمين في تفسير سورة البقرة: ((الفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير)). تفسير القرآن للعثيمين– سورة البقرة (**32/1**).

(8) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، فخر الدين أبو عبد الله، البكري، التيمي، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، المعروف بابن الخطيب، المفسر، الفقيه الشافعي، انتهت إليه الرياسة في علم الكلام و المعقولات، ولد سنة **544هـ**، صنّف في شتى العلوم، من أشهرها: ((مفاتيح الغيب)) في التفسير، و ((المحصول في أصول الفقه))، يذكر أنه ندم على اشتغاله بعلم الكلام، توفي سنة **606هـ**.

انظر: ((طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (**81/2**)، وطبقات المفسرين (ص**115**))).

(9) تفسير الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، (**55/32**).

المناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

لمّ كان منطلق جل التعريفات الاصطلاحية من المعنى اللغوي، تَعيّن وجود مناسبة بين الأصل اللغوي الذي اشتُق منه لفظ الفلاح والمعنى الاصطلاحي الذي نص عليه العلماء؛ مما يزيد في وضوح المعنى، ويُظهر جمالية و رونق أسلوب القرآن الكريم الفصيح.

– قال القرطبي: ((...كأنّ المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه ...))[1]، فوجه المناسبة هنا ظاهر بين معنى الشق و القطع، و كلمة الفلاح[2].

و يؤكد هذا المثال استعمال لفظ الفلاح في الفوز، فكأن الفائز شَقّ طريقه وفلَحه للوصول إلى مبتغاه، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت[3].

– ومن المعاني اللطيفة التي ذُكرت في أوجه العلاقة بين المصطلح القرآني للفلاح وأصل اشتقاقه، ما جاء في تفسير الإمام الشعراوي[4]، قال رحمه الله: ((فالحق – تبارك وتعالى – يعطينا صورة من واقعنا المشاهد، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة، فالفلاّح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ﴾ [البقرة: 261].

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطي كل هذا العطاء، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التي تعطيك؟ وكما أن الفلاّح إذا تعب واجتهد زاد محصوله، كذلك المؤمن كلما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة))[5].

---

(1) تفسير القرطبي (1/278).

(2) فيما اعتبر بعض المفسرين أنّ العلاقة بين القطع ولفظ الفلاح، راجعة إلى كون المفلحين مقطوع لهم بالخير في الدنيا و الآخرة.

انظر: معالم التنزيل، للبغوي (1/63) ، و لباب التأويل، للخازن (1/25).

(3) التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي (1/46).

(4) العلامة المفسر محمد متولي الشعراوي، ولد سنة 1332هـ الموافق 1911م بمصر، حفظ القرآن صغيرا، حصل على العالمية من الأزهر، اشتغل بالتدريس في مصر، السعودية و الجزائر، ثم عُين وزيراً للأوقاف و شؤون الأزهر، أُختير عضوا في عدد من المجامع العلمية، و نال عدة جوائز تقديرية، توفي عام 1419هـ الموافق 1998م، بعد أن أثرى المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات أبرزها: ((تفسير القرآن الكريم)) ، ((الأدلة المادية على وجود الله)) ، ((معجزة القرآن)). عقد العديد من المؤتمرات و المحاضرات و الندوات الدينية في كل عواصم العالم، حاملا رسالة الإسلام وداعيا إلى السلام.

انظر: ((الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير(3/2340)، و المعجم الجامع في تراجم العلماء المعاصرين(ص 325))).

(5) تفسير الشعراوي (ص 9960).

الإعجاز اللغوي والبياني لكلمة الفلاح.

– إنّ كلمة الفلاح من الألفاظ الجامعة التي اشتملت على المعاني الكثيرة، فقد تضمنت مع الإيجاز والفصاحة جميع دلائل الفوز و الظفر بالخير وكل مسبباته، والنجاة و السلامة من الشر و جميع آفاته. حتى عدّها أئمة اللسان من الكلمات التي جمعت شتات الحكم و مقاصد النجاح المستمر من الدنيا إلى الآخرة، والشامل لجميع مناحي حياة الإنسان؛ ما لو بُسطت المعاني التي تضمنتها هذه الكلمة، لربما احتيج إلى أضعاف هذه الألفاظ أو أكثر مع عدم استيفائها لمدلولاتها الواسعة.

– قال الزبيدي: « ليس في كلام العرب كلِّه أَجمعُ من لفظَة الفلاح لِخَيْري الدنيا والآخرة» [1].

فلا يمكن التعبير عن معاني الفلاح بكلمة واحدة تستوعب كل مضامين النجاح و التوفيق المطلق في العاجل و الآجل على غاية الاستقصاء سواها.

فقد امتاز نظم القرآن بما يلائمه من ألفاظ اللغة بحيث لا تندّ لفظة، ولا تختلف كلمة، مع استعمال أَمسِّها رحما بالمعنى، وأفصحها في الدلالة، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفاها رونقا وماء؛ لذلك اختصت كلمات القرآن في كونها لا تسرف على النفس ولا تستفرغ مجهودها، بل هي مقتصدة في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق بها ولا تنفر عنها، ولا يتخونها الملل، ولا تزال تبتغي أكثر من حاجتها في التّرَوُح والإصغاء إليها والتصرف معها، والانقياد لها [2].

إضافة إلى هذا كله، فإنّ كلمة الفلاَح خفيفق الْمَحْمَل على السّمْع، سَهْلةُ الجَرْيِ عَلَى الأَلْسِنِةِ؛ لذلك اقتضت حكمة الله جل جلاله على تكرار لفظ الفلاح في نداء السماء الذي يرفعه المؤذن خمس مرات في اليوم و الليلة؛ من أجل تنبيه المؤمنين للسعي إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد وضع الحقّ تعالى نظاما متكرّرا منضبطا للتسبيح والتحميد والعبادة، وحضّ على الصلاة في أوقات معينة، وأزمان متكررة، وما أبدع وما أجمل نظام الإسلام بالتذكير بالعبادة عن طريق الأذان الشرعي، الذي هو دعوة دائمة للإيمان والإسلام، بإعلان الشهادتين، والحثّ على أداء الصلاة وتحقيق الفلاح،

---

(1) تاج العروس (26/7).

(2) انظر: تاريخ آداب العرب، لمصفى الرافعي (2/179– 180)، بتصرف. وقد طبع هذا الجزء في كتاب مستقل بعنوان: « إعجاز القرآن»، وهو من أحسن المصنفات التي تناولت الإعجاز الأدبي والبلاغي للقرآن الكريم والسنة النبوية.

وإدراك مغزى العبادة، والإيقان بعظمة الله، وأنه أكبر شي ء في هذا الوجود، واستحضار عظمة الله، وإحاطة علمه وقدرته، فهو مبعث الهيبة والوقار، والمبادرة إلى الامتثال، والاستقامة وتحقيق المنال [1].

قال الحافظ ابن حجر[2]: ((.... فالأذان إعلام بالصلاة التي هي أفضل الأعمال، بألفاظ هي من أفضل الذِّكر لا يزاد فيها ولا ينقص منها...)) [3].

فهذا النداء حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قِبَلِ فالق الإصباح: ((حي على الفلاح، حي على الفلاح)) [4].

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للزحيلي (1990/3).

(2) الإمام الشهير، شيخ الإسلام حافظ الدنيا، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده بمصر سنة 773هـ، صاحب التصانيف المشهورة، من أشهرها : ((فتح الباري شرح صحيح البخاري))، و: ((الإصابة في معرفة الصحابة)). توفي سنة 852هـ.

انظر: ((طبقات الحفاظ، للسيوطي (ص552)، والضوء اللامع، للسخاوي (36/2))).

(3) فتح الباري، لابن حجر (87/2).

(4) انظر: مدارج السالكين (395/1)، بتصرف.

المطلب الثاني:

وجوه الفلاح ونظائره في القرآن

الفرع الأول: ورود ألفاظ الفلاح في القرآن الكريم.

الفرع الثاني: دلالة لفظ الفلاح في السياق القرآني.

مدخل:

إنّ الدراسات القرآنية المتعلقة بالوجوه و النظائر لقيت اهتماما خاصا من العلماء الذين أفردوها بالبحث و التصنيف، لما في معرفتها من إدراك لألفاظ القرآن الكريم وفقْهِ كل لفظ ومعناه، خاصة إذا ورد بمعان متعددة يعسر إدراكها من الوهلة الأولى، بل لابد من النظر الدقيق والفهم السديد لهذه المعاني المتباينة حتى يتضح المعنى المقصود من اللفظ المراد تفسيره؛ لذلك اُعتُبِر مبحث الوجوه والنظائر متفرعا عن علم التفسير، وعلما مستقلا من علوم القرآن الكريم[1].

فهو يبحث في ألفاظ القرآن ويوضح مدلولاتها في مختلف الآيات التي وردت فيها، فالتفسير الذي يختص به هذا النوع يقوم بالنظر في معنى كل لفظ ورد متكرراً في آيات القرآن، وكانت دلالته في آية أو بعض الآيات التي ورد فيها مبايناً لدلالته على معناه في الآية أو الآيات الأخرى، ثم يقوم بحصر تلك المعاني المتعددة، ويجعلها وجوهاً للفظ الواحد.

فالوجوه هي المعاني المختلفة للفظ القرآني، و النظائر هي الآيات الواردة في الوجه الواحد.

ومن ثم، فإن مصطلح الوجوه والنظائر يدل على المعاني المختلفة للفظ واحد في سياقاته القرآنية المتعددة [2].

وقد جعل بعض العلماء ذلك من أنواع معجزات القرآن الكريم حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجه أو أقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

---

(1) ظهرت العناية بعلم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم قبل تدوين علوم القرآن، فتذكر الدراسات أنّ أول من ألف كتابا مستقلا في هذا العلم هو: مقاتل بن سليمان (150هـ) في كتابه: "الأشباه والنظائر في القرآن الكريم"، وكل من جاء بعده هم عيال عليه، و صنّف المبرّد النّحوي (285هـ): "ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد"، و الحكيم الترمذي (320هـ) ألّف: "تحصيل نظائر القرآن"، ثم تتابع التأليف فكان ممن صنف فيه من المتأخرين: الدامغاني (478هـ) في كتابه: "الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز"، وابن الجوزي (597هـ) وكتابه: "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر"، وابن العماد(887هـ): صنّف "كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر". وعند تدوين علوم القرآن، نجد أن العلماء أفردوا أبواباً للوجوه والنظائر في كتبهم، كما صنع الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" في النوع الرابع، والسيوطي في كتابه "الإتقان" في النوع التاسع والثلاثون.

انظر: البرهان في علوم القرآن (102/1)، والإتقان في علوم القرآن (975/3).

(2) يمكن الاستفادة في موضوع الوجوه و النظائر من الكتب التالية:

1- الوجوه و النظائر في القرآن الكريم- دراسة موازنة – للباحث سليمان بن صالح القرعاوي.

2- الوجوه و النظائر في القرآن الكريم، للباحثة سلوى محمد العوا .

3- الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية و التطبيق، لمحمد نور الدين المنجد.

الفرع الأول: ورود ألفاظ الفلاح في القرآن الكريم.

وردت مادة (فلح) [1] في القرآن الكريم (40) أربعين مرة في مواضع متعددة، بصيَغ مختلفة بلَغ عددها (7) سبعَ صيغٍ، وهي إجمالا على النحو التالي:

أَفْلَحَ - يُفْلِحُ - تُفْلِحُونَ - يُفْلِحُونَ - تُفْلِحُوا، الْمُفْلِحُونَ، الْمُفْلِحِينَ.

وفيما يأتي بيانها بالتفصيل:

♦ صيغة الفعل: " أفلح "[2].

الفعل المزيد بالهمزة (أفلح) ورد مفردا أربع مرات (4).

1) قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ [المؤمنون، الآية:1].

2) قال تعالى: ﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ ﴾ [طه، الآية:64].

3) قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ ﴾ [الأعلى، الآية:14].

4) قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ ﴾ [الشمس، الآية:9].

---

(1) استفدت في إحصاء ألفاظ الفلاح و مشتقاته من المراجع التالية:

1- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لفؤاد عبد الباقي (ص 526).

2- المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم و قراءاته، إعداد أحمد مختار عمر (ص 358، 700، 1062).

3- المعجم المفهرس لمواضيع القرآن الكريم، للدكتور محمد الحمصي (ص 488).

4- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، إعداد بسام رشدي الزين (906/2).

5- معجم الأعلام و الموضوعات في القرآن الكريم، للدكتور عبد الصبور مرزوق (1023/3).

6- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بمصر (ص 864).

7- معجم كلمات القرآن الكريم، للدكتور محمد زكي خضر.

8- تصنيف آيات القرآن الكريم، محمد محمود اسماعيل (450/1)، (353/2)، (386/6).

(2) قال الطاهر بن عاشور: « ... والفعل منه أفلح أي صار ذا فلاح ، وإنما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لأنه لا يقع حدثاً قائماً بالذات بل هو جنس تحف أفراده بمن قدرت له ».

التحرير و التنوير (247/1).

♦ **صيغة الفعل: " يفلح ".**

الفعل المضارع (يفلح) ورد تسع (9) مرات منفيا، مسندا لجمع المذكر السالم سوى في سورة طه فقد أسند الفعل للمذكر المفرد.

1) **قال تعالى:** ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ **[الأنعام، الآية:21]**.

2) **قال تعالى:** ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ **[الأنعام، الآية:135]**.

3) **قال تعالى:** ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ **[يونس، الآية:17]**.

4) **قال تعالى:** ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا **يُفْلِحُ** ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ **[يونس، الآية:77]**.

5) **قال تعالى:** ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ **[يوسف، الآية:23]**.

6) **قال تعالى:** ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا **يُفْلِحُ** ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ **[طه، الآية:69]**.

7) **قال تعالى:** ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ **[المؤمنون، الآية:117]**.

8) **قال تعالى:** ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ **[القصص، الآية:37]**.

9) **قال تعالى:** ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا **يُفْلِحُ** ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ **[القصص، الآية:82]**.

♦ **صيغة الفعل: " تفلحون ".**

الفعل المضارع جمعا مضافا لواو الجماعة بثبوت النون (تفلحون) ورد إحدى عشرة مرة (11)، كما يلي:

1) **قال تعالى:** ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿١٨٩﴾ ﴾ **[البقرة، الآية:189].**

2) **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿١٣٠﴾ ﴾ **[آل عمران، الآية:130].**

3) **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿٢٠٠﴾ ﴾ **[آل عمران، الآية:200].**

4) **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿٣٥﴾ ﴾ **[المائدة، الآية:35].**

5) **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿٩٠﴾ ﴾ **[المائدة، الآية:90].**

6) **قال تعالى:** ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿١٠٠﴾ ﴾ **[المائدة، الآية:100].**

7) **قال تعالى:** ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ **[الأعراف، الآية:69].**

8) **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ﴿٤٥﴾ ﴾ **[الأنفال، الآية:45].**

9) **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ **تُفْلِحُونَ** ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ **[الحج، الآية:77].**

10) قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ **تُفۡلِحُونَ** ﴿٣١﴾ ﴾ [النور، الآية:31].

11) قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ **تُفۡلِحُونَ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة، الآية:10].

♦ **صيغة الفعل: " يفلحون ".**

الفعل المضارع جمعا مضافا لواو الجماعة بثبوت النون (يفلحون) ورد مرتين (2) منفيا، كما يلي:

1) قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا **يُفۡلِحُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [يونس، الآية:69].

2) قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا **يُفۡلِحُونَ** ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل، الآية:116].

♦ **صيغة الفعل: " تفلحوا ".**

الفعل المضارع جمعا مضافا لواو الجماعة المنصوب بحذف النون[1] (تفلحوا) ورد مرة واحدة منفيا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن **تُفۡلِحُوٓاْ** إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف، الآية:20].

---

(1) انظر: الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل (6/365).

♦ **صيغة لفظ: " المفلحون ".**

ورد اسم الفاعل (المفلحون) معرفا مرفوعا بالواو، لأنه جمع للمذكر[1] السا لم اثنا عشرة مرة (12).

1) **قال تعالى:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة، الآية:5].

2) **قال تعالى:** ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤ ﴾ [آل عمران، الآية:104].

3) **قال تعالى:** ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ ﴾ [الأعراف، الآية:8].

4) **قال تعالى:** ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٥٧ ﴾ [الأعراف، الآية:157].

5) **قال تعالى:** ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٨ ﴾ [التوبة، الآية:88].

6) **قال تعالى:** ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ ﴾ [المؤمنون، الآية:102].

---

(1) الأصل في الشريعة الإسلامية المساواة بين الذكور و الإناث في الخطاب و التكليف بالأحكام، و كذا في الثواب و العقاب الأخروي، و قد استفاضت بذكر ذلك الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية. قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٣٥﴾[الأحزاب، الآية:35]،

وقال أيضا: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ۝١٢٤﴾ [النساء، الآية:124].

فالمرأة مخاطبة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ومخاطبة كذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كما أنها مخاطبة بصيغة القول الذي يدل ظاهره على أنه للرجال مثل قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران، الآية:133].

– قال ﷺ: " إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ ". (سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب في الرجل يجد البلة في منامه، ح: 236).

قال الخطابي: " وقوله شقائق الرجال أي نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطباع فكأنهن شققن من الرجال. والخطاب إذا ورد بلفظ المذكر كان خطابا للنساء إلا مواضع الخصوص التي قامت أدلة التخصيص فيها ".

انظر: معا لم السنن، شرح سنن أبي داود (1/ 79).

7) **قال تعالى:** ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٥١﴾ ﴾ **[النور، الآية:51]**.

8) **قال تعالى:** ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ **[الروم، الآية:38]**.

9) **قال تعالى:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٥﴾ ﴾ **[لقمان، الآية:5]**.

10) **قال تعالى:** ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٢٢﴾ ﴾ **[المجادلة، الآية:22]**.

11) **قال تعالى:** ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ **[الحشر، الآية:9]**.

12) **قال تعالى:** ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرٗا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿١٦﴾ ﴾ **[التغابن، الآية:16]**.

♦ **صيغة لفظ: " المفلحين".**

ورد اسم الفاعل (المفلحين) معرفا مجرورا بالياء[1]، لأنه جمع للمذكر السالم مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ **ٱلْمُفْلِحِينَ** ﴿٦٧﴾ ﴾ **[القصص، الآية:67]**.

---

(1) انظر: الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل (437/8)

الفرع الثاني: دلالة لفظ الفلاح في السياق القرآني.

إن الاعتناء بسياق الألفاظ القرآنية ومراعاة الأغراض التي بنيت عليها الآية، وما انتظم بها من القرائن اللفظية والحالية وأحوال المخاطبين بها، ومعرفة ما سبقها من الآيات وما لحقها، وهو ما يعرف بـ – السباق واللحاق – يُعِينُ على الفهم السليم لمقاصد القرآن ويوضح معاني الألفاظ الواردة في الآيات بشكل يتوافق مع نظم القرآن وأسلوبه المميز له. [1]

لذلك ذكر السيوطي[2] أنه ينبغي على المفسر مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام، وأن يؤاخي بين المفردات. [3]

و تُعدُّ كتب الوجوه و النظائر من المؤلفات التي بيّنت معاني اللفظ القرآني من خلال سياق الآيات الكريمة.

قال الإمام أبو عبد الرحمن النيسابوري[4]: ((باب أفلح: وهو على أربعة أوجه:

أحدها: البقاءُ، كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة، الآية:5]، ونحوه كثير.

والثاني: النجاةُ، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ ﴾ [الأعلى، الآية:14]، نظيرها في الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الآية:9].

---

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((... ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرآن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً، ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب، وطرد الدليل ونقضه...)).

وقال في موضع آخر: ((...فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبيّن له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين)).

راجع: مجموع الفتاوى (15/6)، (58/15).

(2) الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري السيوطي، المصري، الشافعي، ولد سنة 849هـ ونشأ يتيما، تلقى العلوم على أكابر عصره، برز في جميع الفنون واشتهر ذكره،صنف التصانيف المفيدة من أشهرها: ((الدر المنثور في التفسير))، و((الإتقان في علوم القرآن))، توفي سنة 911هـ.

((انظر : شذرات الذهب، لابن العماد (74/10) ، و البدر الطالع، للشوكاني (328/1))).

(3) انظر: الإتقان في علوم القرآن (2316/6).

(4) إسماعيل بن أحمد بن عبد الله، أبو عبد الرحمن، الحيري النيسابوري، الضرير، المفسر المقرئ، أحد أئمة المسلمين والعلماء العاملين. صاحب التصانيف المشهورة في القرآن والقراءات والحديث والوعظ، روى عنه الخطيب البغدادي. كان مفيدا نفاعا للخلق مباركا في علمه له تفسير مشهور. ولد سنة 361هـ، ومات سنة 430هـ.

((انظر : طبقات المفسرين، للسيوطي (ص35) ، و سير أعلام النبلاء (539/17))).

والثالث: سَعَدَ، كقوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ [المؤمنون، الآية:1].

والرابع: الأمانُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس، الآية:77]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ ﴾ [المؤمنون، الآية:117] ». (1)

_ أمّا الفقيه الدَامَغاني(2) فجعل تفسير « فلح » على وجهين: سعد . فاز(3)

فوجه منها، أفلح: سعد، كقوله تعالى:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ [المؤمنون، الآية:1]، يعني: سَعِدوا، وقال تعالى في سورة سبح: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ ﴾ [الأعلى، الآية:14]، ومثلها في سورة الشمس: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ ﴾ [الآية:9]، يعني: سَعِد، ونحوه.

الثاني: أفلح بمعنى: فاز؛ قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾ [الآية:37]، أي: لا يفوزون. (4)

إن المتأمل في الوجوه المذكورة للفظ الفلاح يتبين له سعة وثراء معانيه باختلاف السياق الذي وردت به الآيات، و يوضح مدى اهتمام القرآن الكريم بموضوع الفلاح سعيا لتيسير أسباب السعادة في الدنيا، والنجاة بالبقاء في النعيم يوم الجزاء.

ويمكن إجمال المعاني و الألفاظ القريبة التي تضمنتها كلمة الفلاح كالآتي:

– أولا: البقاء. ثبات الشيء، وهو ضد الفناء.

قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل، الآية:96]. وقال سبحانه: ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى، الآية:16،17].

---

(1) وجوه القرآن الكريم، للنيسابوري (ص32).

(2) أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسين، الدامغاني: بفتح الدال وسكون الألف وفتح الميم والغين المعجمة وسكون الألف وبعدها نون، نسبة إلى دامغان – وهي مدينة بين الري ونيسابور– ينسب إليها كثير من العلماء. كان فقيها حنفيا فاضلا. ولد سنة 400هـ، وتوفي سنة 478هـ.

« انظر : اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير (486/1)، والأعلام، للزركلي (254/2)».

(3) هذين الوجهين قد توافق عليهما جل من صنّف في الوجوه و النظائر القرآنية.

انظر: الوجوه و النظائر في القرآن الكريم– دراسة موازنة – (ص517).

(4) انظر: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز (ص85، 86).

قال السعدي[1]: « فالآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة ». [2]

– ثانيا: النجاة. الخلاص والسلامة من جميع أنواع المكروه.[3]

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم، الآية:72].

وقال سبحانه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦١﴾ [الزمر، الآية:61].

ذكر الله حالة المتقين ونجاتهم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه وفوزهم بتحقيق أمنياتهم، وهي الظَّفَر بالجنة ، ونفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان، فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

فهذه الآية جامعة، لأنّ الإنسان إذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال ، وإذا علم أنه لا يحزن كان هادئ النفس عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات. [4]

– ثالثا: السعادة. وهي معاونة الأمور الإلهية للإنسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها.[5]

وهي على ضربين: سعادة دنيوية.

وسعادة أخروية، وهي السعادة القصوى لأن نهايتها الجنة.

---

(1) أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، التميمي، النجدي، مفسر، من علماء الحنابلة، الشهير بعلامة القصيم.

له نحو 30 كتابا، منها الكتب المطبوعة الآتية: «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن»، و «طريق الوصول إلى العلم المأمول من الأصول»، «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»، و «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».

ولد سنة 1307هـ، وتوفي سنة 1376هـ.

« انظر : الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء (1207/2)، والأعلام، للزركلي (340/3)».

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص921).

(3) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي (582).

(4) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص728)، ومفاتيح الغيب للرازي (243/12) بتصرف.

(5) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص232).

وكذلك الشقاوة على ضربين أيضاً: شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية، وهي الشقاوة القصوى لأن نهايتها النار. فالشقي من سبق له الشقاوة في الأزل، والسعيد من سبقت له السعادة في الأزل. [1]

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود، الآيات:105 إلى 108].

قسّم المولى تعالى الخلق في هذه الآية إلى شقي وسعيد، فبدأ بأهل الشقاوة ممن كفر بالله وعصى أمره، لأن المقام مقام إنذار وتحذير. وبَيَّن أصناف العذاب الذي يلحقهم من ضيق الأنفاس وحرج الصدور، وشدة الكروب. ثم قابلهم بأصحاب السّعادة ممن حصل لهم الفلاح، والفوز بالنعيم المقيم الدائم المستمر من غير انقطاع بوقت من الأوقات، وما يلحق ذلك من التمتع بالملذات.

وقد أكدت السنة المطهرة على هذا المعنى بجلاء ووضوح، وبيَّنَت أنه عائد إلى ما كُتِب لكل إنسان من شقاوة أو سعادة في كتاب المقادير أولاً، ولما كَسَب منْ خيرٍ وشرٍّ ثانياً.

فمن حديث علي رضي اللّه عنه قال:" كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي صلى الله عليه و سلم فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرة. فنكّس فجعل يَنْكُت بمِخْصَرته، ثمّ قال: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلاَّ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلاَ قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً ». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتّكِل على كتابنا وندَعُ العمل، فمن كان منّا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان منّا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال: « أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ ». ثُمَّ قَرَأَ:﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ الآية." [الليل، الآية: 5]. [2]

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (371/2).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الجنائز/ باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (418/1)، (ح: 1362)، ومسلم في كتاب القدر / باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (2039/4)، (ح: 2647).

انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (209/3).

– قال ابن القيم: « ليس للعبد في دنياه وآخرته، أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى. وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة، إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره». الداء والدواء (ص415).

– رابعا: الآمان.

أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف. والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسما لما يؤمن عليه الإنسان نحو قوله تعالى : ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ ﴾ [الأنفال، الآية:27]، أي: ما ائتمنتم عليه. [1]

قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام، الآيتين: 81– 82].

وقال جل جلاله: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت، الآية:40].

فيه تنبيه على كيفية الجزاء، وعدل عن مقابلة الإلقاء في النار بدخول الجنة، إلى ما في النظم الجليل اعتناء بشأن المؤمنين، لأن الأمن من العذاب أعم وأهم، ولذا عبر في الأول بالإلقاء الدال على القسر والقهر، وفي الثاني بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا مع الأمن، ودخول الجنة لا ينفي أن يبدل حالهم من بعد خوفهم أمنا.

وجاز أن تكون الآية من الإحتباك بتقدير من يأتي خائفا ويلقى في النار، ومن يأتي آمنا ويدخل الجنة فحذف من الأول مقابل الثاني ومن الثاني مقابل الأول [2].

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، يروي عن ربه، جل وعلا، قال: ((وَعِزَّتِي لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا، أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَّامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَّامَةِ)) [3].

وجاء في السيرة العطرة من أدعية النبي ﷺ التي كان يرددها قوله: ((...اللَّهُمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الخَوْفِ....)) [4].

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص25).

(2) انظر: روح المعاني، للألوسي (127/24).

(3) ابن حبان في صحيحه: كتاب الرقائق / باب حسن الظن بالله تعالى (406/2)، (ح: 640)، بإسناد حسن.

(4) جزء من دعاء طويل، أخرجه الإمام أحمد (246/24)، (ح: 15492)، والحاكم في المستدرك (693/1). صححه الألباني في فقه السيرة (ص202).

– خامسا: الفوز.

وهو الظفرُ بالخير مع حصول السلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ – فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا – ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وفي أخرى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ – وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.[1]

قال المرتضى الزبيدي: « الفوز: النَّجاةُ من الشَّرِّ ، والظَّفَرُ بالخير والأُمنية، يقال: فازَ بالخير ، وفازَ من العذابِ» [2].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء، الآية:13].

بيّن الحق سبحانه في هذه الآية جزاء أهلِ طاعته وكرامته بإدخالهم الجنان التي تجري من تحتها الأنهار وخلودهم السرمدي فيها، ووصف ذلك بالفوز العظيم الذي لا شيء أعظم منه لأنهم ظفروا بكرامة الأبد، ونَجَوْا من الذل و النكد. وهذا كله هو الفلاح العظيم بعينه الذي لا يحيط به نطاق الوصف ولا يوقَف على مطلب يدانيه أصلا.[3]

لذلك كان الفوز بالجنة والنجاة من النار من أعظم النعم وأتمها، فهي غاية الأماني وأسمى الإرادات التي يبتغيها المؤمن بدعائه الصالح.

فمن حديث معاذ بن جبل[4] ﷺ، قال : سمع النبيُّ ﷺ رجلا يَدْعُو يقول : اللَّهمَّ إِني أَسأَلُكَ تَمام النِّعمَةِ ، فقال : « أَيُّ شَيءٍ تمامُ النِّعمةِ ؟ » قال: دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها الخيرَ . قال: « فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ النِّعمَةِ دُخُولَ الجَنَّةِ، وَالفَوْزَ مِنَ النَّارِ»، وسَمِعَ رجلا يقول: يا ذا الجلالِ والإكرامِ، فقال: « قَدْ استُجِيبَ لَكَ فَسَلْ» [5].

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص387).

(2) تاج العروس (273/15).

(3) انظر: تفسير الطبري (490/6)، (565/11)، وروح المعاني للألوسي (72/7).

(4) هو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن، معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الخزرجي الأنصاري، أحد السبعين ممن حضر العقبة وشهد المشاهد كلها، أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو ممن جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن فمكث فيه حتى خلافة أبي بكر، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة 18هـ، وعاش أربعا وثلاثين سنة.

« انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (187/5)، والإصابة، لابن حجر (106/6) ».

(5) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات (541/5)، (ح: 3527). وقال: حديث حسن. وأحمد في المسند (347/36)، (ح: 22017)، وحسّن إسناده شعيب الأرناؤوط.

المبحث الثاني:

حقيقة الفلاح في القرآن الكريم

المطلب الأول: الفلاح بين العزم والتمني.

المطلب الثاني: أبعاد مفهوم الفلاح.

المطلب الأول: الفلاح بين العزم[1] والتمني.

من خلال العرض القرآني لآيات الفلاح، وبتتبع الأصل اللغوي الذي اشتق منه الفعل أفلح[2]؛ يتبين أنّ تحقيق الفلاح وحصوله للمرء في هذه الحياة الدنيا أو في الآخرة؛ لابد فيه من السعي والاجتهاد وبذل الأسباب، وطرق الأبواب لدى الملك الوهاب بالليل والنهار؛ حتى يوفق العبد ليكون من زمرة المفلحين. فإنّ للنجاة أسبابها، وللفلاح طرقه ووسائله التي بيّنها المولى تعالى في صدر سورة – قد أفلح– بذكر صفات المؤمنين المفلحين، وما عطف عليه من أفعالهم .

قال الله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون، الآيات:1 إلى 11]

فالله رغب في الفلاح بمدح أهله العاملين أصحاب الهمم العالية والأخلاق السامية، ليكون العبد على بصيرة من أمره، فلا يتبع نفسه هواها، ويمنيها بطول الأمل وسعة المغفرة؛ فيجمع بين التقصير والتفريط في الطاعات والانغماس في الشهوات والمحرمات.

فهذا الصنف من الناس منبوذ ومذموم، بخلاف المؤمن الحريص على النجاة والفوز، فهو يسارع في الخيرات ويسعى في مرضاة الله سبحانه. قال رسول الله ﷺ : ((الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموْتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى اللهِ))[3].

---

(1) الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث المروي عند أحمد والنسائي أنّ النبي ﷺ كان يقول في دعائه: ((اللَّهُمَ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُشْدِ))، فكمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص. فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل. فهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح؛ فإذا حصل الثبات أولا، والعزيمة ثانيا أفلح العبد كل الفلاح.

انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص 208)، وطريق الهجرتين (578/1). ومفتاح دار السعادة (446/1).

(2) قال الطاهر بن عاشور: ((والفعل منه أفلح أي صار ذا فلاح ، وإنما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لأنه لا يقع حدثاً قائماً بالذات بل هو جنس تحف أفراده بمن قدرت له)). التحرير و التنوير (247/1).

(3) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (638/4)، (ح: 2459)، وأحمد في المسند (350/28)، (ح: 17123). في إسناده ضعف، فيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. و الحديث أورده الألباني في السلسلة الضعيفة: (499/11)، (ح: 5319).

قال ابن القيم[1]:

« الله يلومُ على العجز، ويُحب الكَيِّسَ، ويأمر به، والكَيْسُ: هو مباشرةُ الأسباب التي ربطَ اللهُ بها مُسِّبباتِها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتحُ عمل الخيرِ، وأما العجزُ، فإنه يفتحُ عملَ الشيطان، فإنه إذا عَجَزَ عما ينفعُه، وصار إلى الأماني الباطِلة بقوله: لَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا، ولو فعلتُ كَذَا، يُفتح عليه عمل الشيطان، فإن بابَه العجزُ والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاحُ كلِّ شر، ويصدر عنهما الهمُّ، والحَزَنُ، والجُبْنُ، والبُخْلُ، وَضَلَعُ الدَّيْنِ، وغَلَبَةُ الرِّجَالِ، فمصدرُها كُلها عن العجز والكسل، وعنوانُها "لو"، فلذلك قال النبي ﷺ: «فإن "لو" تفتحُ عمل الشيطان» فالمتمني مِن أعجز الناس وأفلسهم، فإن التمني رأسُ أموال المفاليسِ، والعجزُ مفتاح كُلِّ شر، وأصل المعاصي كُلها العجزُ، فإن العبدَ يَعجِز عن أسباب أعمالِ الطاعات، وعن الأسباب التي تُبْعِدُه عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقعُ في المعاصي، فجمع هذا الحديثُ الشريف[2] في استعاذته ﷺ أُصولَ الشر وفروعه، ومبادِئِه وغاياتِه، ومواردَه ومصادرَه» [3].

ولقد أشار الشيخ محمد رشيد رضا[4] إلى المعنى المذكور سلفا، وأكد أن الفلاح في الدارين إنما يكون بطاعة الجليل والعمل بالتنزيل. قال رحمه الله: « ... ولكن لا يقال أفلح الرجل إذا فاز بمرغوبه عفوا من غير تعب ولا معاناة، بل لابد في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعي إلى الرغيبة والاجتهاد لإدراكها، فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله وباتباع هذا الإيمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي التي نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء

---

(1) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ثم الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، العلامة الكبير، المصنف المشهور، ولد سنة **691هـ**، تفقه في مذهب الأمام أحمد، وبرع وأفتى، لازم ابن تيمية وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان ذا عبادة وتهجد، صنّف تصانيف كثيرة، منها: «زاد المعاد في هدي خير العباد» ، و«إعلام الموقعين عن رب العالمين» . توفي سنة **751هـ** .

«انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (**287/8**)، والدرر الكامنة، لابن حجر (**400/3**) »

(2) يقصد الدعاء الذي في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ». كتاب الدعوات/ باب الاستعاذة من الجبن والكسل (**166/4**)، (ح: **6369**).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد (**357/2– 358**).

(4) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين، القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب. من أبرز رجال الإصلاح الإسلامي. ولد سنة **1282هـ/1865**م في القلمون إحدى قرى لبنان، رحل إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده، كما زار العديد من البلدان في المشرق والغرب. توفي بالقاهرة سنة **1354هـ/1935**م. من أشهر آثاره: «مجلة المنار» صدر منها **34** مجلدا، و« تفسير القرآن الكريم»، لم يكمله، و« شبهات النصارى وحجج الإسلام». « انظر: الأعلام، للزركلي (**126/6**) ».

على جميع ذلك في الآخرة، ويدخل في هذا كله ترك الكذب والزور وتزكية النفس من سائر الرذائل، كالشره والطمع والجبن والهلع والبخل والجور والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة، وارتكاب الفواحش و المنكرات، والانغماس في ضروب اللذات. كما يدخل فيه الفضائل التي هي أضداد هذه الرذائل المتروكة وجميع ما سماه القرآن عملا صالحا، من العبادات وحسن المعاملة مع الناس، والسعي وراء توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ماحدّه الشرع القويم، والاستقامة على صراطه المستقيم » [1].

ومما ينبغي التنبيه عليه أن فلاح العباد له ارتباط وثيق بطبيعة النفس البشرية بعد توفيق الله ورعايته؛ لأن أصحاب الفطر السليمة يهدفون إلى معالي الأمور ويتنزهون عن القبائح؛ فهؤلاء نفوسهم زكية وقلوبهم عاقلة واعية.

أما من انتكست فطرهم ورضوا بحياة البهائم والأنعام؛ فلا عقل يرشدهم ولا وازع يحبسهم عن مقارفة المعاصي والآثام، ويحيون في سبيل تحصيل لذات الدنيا وشهوات النفوس، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون.

وقد ذكر ابن القيم أن باب التوفيق محجوب عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الإقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها. وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون.

فأصل الخير كله –بتوفيق الله ومشيئته– شرف النفس ونبلها وكبرها، وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها. قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس، الآيتين :9- 10]؛ أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله.

فالنفوس الشريفة لا ترضي من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار. فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ،

(1) تفسير المنار (137/2).

ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة والخسيسة بالضد من ذلك؛ فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء، الآية:84]؛ أي: على ما يشاكله ويناسبه؛ فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها؛ فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله [1].

(1) الفوائد (ص 258– 259)، بتصرف يسير.

المطلب الثاني: أبعاد مفهوم الفلاح.

إن الفلاح في التعبير القرآني واسع المعنى عميق المغزى متعدد الجوانب والأبعاد، فهو مفهوم متوازن يجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة ويشمل الفرد والمجتمع.

فدين الإسلام كما يسمو بالروح إلى عالم الملكوت، فهو يلبي رغبات الجسد فلا رهبانية وتنطع في العبادات، ولا إفراط وتعد للحدود في التمتع بالطيبات؛ لذلك غالبا ما تأتي النصوص القرآنية التي تطرقت لموضوع الفلاح مبينة له بنوعيه الدنيوي والأخروي[1].

وهو ما يفسره الدعاء الوارد في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ **[البقرة، الآية:201].**

وفي الحديث أنّه كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: ((اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) [2].

قال ابن كثير[3]: ((فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرَفت كلّ شر، فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن مِنَ الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة.

وأمّا النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام)) [4].

---

(1) ذكر المفسرون أنّ الفلاح قد يكون خاصا بالدنيا، وقد يكون خاصا بالآخرة، ويكون مشتركا بين الدارين. وهو أكثر ما وعد به المؤمنون في القرآن الكريم. وأمّا الفلاح الدنيوي المحض فلم يرد سوى في موضع واحد في القرآن الكريم، وجاء في قوله تعالى على لسان السحرة: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه، الآية:64].

انظر: تفسير المراغي (173/4)، تفسير المنار (319/4)، والتحرير والتنوير (257/16).

(2) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات/ باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً (169/4)، (ح: 6389).

(3) عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي الدمشقي، الفقيه الشافعي الحافظ، ولد سنة 700هـ، أخذ عن كبار عصره ولازم الحافظ المزي وشيخ الإسلام ابن تيمية، وانتهت إليه رياسة العلم في التفسير والحديث والتاريخ، من أشهر مصنفاته: ((تفسير القرآن العظيم))، و((البداية والنهاية))، و((جامع المسانيد والسنن)). توفي بدمشق في شعبان سنة 744هـ.

((انظر: طبقات المفسرين، للأدنهوي (ص260) ، والبدر الطالع، للشوكاني (102/1))).

(4) تفسير ابن كثير (262/2).

وبهذا يتسنى للإنسان ممارسة حياته العملية الواقعية بكل طاقته وأشواقه على أسس من المبادئ الإسلامية الموافقة للفطرة السليمة، وفي الوقت نفسه لا ينبغي للإنسان أن ينهمك بكليته في الحياة المادية وينسى ربه والدار الآخرة، فالقرآن الكريم قد حض على التوازن بين المادة والروح في كثير آياته التي تلامس المشاعر والوجدان، قبل أن تخاطب عقل الإنسان.

فكما أن الشريعة السمحة اهتمت بإصلاح معاش العباد في جميع مناحي الحياة في العقائد والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسلوك، بما يضمن ويحقق الرفاهية والسعادة الروحية والنفسية للأفراد، ويرسي ركائز بناء المجتمع الفاضل[1]، لكن بالمقابل فإن هذه المتع الحسية والمعنوية الدنيوية لابد أن توجه ويكون القصد منها العمل للدار الباقية، ويظهر هذا ممن خلال قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [القصص، الآية:77].

وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم الذي يعلق قلب الموسرين بالآخرة، ولا يحرمهم أن يأخذوا بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضهم على هذا ويكلفهم إياه تكليفاً، كي لا يتزهدوا الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها، فالله خلق طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها؛ فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض.

ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها، والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها؛ فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة[2].

ومن هنا اختلف التوجيه القرآني والرؤية النبوية لمفهوم الفلاح عمّا هو عند الأمم الكافرة التي جعلت مفاتن الدنيا وشهواتها الزائلة غاية آمانيها وأقصى آمالها، فاهتموا بالظاهر وأغفلوا الباطن وانشغلوا بتحصيل لذّاتهم وتنافسوا على جمع الحطام؛ فعمروا دنياهم وخربوا أخراهم، وهؤلاء ممن ذمهم الله في كتابه وتوعدهم بعذابه، بخلاف المؤمنين الذين آثروا الآخرة على زخرف الدنيا، واجتهدوا في سبيل ذلك.

---

(1) قد أشار الراغب الأصفهاني إلى هذه المعاني لما عبر عن الفلاح الدنيوي بأنه ظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص385)

(2) انظر: تفسير الظلال، لسيد قطب (2711/5).

فهؤلاء وعدهم الله بالجنات والسرور والخيرات، قال جلّ جلاله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء، الآيات من 18 إلى 21].

فدين الإسلام يرى أن الغاية في إيجاد الخلق عبادة الله وتعمير الأرض وفق شرعه، فالحياة أجل وأسمى من أن تكون في المتعة والشهوة، والانصراف الكلي إلى زهرة الحياة الدنيا وزينتها.

ومما يجدر بيانه ولا ينبغي إهماله؛ أنّ المتأمل في الآيات البينات التي ذُكِر فيها أهل الفلاح، يرى أنها وردت بصيغة الجمع مرات عديدة وبعبارات مختلفة، ويظهر لمن تدبر هذه المعاني أن لها أسرارا عميقة وتنبيهات دقيقة في كون تحقيق أسباب الفوز والفلاح والنجاح الشامل مسؤولية جماعية وفردية، وهذا يدل بوضوح على أهمية وحرص الشريعة الإسلامية على جمع الكلمة ووحدة الصف والائتلاف بين المسلمين كافة ونبذ الفرقة والاختلاف، وهذا أحد أعظم مقاصد الشّرع الحنيف الذي أمر به الله تعالى وحث عليه نبيه الكريم ﷺ [1].

فإن توحيد القلوب والنفوس والتعاون على ذلك كفيل بتحقيق سعادة الفرد والمجتمع ويضمن للأمة الإسلامية التحرر من التبعية الفكرية والحضارية، ويمكنها من حفظ بيضة المسلمين وحياض الدين وبناء صرح الدولة التي تحكم زمام الأمور، وتأخذ بأيدي المسلمين إلى تحقيق النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة. مما يتبلور في النهاية على شكل حضارة إسلامية راقية، وحقيقية معبرة عن المجتمع الإسلامي الأصيل؛ ما يسمح بإبراز محاسن دين الإسلام ويبين آثاره العظيمة على البشرية جمعاء. [2]

---

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله، وهذا الأصل العظيم : وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وألا يتفرقوا، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة".

مجموع الفتاوى (22/210– 211) باختصار.

وقال ابن القيم: "إن الشارع أمر باجتماع القلوب وتألف الكلمة، وهذا من أعظم مقاصد الشرع وقد سد الذريعة إلى ما يناقضه بكل طريق، حتى في تسوية الصف في الصلاة؛ لئلا تختلف القلوب، وشواهد ذلك أكثر من أن تذكر".

إعلام الموقعين (5/28) بتصرف.

(2) انظر: موسوعة نضرة النعيم (2/51).

وبناءا على ما تقدم تقريره؛ فإنه يمكن القول بأنَّ مفهوم الفلاح لا يقتصر على بعض الأمور الدنيوية الظاهرة، كالنظام المالي والتقدم المادي المجرد عن القيم الروحية والأخلاقية، كما هو متصور لدى غالب الناس اليوم؛ بل إنَّ مفهوم الفلاح أوسع منه وأعمق، يدخل فيه الفلاح الأخروي والدنيوي من جميع جوانبه، من ناحية الاقتصاد والمال، والأخلاق والحياة الاجتماعية، والدينية، واحترام الإنسان نفسه وغيره، فهو شامل للقوة المادية والمعنوية معا.

المبحث الثالث:

أسباب الفلاح في القرآن الكريم

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تقوى الله.

المطلب الثاني: الصبر.

المطلب الثالث: الجهاد في سبيل الله.

المطلب الرابع: ذكر الله.

المطلب الخامس: التوبة.

المطلب السادس: تزكية النفس.

مدخل:

لقد تميز القرآن الكريم بأسلوبه الفريد الذي أعجز أفصح العرب وأبلغهم بطريقته الفذّة في اختيار الألفاظ وتأليفها، فإنّ قريشا مع كونهم فصحاء بالسليقة وأصحاب قريحة وذوق سليم؛ لم يعهدوا كلاما يجمع بين رشاقة العبارة، وحسن العرض مع وضوح اللفظ، وفصاحة التركيب؛ إضافة لإبانة المعنى سوى في القرآن العظيم؛ فقد كانوا في قرارة أنفسهم موقنين بأن انفراد أسلوب القرآن بهذه الميزات لهو برهان على مصدره الإلهي وأنه ليس من كلام البشر إطلاقا وإن أنكروا ذلك بألسنتهم؛ مع أن كلماته تألفت من حروفهم، وتراكيبه مؤلفة من كلماتهم؛ حتى قال قائلهم: « إنّ له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسلفه لمغدق، وإن أعلاه لمثْمر، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته» [1].

ممّا حمل الإمام الزركشي[2] على اعتبار أسلوب القرآن علما قائما بذاته من علوم القرآن، بل جعله لبّ مصنفه وأهم باب فيه؛ إذ استغرق المجلد الثالث بتمامه، وشطرا من الثاني والرابع، وقد أوفى المصَنِّف فيه واستولى على غايته، وأسال قريحته، وأظهر مكنون مواهبه الأدبية، والذوقية، والبلاغية، والنقدية.

فقال: « النوع السادس والأربعون: في أساليب القرآن وفنونه البليغة. وهو المقصود الأعظم من هذا الكتاب، وهو بيت القصيدة، وأول الجريدة، وغرة الكتيبة، وواسطة القلادة ودرة التاج، وإنسان الحدقة.

واعلم أن هذا العلم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون! وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين ما أودع من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما تضمنه في الحلاوة، وجلّله في رونق الطلاوة؛ مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ أو المعنى » [3].

وقد ذكر في هذا النوع (45) أسلوبا على وجه الإجمال، و(22) قاعدة، نثر خلالها أسسا كثيرة مما يحتاجه المفسر لكتاب الله، وضمّنه فوائد وتنبيهات جليلة[4].

---

(1) انظر: المستدرك على الصحيحين (507/2). والقائل هو: الوليد بن المغيرة كان من وجهاء قريش وأعلمهم بكلام العرب.

(2) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بَهَادُرْ بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي، الإمام العلامة المصنف المحرر ولد سنة 745هـ، ألّف تصانيف كثيرة في عدة فنون من أشهرها: « البرهان في علوم القرآن»، و « البحر المحيط » في أصول الفقه، توفي في رجب سنة 794هـ، ودفن بالقاهرة. « انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (572/8)، وطبقات المفسرين، للأدنهوي (ص302) ».

(3) البرهان في علوم القرآن (382/2).

(4) انظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان (ص326).

ومن الأساليب القرآنية التي جاء استعمالها في معرض الحديث عن الفلاح وأهله أسلوب التعليل[1] بالحرف المشبه بالفعل: " لعل"[2] ، وفائدة هذا الأسلوب التقرير والأبلغية، فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها، كما يبرز الأسرار التشريعية والحكم الإلهية التي يزداد بها إيمان العبد ويرسخ بها يقينه، ويشعر معها بشريعة كاملة وملة شريفة تدفع المفاسد والشرور وتجلب المصالح والمنافع، وتسعد البشرية في الحياة الأولى والآخرة.

---

(1) قال ابن القيم: «القرآن وسنة رسول الله ﷺ مملوءان من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام ولأجلها خلق تلك الأعيان، *ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها ، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة*. فتارة يذكر لام التعليل الصريحة، وتارة يذكر المفعول لأجله الذي هو المقصود بالفعل، وتارة يذكر من أجل الصريحة في التعليل، وتارة يذكر أداة كي، وتارة يذكر الفاء وأن، وتارة *يذكر أداة "لعل" المتضمنة للتعليل* المجردة عن معنى الرجاء المضاف إلى المخلوق، وتارة ينبه على السبب يذكره صريحا، وتارة يذكر الأوصاف المشتقة المناسبة لتلك الأحكام ثم يرتبها عليها ترتيب المسببات على أسبابها، وتارة ينكر على من زعم أنه خلق خلقه وشرع دينه عبثا وسدى، وتارة يستدعي من عباده التفكر والتأمل والتدبر والتعقل لحسن ما بعث به رسوله وشرعه لعباده، كما يستدعي منهم التفكر والنظر في مخلوقاته وحكمها وما فيها من المنافع والمصالح، وتارة يذكر منافع مخلوقاته منبها بها على ذلك، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وتارة يختم آيات خلقه وأمره بأسماء وصفات تناسبها وتقتضيها. والقرآن مملوء من أوله إلى آخره بذكر حكم الخلق والأمر، ومصالحهما ومنافعهما وما تضمناه من الآيات الشاهدة الدالة عليه.»

انظر: مفتاح دار السعادة (2/363) باختصار، و إعلام الموقعين (2/333).

(2) – معاني لعل:

لعل: حرف مشبه بالفعل ينصب المبتدأ ويرفع الخبر. واختلف علماء اللغة في معانيها على أقوال أشهرها أنها تفيد:

التوقع: وهو *الترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه*، وهو أصلها في اللغة وإليه ذهب جمهور أهل اللغة، والمحققون منهم كسبويه، والزمخشري، وأبي حيان الأندلسي، والطاهر بن عاشور، وهذا القول هو الأشهر والأكثر.

التعليل: وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء منهم: الأخفش، والكسائي، وقطرب، والطبري، وابن هشام، وجمع من المفسرين

الاستفهام: وهو قول الكوفيين، وتبعهم ابن مالك.

– انظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم (2/928)، والجنى الداني في حروف المعاني (ص579 وما بعدها.)، و مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام (3/524– 526)، وشرح الرضى على الكافية (4/332– 333)، وتفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (1/231)، والدر المصون، للسمين الحلبي (1/189)، (8/42– 43)، والتحرير والتنوير(1/328 وما بعدها.)

– وخلاصة القول: أن الخلاف في توجيه معنى "لعل" بين اللغويين والمفسرين مرده أصلا إلى تحرير معنى الرجاء و بمن يتعلق.

والذي يتبين لي من هذه الآراء جميعا أنّ "لعل" تأتي للترجي والإشفاق وهو أصلها اللغوي، كما تفيد التعليل في غالب المواضع التي جاءت بها في القرآن، وكونها للتعليل لا ينافي معنى الترجي؛ لأن وجود المعلول يرجى عند وجود علته.

والتركيب والسياق هما اللذان يحددان معناها المناسب مع مراعاة النظم القرآني وأسلوبه، فإن الترجي والتوقع مخصوص بالخلق؛ لعدم علمهم بما تؤول إليه الأمور. وليس هذا المعنى في حق الله تعالى؛ لأنه عالم بما سيكون. فلا يجوز في حقه جل وعلا إطلاق الترجي والتوقع لتنزيهه عن ذلك، وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب.

انظر: أضواء البيان، للشنقيطي (2/487)، (5/758). =

فكما هو معلوم أنّ الله سبحانه وتعالى ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري، واقتضت حكمة الله البالغة أنّ الغايات المطلوبة لا تنال إلا بأسبابها التي جعلها الله سبيلا مفضية إليها.

ومن تلك الغايات: الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة وهو من أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلها، وقد حاولت في هذا المبحث تتبع الآيات التي ترتب عنها الفلاح[1]، لبيان الأعمال التي تكون سببا في فلاح العباد، وظفرهم بأشرف المقامات من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا كله تفضل وإنعام من الكريم الرحيم، فقد بيّن لعباده سبل الفوز والنجاة ثم هداهم لسلوكها بما يضمن استقامة أمور معاشهم في الدنيا، وحسن الجزاء والثواب في الآخرة.

= وهذا ما اختاره ابن القيم، قال رحمه الله: ((التعليل بـ لعل، وهي في كلام الله سبحانه وتعالى للتعليل مجردة عن معنى الترجي، فإنه إنما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق، وأما في حق من لا يصح عليه الترجي فهي للتعليل المحض. كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾[البقرة، الآية:21]، فقيل هو تعليل لقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وقيل تعليل لقوله: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، والصواب أنه تعليل للأمرين لشرعه وخلقه، ومنه قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾

[البقرة، الآية:183]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾[يوسف، الآية:2]، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النور، الآية:1]، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾[طه، الآية:44]، فلعل في هذا كله قد أخلصت للتعليل، والرجاء الذي فيها متعلق بالمخاطبين)).

شفاء العليل (ص328– 329)، بتصرف.

– و نصر هذا القول الشيخ ابن عثيمين، قال رحمه الله: ((وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، "لعل" هنا للتعليل، وليست للترجي. وكلما جاءتك "لعل" في كتاب الله فهي للتعليل، لأن الرجاء إنما يكون في شأن من يتعسر عليه الأمر، وأما الرب عز وجل فكل شيء يسير عليه، فإذا وجدت "لعل" في القرآن فهي للتعليل، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة، الآية:183]، وما أشبه ذلك. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، يعني: لأجل أن تتقوا، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ يعني لأجل أن تفلحوا)).

شرح رياض الصالحين (225/3).

– و على هذا يحمل ما جاء في البرهان: ((أنّ جميع ما في القرآن من "لعل" فإنها للتعليل إلا قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ [الشعراء، الآية:129])). وفي موضع آخر: ((كل شيء في القرآن "لعلكم"؛ فهو بمعنى: لكي. غير واحد في الشعراء: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ فإنه للتشبيه أي: كأنكم)).

انظر: البرهان في علوم القرآن (110/1)، (394/4).

وكذلك ما ذكره السيوطي نقلا عن ابن أبي حاتم في تفسيره أنّ: (("لعلكم" في القرآن بمعنى: "كي"، غير آية في الشعراء ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ يعني: كأنكم تخلدون)). انظر: الإتقان في علوم القرآن (1186/4).

(1) من ذلك الآيات التي ورد فيها تعليل الفلاح بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وما كان قريبا من معناها.

فقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات والسرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب. وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع.

انظر: الداء والدواء (ص31– 34)، بتصرف.

المطلب الأول: تقوى الله.

– التقوى لغة:

هي الاسم من قولهم لتّقى، والمصدر الاتقاء وكلاهما مأخوذ من مادّة (و ق ي) التي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، والفعل منه ((وَقى)) يقال: وَقَيْتُ الشَّيْءَ أَقِيهِ وَقْياً، والوِقاية ما يقي الشَّيء.
وقولهم: اتَّقِ اللهَ تَوَقَّهُ، أي اجعل بينَك وبينه كالوِقاية. قال النَّبي ﷺ : ((لتَّقُوا النّارَ ولو بِشقِّ تَمرة)) [1]، وكأنّه أراد: اجعلوها (أي شق التمرة) وقايةً بينكم وبينها (النار) [2].
قال ابن منظور: وفي التنزيل العزيز:﴿ وَءَاتَىٰهُم تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد، الآية:17]، أَي جزاء تَقْواهم. وقيل معناه: أَلهَمَهُم تَقْواهم. وقوله تعالى:﴿ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [المدثر، الآية:56]، أَي: هو أَهلٌ أَن يُتَّقى عِقابُه، وأَهلٌ أَن يُعمَلَ بما يؤدّي إلى مَغْفِرته.
والتَّقْوَى والاتِّقاء والتُّقاة والتقيَّة واحد، يقال رجل تَقِيّ والجمع أَتْقِيَاءْ، معناه أنّه مُوَقٍّ نَفْسَه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح، وأصله من وَقَيْتُ نفسي أَقِيهَا [3].

– التقوى اصطلاحا:

قال الراغب: ((التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور)) [4].
وعرّفها الفيروزآبادي [5] بقوله: ((التَّقوى البالغة الجامعة: اجتنابُ كلّ ما فيه ضرر لأَمر الدين، وهو المعصية، والفضول، فعلى ذلك نتقسم إلى فرض ونفل)) [6].

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الزكاة/ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة (438/1)، (ح: 1417)، ومسلم في كتاب الزكاة / باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنّها حجاب من النار (703/2)، (ح: 1016).
انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (209/1).

(2) معجم مقاييس اللغة (131/6)، بتصرف.

(3) لسان العرب (4901/6)، وتهذيب اللغة (257/9).

(4) المفردات في غريب القرآن (ص 531).

(5) محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي، ولد سنة 729هـ بكارَزِين (بكسر الراء أوفتحها) من أعمال شيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زبيد فسكنها وولي قضاءها إلى أن توفي بها سنة 817هـ، كان من العلماء المبرزين في اللغة والحديث والتفسير، من أشهر كتبه: ((القاموس المحيط))، و((بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز)).
((انظر: الأعلام، للزركلي (146/7)، وبغية الوعاة، للسيوطي (273/2))).

(6) بصائر ذوي التمييز (299/2).

– قال ابن رجب[1]: ‹‹ أصلُ التّقوى: أنْ يجعل العبدُ بينَه وبينَ ما يخافُه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أنْ يجعل بينه وبينَ ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك وهو فعلُ طاعته واجتنابُ معاصيه.

وتارة تُضافُ التقوى إلى اسم اللهِ عز وجل، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة، الآية:96]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر، الآية:18]، فإذا أضيفت التقوى إليه – سبحانه وتعالى –، فالمعنى : اتقوا سخطه وغضبه ، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران، الآية:28]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر، الآية:56]، فهو سبحانه أهل أنْ يُخشى ويُهاب ويُجلّ ويُعَظَّمَ في صدورِ عباده حتَّى يعبدوه ويُطيعوه، لما يستحقُّه من الإجلالِ والإكرامِ، وصفاتِ الكبرياءِ والعظمة وقوَّةِ البطش، وشِدَّةِ البأس.

وتارةً تُضافُ التقوى إلى عقاب الله وإلى مكانه كالنار ، أو إلى زمانه كيوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾[آل عمران، الآية:131]، وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، [البقرة، الآية:24]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾[البقرة، الآية:281]، ويدخل في التقوى الكاملة فعلُ الواجبات، وتركُ المحرمات والشبهات، وربما دَخَلَ فيها بعد ذلك فعلُ المندوبات، وتركُ المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى››. اهـ

وقيل: ‹‹التقوى أنْ تعملَ بطاعةِ الله، على نورٍ من الله، ترجو ثوابَ الله، وأنْ تتركَ معصيةَ الله على نورٍ مِن الله تخافُ عقابَ الله››.

وحقيقة تقوى الله: ‹‹ أن يُطاعَ فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر›› [2].

---

(1) زين الدين أبو الفرج، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الإمام، الحافظ، المقرئ، المحدث، الفقيه، الزاهد، ولد ببغداد سنة 736هـ، في أسرة مشهورة بالعلم والصلاح. قدم دمشق مع والده، وكان له بها مجالس عامرة، وله مصنفات مفيدة منها: ‹‹فتح الباري شرح صحيح البخاري››، وصل فيه إلى كتاب الجنائز، ‹‹جامع العلوم والحكم››، ‹‹شرح علل الترمذي››. توفي سنة 795هـ.

‹‹ انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (578/8)، والدرر الكامنة، لابن حجر (321/2) ››.

(2) جامع العلوم والحكم (ص287– 289)، باختصار.

- من معاني التقوى في القرآن:

ورد لفظ التقوى في القرآن الكريم على خمسة أوجه[1]:

أحدها: التوحيد، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **[الآية:131]،**

وفي الحجرات: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ **[الآية: 3].**

والثاني: الإخلاص، ومنه قوله تعالى في الحج: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ **[الآية: 32]، أراد من إخلاص القلوب.**

والثالث: العبادة، ومنه قوله تعالى في النحل: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ **[الآية: 2]، وفي المؤمنين:** ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ **[الآية: 52]، وفي الشعراء:** ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾**[الآية:11].**

والرابع: ترك المعصية، ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ **[الآية: 189].**

والخامس: الخشية، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُم﴾ **[الآية: 1]، وفي الشعراء:** ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ **[الآية: 106]، وكذلك في قصة هود وصالح وشعيب.**

---

(1) نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (ص 552).

– أهمية التقوى:

إنّ للتقوى منزلة رفيعة ومقاما شريفا في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وهي من أبرز صفات المؤمنين وبها يتميز الأخيار عن الفجار، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة، الآية:100]، وقال جل جلاله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص، الآية:28]. ومن هنا كانت التقوى وصية الله لجميع الأمم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾[النساء، الآية:131]، وقد تكرر الوصية بتقوى الله في كتابه مرات عديدة؛ حتى قالوا: ما تكرّر لفظ في القرآن ما تكرّر لفظ التقوى– يعنون غير الأعلام– كاسم الجلالة، وجُعل الأمر بالتقوى وصيةً؛ لأنّ الوصية قول فيه أمرٌ بشيء نافع جامع لخير كثير[1].

فبها يقام دين الله وشرعه، وترتقي أخلاق العباد فتزكوا نفوسهم وتنتظم مصالحهم المدنية والاجتماعية والاقتصادية؛ لذلك اهتم الرسول الكريم عليه الصلاة وأزكى التسليم بأمر التقوى وأوصى بها أمته، فمن حديث العرباض بن سارية[2] رضي الله عنه قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يومٍ، ثمّ أقبل علينا، فوعَظَنا موعِظةً بَليغةً، ذَرَفتْ منها العيون، ووَجِلت منها القلوبُ، فقالَ رجل: يا رسولَ الله، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تَعْهدُ إلينا ؟ قال: « أُوصيكم بِتَقْوَى الله، والسَّمعِ والطَّاعَةِ، وإنْ عَبْدًا حبشيًّا، فإنه من يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فسيَرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْديِّينَ الرَّاشِدينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بدْعةٌ، وكُلَّ بدْعَةٍ ضَلاَلَة». [3]

فكانت تقوى الله من أول ما أوصى به عليه الصلاة والسلام لعظيم مكانتها ومنزلتها، فمن كان من أهل التقوى عاش حياة سعيدة وكانت عاقبته حميدة.

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (321/2)

(2) العِرْباض بن سارية السلمي، يكنى أبا نُجَيْح، كان من أهل الصفة. سكن الشام، ومات بها سنة 75هـ.
« انظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (ص 590)، والإصابة، لابن حجر (234/4) ».

(3) أخرجه أبو داود: كتاب السنة / باب في لزوم السنة (12/5)، (ح: 4607)، والترمذي: كتاب العلم / باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (44/5)، (ح: 2676)، وقال حديث حسن صحيح.

والتقوى أساس كل خير، ويشهد لذلك حديث أبي سعيد الخدري[1] رضي الله عنه : أن رجلا جاءه فقال: أوصني، فقال: « سألتَ عمَّا سألتُ عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم من قَبلِك، أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء .... »[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »[3]؛ فهذا التوجيه النبوي بالتزام التقوى في كل الأحوال بمثابة المنهج المستقيم الذي يسير عليه المسلم، بداية بإصلاح علاقته مع خالقه بطاعته في السر والعلن، مُبَادِراً بالحسنات لجَبْرِ تقصيره وما يقع فيه من السيئات، وأخيرا يسعى لتحسين علاقته مع سائر الناس بحسن الخلق وطيب المعاملة، وقد سُئِل النبي ﷺ ما أَكْثَر ما يُدخِلُ الناسَ الجنة ؟ فقالَ: « تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ »[4]؛ فإذا سار العباد على هذا الهدي كانوا من المفلحين في الدنيا والآخرة.

– من ثمرات التقوى:

❖ الهداية والنصرة والولاية للمتقين، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، الآية:2]، وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل، الآية:128]، وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝﴾[يونس، الآية: 62– 63] وقال أيضا: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية، الآية:19]

❖ تفريج الكربات وتيسير الرزق، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق، الآية:2– 3]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق، الآية: 4].

---

(1) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاري، أبو سعيد الخدري مشهور بكنيته، أول مشاهده الخندق وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة، وكان ممن حفظ عن رسول الله ﷺ سننا كثيرة، وروى عنه علما جما، كان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم، توفي سنة 74هـ.

« انظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (ص 815)، والإصابة، لابن حجر (85/3) ».

(2) مسند الإمام أحمد (297/18)، (ح: 11774)، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (94/2)، (ح: 555).

(3) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة / باب ما جاء في معاشرة الناس (355/4)، (ح: 1987)، وقال حديث حسن صحيح.

(4) أخرجه الترمذي وصححه: كتاب البر والصلة / باب ما جاء في حسن الخلق (363/4)، (ح: 2004).

❖ البصيرة ومغفرة الذنوب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال، الآية:29]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق، الآية: 5].

❖ محبة الله عز وجل ومعيته للمتقين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة، الآية: 4]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، الآية: 194].

❖ الفوز والنجاة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور، الآية: 52]، وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم، الآية: 72].

❖ الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة، الآية: 100].

– تقوى الله من أسباب الفلاح في الدارين:

جاء ذكر الفلاح معللا بالتقوى صريحا في خمسة مواضع من القرآن الكريم، أحدها في سورة البقرة، واثنان في سورة آل عمران، واثنان في سورة المائدة. وفي موضعين عُلِّق الفلاح بذكر التقوى تلميحا – وذلك بفعلِ الواجبات، وتركِ المحرمات – في سورة المائدة والحج.

فالتقوى تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور؛ ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور [1].

ففي سورة البقرة قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ [الآية:189].

نزلت هذه الآية لمعالجة عادة جاهلية عند الأنصار وغيرهم من العرب، فقد كانت الأنصار إذا

(1) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (258/1).

حَجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَلِ بابه، فكأنه عُيِّرَ بذلك، فنزلت ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة، الآية:189] [1]، وإنّما فعلوا ذلك تعبدا، فقد كانوا يعتقدون أن هذا هو البر – أي: الخير أو الإيمان – فجاء القرآن ليبطل هذا التصور الفاسد، وهذا العمل المتكلف الذي

لا يستند إلى أصل ولا يؤدي إلى شيء، وجاء يصحح التصور الإيماني للبر.

فالبر هو التقوى وهو الشعور بالله ورقابته في السر والعلن، وليس شكلية من الشكليات التي لا ترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان، ولا تعني أكثر من عادة جاهلية. فأمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها، وكرر الإشارة إلى التقوى بوصفها سبيل الفلاح: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وبهذا ربط القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة – هي التقوى – وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة، وأبطل العادة الجاهلية الفارغة من الرصيد الإيماني، ووجّه المؤمنين إلى إدراك نعمة الله عليهم في الأهلة التي جعلها الله مواقيت للناس والحج؛ كل ذلك في آية واحدة قصيرة.[2]

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلا، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من طلب حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة وطرقها من أبوابها وثابر عليها، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

وتقوى الله هي البر الذي أمر الله به، فيجب لزومها على الدوام، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنها سبب للفلاح، الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.[3]

---

(1) جاء سبب نزول هذه الآية في الصحيحين من حديث البراء بن عازب ﷺ، عند البخاري (ح: 1803)، ومسلم (ح: 3026). انظر: أسباب النزول، للواحدي (ص 162).

(2) تفسير الظلال (184/1)، باختصار.

(3) تفسير السعدي (ص 89)، بتصرف.

وفي آل عمران قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ **[الآية:130 – 131]**. [1]

جاء النهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على معركة أحد للدلالة على أنّ القرآن وضع الأسس المتينة لبناء المجتمع المسلم، فالمعركة الحربية في الدولة الإسلامية لا تقتصر على ميدان القتال وحده، إنما هي معركة جزئية من صراع الحق و الباطل الذي يشمل الميدان الأكبر، ميدان النفس البشرية، والحياة الواقعية سعيا لتربية النفوس، وتصفية الضمائر؛ لتخليصها من الآنانية والحظوظ الذاتية، وتحريرها من قيود الذل وأغلال الاستعباد لغير الله تعالى، فنهى عن النظام الربوي القائم على الجشع والانتهازية؛ من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع من التفكك وقاعدته من الإنهيار، وجاء التشريع الإسلامي بالزكاة والصدقات، وحث على الكرم والسخاء مُشيعا لشيم التناصح والتكافل والمواساة بين أفراد الجماعة المسلمة؛ لتبقى رابطة الأخوة متماسكة متلاحمة لا تتطرق إليها عوامل التنازع والاختلاف؛ لذلك كان المجتمع التعاوني أقرب إلى النصر من المجتمع الربوي، فلا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي، أو الاقتصادي؛ ما لم يقم هذا كله على طاعة الله وطاعة رسوله؛ رجاء للفلاح بترك الربا وبتقوى الله، فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى، ولتحقيق المنهج الرباني وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس [2].

وفي هذه الآية تحذير من أكل الربا ووعيد شديد لمن اقترف هذه الموبقة من كبائر الذنوب، لا سيما وقد طغت المادة في زمننا الذي نعيشه اليوم، حتى صار الربا بلاء هذا العصر، واعتبره كثير من الناس ضرورة اقتصادية لا يُستغنَى عنه، وعُرْفًا حسنا لا تجوز مخالفته، وقد عَمَّ التعامل به فلا يكاد يسلم منه أحد، وذلك مصداقا لقول الرسول ﷺ: ((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرِّبَا)). قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: ((مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ، نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ)) [3].

---

(1) في هذه الآية إشارة إلى أنّ من لم يترك الرّبا لا يحصل له شيء من الفلاح، وسببه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة، الآية:278– 279]، ومن حاربه اللّه ورسوله كيف يتصوّر له فلاح؟ ففي هذه الآية إيماء إلى سوء خاتمته ودوام عقوبته، ومن ثمّ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾، وفيها إشارة إلى أنّ من بقي على الرّبا يكون مع الكفّار في تلك النّار الّتي أعدّت لهم، وتأمّلْ وصف اللّه تعالى تلك النّار بكونها أعدّت للكافرين فيه غاية الوعيد والزّجر؛ لأنّ المؤمنين المخاطبين باتّقاء المعاصي إذا علموا بأنّهم متى فارقوا التّقوى دخلوا النّار المعدّة للكافرين– وقد تقرّر في عقولهم عظمة عقوبة الكافرين– انزجروا عن المعاصي أتمّ الانزجار. فليتأمّل فيما ذكره اللّه تعالى في هذه الآيات من وعيد آكل الرّبا يُظهر لمن كان له أدنى بصيرةٍ قُبحَ هذه المعصية ومزيد فُحشِها، وعظيمَ ما يترتّب من العقوبات عليها، سيّما محاربة اللّه ورسوله اللّذين لم يترتّبا على شيءٍ من المعاصي إلّا معاداة أولياء اللّه تعالى المقاربة لفحش هذه الجناية وقبحها وإذا تبين هذا فحري بالناس الرجوع إلى اللّه تعالى، والتوبة من هذه الفاحشة المهلكة في الدّنيا والآخرة.

انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، لمحمد بن حجر الهيثمي (375/1)، بتصرف.

(2) انظر: تفسير الظلال (459/1 وما بعدها).

(3) مسند الإمام أحمد (258/16)، (ح: 10410)، وفي سنده انقطاع؛ لأنه من رواية الحسن البصري عن أبي هريرة، والحسن لم يسمع منه.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران، الآية:200].

قَرَنَ الله في هذه الآية الصبر والرباط بتقواه؛ بأن يصون الناس أنفسهم عن محارمه وعن مخالفة أمره، رجاء أن يكتب لهم الفلاح بالنصر في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة؛ فيفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه. وسيأتي الحديث عن الصبر والجهاد في هذا الفصل.

– قال أهل المعاني في معنى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، ورابطوا على مجاهدة أعدائي، واتقوا محبة سوائي لعلكم تفلحون بلقائي. وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء. وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة، واتقوا ما يعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه[1].

– وفي سورة المائدة، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[الآية:90–91] [2].

لما نهى الله تعالى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله تعالى لهم بَيَّنَ لَهُم ما حرَّمه عليهم ودعاهم إلى تركه واجتنابه لضرره بهم، وإفساده لقلوبهم وأرواحهم فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، أي: يا من صدقتم

---

(1) تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (340/1).

(2) جاء سبب نزول هذه الآية في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه نزلت فيه آيات من القرآن... فذكر الحديث، وقال: « أتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرا، وذلك قبل أن تحرم الخمر. قال: فأتيتهم في حَشٍّ – والحش البستان – فإذا رأس جزور مشوي عندهم وزِقٌّ من خمر. قال: فأكلت وشربت معهم. قال: فذكرت الأنصار والمهاجرون عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار. قال: فأخذ رجل أَحَدَ لَحْيَيِ الرأس فضربني به فجرح بأنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فأنزل الله عز و جل فِيَّ – يعني نفسه – شأن الخمر: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ ». (ح: 1748).

وعند الطبري عن ابن عباس ﷺ أنه قال: « نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا. حتى إذا ثملوا، عبث بعضهم على بعض. فلما أن صَحَوْا جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلان! – وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن –، والله لو كان بي رءوفًا رحيمًا ما فعل بي هذا! حتى وقعت في قلوبهم ضغائن، فأنزل الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ ». تفسير الطبري (661/8)

وقد وردت أسباب أخرى في نزول هذه الآية، منها ما أخرجه النسائي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان كلما نزلت آية قبل هذه في شأن الخمر يقول: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا! حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾. قال عمر: انتهينا انتهينا!!. (ح: 5031). والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (487/3).

انظر: أسباب النزول، للواحدي (ص357).

بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً اعلموا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ ﴾[1]، أي: سخط وقذر مما يدعو إليه الشيطان ويزيّنه للنفوس ويحسنه لها لترغب فيه.

فالله تعالى يذم هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس. ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، أي: اتركوه جانباً فلا تقبلوا عليه بقلوبكم وابتعدوا عنه بأبدانكم، حتى تفوزوا وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم؛ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله. والشيطان يهدف بهذه الأمور الخبيثة لإثارة العداوة والبغضاء بين المسلمين الذين هم كالجسم الواحد، وإلى صدهم عن ذكر الله الذي هو عصمتهم، وعن الصلاة التي هي معراجهم إلى الله ربهم، وآمرتهم بالمعروف وناهيتهم عن المنكر.

ثم أمرهم الله بأبلغ أمر وأنفذه إلى قلوبهم لخطورة هذه المحرمات الأربع وعظيم أثرها في الفرد والمجتمع بالشر والفساد فقال: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾؛ لأن العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ[2].

ثم قال الله تعالى في سياق هذه الآيات: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة، الآية:100] [3].

إنّ المناسبة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق، هي مناسبة تفصيل الحرام والحلال في الصيد والطعام؛

---

(1) – (الخمر): كل مسكر كيفما كانت مادته، قلّت أو كثرت. (الميسر): القمار، وذلك يشمل المراهنات ونحوها، مما فيه عوض من الجانبين.
– (الأنصاب): جمع نصب، ما ينصب للتقرب به أو التبرك، أو لتعظيم كتماثيل الرؤساء والزعماء في العهد الحديث.
– (الأزلام): جمع زلم، وهي عيدان يستقسمون بها في الجاهلية لمعرفة الخير من الشر والربح من الخسارة.
– (رجس): المستقذر حساً كان أو معنى، إذ المحرمات كلها خبيثة وإن لم تكن مستقذرة.

(2) انظر: أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري (11/2)، وتفسير السعدي (ص 243).

(3) ذكر الواحدي في أسباب النزول بسنده إلى جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "إن الله عز وجل حرم عليكم عبادة الأوثان، وشرب الخمر، والطعن في الأنساب، ألا إن الخمر لُعن شاربها وعاصرها وساقيها وبائعها وآكل ثمنها". فقام إليه أعرابي، فقال: يا رسول الله إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي فاعتقبت من بيع الخمر مالاً، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي ﷺ: "إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة، إنّ الله لا يقبل إلا الطيب". فأنزل الله تعالى تصديقاً لقول رسول ﷺ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾.

حسّن الدكتور ماهر ياسين الفحل– محقق الكتاب– إسناد هذا الحديث، وقال: هذا الحديث مما تفرد به المصنف فإنا لم نجده إلا ما عزاه في لباب النقول للأصفهاني في الترغيب. انظر: أسباب النزول، للواحدي (ص362).

_ قلت: أستغرب تحسين هذا الإسناد من المحقق، وفيه راو متهم بالوضع! وهو محمد بن يوسف بن يعقوب الرازي.

قال الذهبي: ظالم لنفسه، وضع كثيرا في القراءات. وقال الخطيب: متهم بوضع الحديث. وقال الدارقطني: وضع نحوا من ستين نسخة قراءات، ليس لشيء منها أصل، ووضع من الأحاديث ما لا يضبط قدم قبل الثلاثمائة، فسمع منه بن مجاهد وغيره، ثم تبين كذبه فلم يحك عنه ابن مجاهد حرفا، وأما النقاش فيدلسه، فتارة يقول: حدثنا محمد بن طريف، وتارة محمد بن نبهان، وتارة محمد بن عاصم يعني ينسبه إلى أجداده.

انظر: الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث، لسبط ابن العجمي (ص 253).

فالحرام خبيث، والحلال طيب؛ ولا يستوي الخبيث والطيب ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب، ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف، وبلا عقاب من ألم أو مرض. وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها على اعتدال وأمن من العاقبة في الدنيا والآخرة. والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقابة القلب له، يختار الطيب على الخبيث؛ فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة[1].

– قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: «الصحيح أن اللفظ عام في جميع الأمور، يتصور في المكاسب والأعمال والناس، والمعارف من العلوم وغيرها؛ فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب، ولا تحسن له عاقبة وإن كثر، والطيب – وإن قلّ– نافعٌ جميل العاقبة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ [الأعراف، الآية:58]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ [ص، الآية:28]، وقوله: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية، الآية:21]، فالخبيث لا يساوي الطيب مقدارا ولا إنفاقا، ولا مكانا ولا ذهابا، فالطيب جهة اليمين، والخبيث يأخذ جهة الشمال، والطيب في الجنة، والخبيث في النار»[2].

وختم الآية بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، أي: فاتقوا اللّه يا أرباب العقول الراجحة، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان، فتغتروا بكثرة المال الخبيث وكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فتقوى اللّه هي التي تجعلكم من الطيبين وبها يرجى أن تكونوا من المفلحين الفائزين بخيري الدنيا والآخرة، وخصّ أولي الألباب بالاعتبار لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التي ترشد إليها مقدماتها بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، أما الأغرار الغافلون فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكّر فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم ولا بما يسمعون بآذانهم، كما يشاهَد ويُرَى من حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التي جمعت من الحرام، وحال الدول التي ذهب ريحها بخلوها من فضيلتي العلم والخلق، وورثها من كانوا أقل منهم رجالا ومالا؛ إذ كانوا أفضل منهم أخلاقا وأعمالا[3].

---

(1) تفسير الظلال (983/2)، باختصار.

(2) الجامع لأحكام القرآن (225/8).

(3) تفسير المراغي (39/7).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج، الآية:77].

قد تقدم من كلام ابن رجب أنّ التقوى الكاملة هي: فعلُ الواجبات، وتركُ المحرمات والشبهات، وربما دَخَلَ فيها بعد ذلك فعلُ المندوبات، وتركُ المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى(1).

وهذه الآية جامعة لمعاني التقوى التي بسببها يحصل الفلاح للعباد، فبعد تقرير العقيدة بأقسامها الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، وإثبات أن المُلْك والأمر لله وحده، وأنه قد أحكم شرعه، وحفظ رسله، وأنه يُمَكِّن لمن يشاء أيّ دين شاء، وخَتْمِ ذلك بما يَصلُح للترغيب والترهيب، كانت العادة جارية بأنّ الملك إذا برزت أوامره وانبثت دعاته، أقبل إليه مقبلون، خاطب المقبلين إلى دينه، وهم الخلّص من الناس، وناداهم بعنوان الإيمان فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أي: ما من آمنتم بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً؛ ﴿ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾، فأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخصّ منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما؛ فهما الدالان على الخضوع، وأمرهم بعبادته وطاعته مع غاية التعظيم والخشوع له، ثم أمرهم بفعل الخير عموما، وهو نَدْبٌ فيما عدا الواجبات، فهذه الآية عَامَّةٌ في جميع أنواع الخيرات وصنوف البر وضروب العبادات، ومن أعظمها الرأفةُ والشفقة على خَلْقِ اللّه، ومُوَاساةُ الفقراء وأهلِ الحاجة(2).

وعلّق المولى سبحانه الفلاح على هذه الأمور فقال: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن وُفِقَ لذلك، فله القدح المعلى، من السعادة والنجاح والفلاح،

---

(1) انظر: (ص56).

(2) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (99/13)، وأيسر التفاسير (501/3)، والجواهر الحسان في تفسير القرآن (138/4).

وهذا شامل للفَلاَح الدنيوي والأخروي، فيكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل الخير؛ فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أيِّ مجتمع يتحرك أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ: ((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[1].

وعندها لن ترى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة، ثم يأتي زيادة على فلاحِ الدنيا، فلاحُ الآخرة بالفوز برضوان الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار[2].

---

(1) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (ح: 13)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (ح: 45).

(2) انظر: تفسير السعدي (ص 547)، وتفسير الشعراوي (ص 9947) بتصرف.

– فائدة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

((سورة الحج فيها مكي ومدني، وليلى ونهاري، وسفري وحضري، وشتائي وصيفي؛ وتضمنت منازل المسير إلى الله، بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها. ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى والمريض والقاسي، والمخبت الحي المطمئن إلى الله .

وفيها من التوحيد والحِكَم والمواعظ على اختصارها ما هو بَيِّنٌ لمن تَدَبَّرَه، وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيدًا وصلاة وزكاة وحجًا وصيامًا، قد تضمن ذلك كله قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج، الآية:77]، فيدخل في قوله: ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾ كل واجب ومستحب؛ فخصص في هذه الآية وعمم، ثم قال: ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج، الآية:78]، فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيرًا إلا جمعته ولا شرًا إلا نفته)).

انظر: دقائق التفسير (4/ 371).



المطلب الثاني: الصبر.

– الصبر لغة:

مصدر صَبَرَ يَصْبِرُ وهو مأخوذ من مادّة (ص ب ر) التي تدل بحسب وضع اللغة على معان ثلاثة:
الأول: الحبس، والثاني: أعالي الشيء، والثالث: نوع من الحجارة.
والمعنى المراد هنا مشتق من الأصل الأول وهو الحبس، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر، أي حبستها.[1]
قال ابن منظور: « وأَصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه. ويسمى شهر الصوم شهر الصبر، لما فيه من حبس النفس ومنعها عن الطعام والشراب والنكاح».
ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [الكهف، الآية:28]، أي: احبس نفسك معهم.
والصَّبْرُ: نِقِيض الجَزَع. يقال: صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْراً، فهو صابِرٌ وصَبُور[2].
وقيل: أصل الكلمة من الشدة والقوة، ومنه الصَّبِر للدواء المعروف بشدة مرارته وكراهته، وسُمّي صَبْرُ النفوس صبرًا، لأنّ تمرّره في القلب وإزعاجه للنفس كتمرُّر الصَّبِرِ في الفم، وقيل: أصله من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع، والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة: المنع والشدة والضم[3].

– الصبر اصطلاحا:

عُرِّف الصبر اصطلاحا بتعريفات كثيرة منها:
ما ذكره الراغب: « الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه» [4]
وعرفه ابن القيم بأنه : « حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، مع مكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عند عاقبته » [5].

---

(1) معجم مقاييس اللغة (329/3).
(2) انظر: لسان العرب (2391/4)، والقاموس المحيط (ص422).
(3) انظر: تاج اللغة (706/2)، ونزهة الأعين النواظر (ص387)، وعدة الصابرين (ص17– 18).
(4) المفردات في غريب القرآن (ص273).
(5) مدارج السالكين (555/1)، وطريق الهجرتين (575/2).

وقيل: « الصبر: ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الشهوة والطبع » [1].
وعرفه الجرجاني[2] بأنه: « ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلا إلى الله».
وقال المناوي[3]: « الصبر: قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية » [4].

وقال السيوطي: « الصَّبْرُ: الوقوف على البلاء بحسن الأدب. وقيل: التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البليات، وإظهار الغنى عند حلول الفقر بالساحات.
وقيل: الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى. وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، وقيل: ألاَّ يُفَرِّقَ بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما » [5].

– وحقيقة الصبر أنه: خلق فاضل من أخلاق النفس، تَمْتَنِعُ به من فِعل ما لا يَحسُنُ ولا يَجْمُلُ، وهو قوة من قوى للنَّفْس الّتي بها صَلاَحُ شَأْنهَا، وقَوَامُ أَمْرهَا[6].

– من معاني الصبر في القرآن:

ذُكِر الصبر في القرآن على خمسة أوجه :

أحدها: الصبر نفسه، وهو حبس النفس. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِين عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ [الحج، الآية:35]، وفي سورة ص: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ [الآية:21]، وهو الأعم في القرآن.
والثاني: الصوم. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة، الآية:45].

(1) عدة الصابرين (ص27).
(2) علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية. كان ذا فصاحة وطلاقة وعبارة رشيقة، ومعرفة بطرق المناظرة والمباحثة والاحتجاج ذا قوة في المناظرة. له العديد من المصنفات من أشهرها: « التعريفات»، و« شرح مواقف الايجي».
ولد سنة 740هـ وتوفي عام 816هـ.
« انظر: الأعلام، للزركلي (7/5)، والضوء اللامع، للسخاوي (328/5) ».
(3) زين الدين، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، من كبار العلماء بالدين والفنون. ولد سنة 952هـ. له نحو ثمانين مصنفا منها: « فيض القدير»، و«شرح الشمائل للترمذي ». عاش في القاهرة، وتوفي بها سنة 1031هـ.
« انظر: الأعلام، للزركلي (204/6) ».
(4) انظر: التعريفات (ص172)، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص447).
(5) معجم مقاليد العلوم (ص218).
(6) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص19).

والثالث: الجرأة. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة، الآية:175]، أي: فما أجرأهم على فعل ما يؤدي بهم إلى النار، وما أجرأهم عليها.

والرابع: الإصرار على الشيء. ومنه قوله تعالى – على لسان مشركي قريش– : ﴿ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ ﴾ [ص، الآية:6]، يعني: اصبروا على عبادتها واثبتوا. وقوله تعالى: ﴿ لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا ﴾ [الفرقان، الآية:42]، أي: ثَبَتْنا على عبادتها [1].

والخامس: الرضا. قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور، الآية:48]، يعني: ارض بقضاء ربك[2].

وربما تعددت أسماء الصبر بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمي صبرا، وإن كان صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سُمي عفة، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول مالا يجمل منه سُمي شرف نفس وشبع، وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سُمي كتمان سر، وإن كان عن فضول العيش سُمي زهدا، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سُمي قناعة، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمي حلما، وإن كان عن إجابة داعي العجلة سُمي وقارا وثباتا، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سُمي شجاعة، وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سُمي عفوا وصفحا، وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سُمي جودا، وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سُمي صوما، وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سُمي كيسا، وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلِّ على الناس وعدم حمل كَلِّهم سُمي مروءة.

فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب مُتَعلّقهِ، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر؛ وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها [3].

---

(1) كل صبر في القرآن الكريم فهو محمود، إلا في هذين الموضعين فإنه ذكر على وجه الذم؛ لأنه صبر على باطل. قال السعدي: ((والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع، فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم)).

انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص584)، وبدائع الفوائد (1033/3).

(2) انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (ص301)، ونزهة الأعين النواظر (ص387– 388).

(3) عدة الصابرين (ص28)، باختصار. وانظر: إحياء علوم الدين (2179/3).

– أقسام الصبر ومراتبه:

قسم علماء التربية وتزكية النفوس الصبر إلى ثلاثة أقسام(1):

1 – الصبر على طاعة الله.

فلعبد يحتاج إلى الصبر على أداء العبادات والطاعات التي فرضها الله سبحانه على عباده المسلمين؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، وذلك لثقل أداء العبادات ولا سيما عند تسلط الشيطان وغلبة الهوى وحب الركون إلى الراحة والخمول والكسل، فمن العبادات ما يثقل على النفس أداؤها بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يثقل على النفس أداؤها بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يثقل على النفس أداؤها بسببهما معا، كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد، وفي هذا الشأن قال الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم، الآية:65].

ويحتاج العبد إلى الصبر على الطاعة في ثلاث حالات:

الأولى: قبل الشروع في الطاعة، وذلك بتصحيح النية والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الوفاء بهذه الطاعة.

الثانية: الصبر حال القيام بالطاعة، وذلك بملازمة الصبر عن التقصير فيها، وملازمة استصحاب النية، وحضور القلب بين يدي المعبود.

الثالثة: الصبر بعد الفراغ من الطاعة، وذلك بالصبر عن الإتيان بما يبطلها، والصبر عن النظر إليها بعين العجب والتعظيم، والصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية.

فلصَّبْر عَلَى امْتِثَالِ مَا أَمَرَ الله تعالى بِهِ، والانتهاء عمَّا نهى الله عنه؛ بِهِ تَخْلُصُ الطاعة وَبِهَا يَصِحُّ الدِّينُ وَتُؤَدَّى الفُروض وَيُسْتَحَق الثَّواب.(2)

---

(1) قال ابن القيم: « الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها ». عدة الصابرين (ص48).

(2) انظر: عدة الصابرين (ص118)، وإحياء علوم الدين (3/2184– 2186)، وأدب الدنيا والدين (ص360).

2 – الصبر عن معصية الله.

والمقصود به: الصبر عمّا نهى الله عنه من المحرمات والمعاصي، وقمع الشهوات، ومجاهدة النفس عن قربانها، وقهرها عن هواها، وكبح جماحها عن الوقوع في حمأة الرذائل، يقول تعالى في بيان عاقبة الصبر عن المعصية: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات، الآيتين: 40–41]. فالمسلم محتاج إلى أن يخاف الله، وينهى النفس عن الهوى، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله وعملا صالحا، وثبت عنه ﷺ أنه قال: « الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ »، وقال ﷺ : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ » [1]، فهو يجاهدها كما يجاهد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذاك الجهاد، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد. [2]

لذلك كان الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة أشق الصبر على النفوس، ومرّد ذلك إلى أمرين وهما: قوة الداعي إلى الفعل، وسهولته على العبد. ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشباب عن الفاحشة وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان، وفي المسند أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ» [3]؛ ولذلك استحق السبعة المذكورين في الحديث أن يظلهم الله في ظل عرشه[4] لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره

---

(1) انظر: صحيح البخاري: كتاب الإيمان / باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (13/1)، (ح: 10)، و مسند الإمام أحمد (381/39)، (ح: 23958).

(2) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (357/10)، بتصرف.

(3) أخرجه أحمد (600/28)، (ح: 17371)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (824/6)، (ح: 2843). (أي: لا ميل له إلى الهوى).

(4) قال ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

متفق عليه: البخاري في كتاب الزكاة / باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، و مسلم في كتاب الزكاة/ باب إخفاء الصدقة.

انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (216/1).

للناس من أشق الصبر؛ ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلا على تمردهم على الله وعتوهم عليه.

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ». فقال: «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟» فقال: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[1]. ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد، فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة، والنميمة، والتفكه في أعراض الخلق، وربما خص أهل الصلاح والعلم بالله والدين، والقول على الله ما لا يعلم! وكثيرٌ ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام، والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام!![2]

3 – الصبر على قضاء الله.

المراد بـالصبر على المحن والمصائب وما يقدره الله سبحانه على عبده من كوارث مفجعة ومصائب مؤلمة، وابتلاء وامتحان مهما كانت أسبابه، فقد يكون بفقد عزيز، أو بحلول نازلة تحزنه، وقد يكون بفادحة تجتاح ماله، أو علة جسدية مستعصية تعطله عن الحركة، أو فشل ذريع في مشروع بنى عليه مستقبله، ونحو ذلك

من أنواع المحن والبلايا والمصائب التي تصيب البشر والتي أكد الله عز وجل وقوعها بقوله: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة، الآية:155].

فالبلاء هنا عام، يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات. ومن لطف الله تعالى ورحمته أنه جعل البلاء بشيء –كما يدل عليه سياق الآية– للتقليل والتحقير، لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه، فمسهم بشيء قليل من البلاء، تخفيفا عنهم، ورحمة بهم، وتقديرا لضعفهم[3]

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان / باب حرمة الصلاة (11/5)، (ح: 2616)، وقال حديث حسن صحيح.

(2) انظر: عدة الصابرين (ص125– 127)، باختصار.

(3) انظر: الصبر في القرآن الكريم، للدكتور يوسف القرضاوي (ص16– 17).

والصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر، ويتأكد وقوع البلاء في حق المؤمنين الصادقين، وعلى قدر الإيمان واليقين يكون الابتلاء ولذلك فإن الأنبياء – صفوة البشر – هم أشد الخلق ابتلاء في دار الابتلاء، كما ورد في الحديث: « أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » [1].

ومنه صبر نبي الله يعقوب عليه السلام، امتُحِن – على كبر سنه ورقة عظمه – بفقد مهجة فؤاده وأحب أبنائه إليه يوسف عليه السلام، ومن بعده شقيقه الأصغر وهو بنيامين، ثم امتحن ثالثا بفقد بصره، حيث ابيضت عيناه من شدة الحزن، وهو صابر محتسب لسان حاله ومقاله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف، الآية:18]. فكان في كل ذلك يتجمل بالصبر[2]؛ فانتهى به الحال بعد سنين من الصبر والتحمل إلى كشف الضر عنه، حيث رد الله إليه بصره، وجمعه بابنيه المفقودين، واستقر به المقام مع أهله بمصر آمنين ومُكَرَّمين.

وثبت في السُنَّة أنه ﷺ قال: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » [3]. فجمع الرسول ﷺ بين الشكر والصبر لعظم منزلتهما، وقد تكرر ذلك أربع مرات في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:5]، [لقمان:31]، [سبأ:19]، [الشورى:33] . وهذا دليل على أنّ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[4].

والله جل وعلا سبحانه يبتلي عباده بالضراء كما يبتليهم بالسراء، وله على العباد عبودية في الحالتين، فيما يحبون وفيما يكرهون، فأما المؤمن فلا يجزع عند المصيبة، ولا ييأس عند الضائقة بل يصبر ويحتسب، ولا يبطر عند النعمة بل يعترف لله بالفضل والإنعام، ويعمل جاهدا على شكرها وأداء حقها.

وأمَّا الفاجر والكافر فيَفْرَق عند البلاء، ويضيق من الضراء، فإذا أعطاه الله ما تمناه، وأسبغ عليه نعمه كفرها وجحدها، ولم يعترف لله بها، فضلا عن أن يعرف حقها، ويؤدي شكرها؛ لذلك كان الصبر والشكر هما المقياس الحقيقي للإيمان الصادق[5].

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد / باب ما جاء في الصبر على البلاء (601/4)، (ح: 2398)، وقال حديث حسن صحيح.

(2) قال أهل التفسير: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى معه، والمعنى: « أتجمل لكم في صبري فلا أعاشركم على كآبة الوجه، وعُبوس الجبين ». انظر: تفسير القرطبي (290/11)، والبحر المحيط (290/5).

(3) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق / باب المؤمن أمره كله خير (2295/4)، (ح: 2999).

(4) انظر: عدة الصابرين (ص205).

(5) الابتلاء بالسراء والرخاء قد يكون أصعب من الابتلاء بالشدة والضراء؛ وذلك لأنّ الكثيرين قد يستطيعون تحمُّل الشدَّة والصبر عليها، ولكنهم لا يستطيعون الصبر أمام هواتف المادَّة ومغرياتها، وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقول: « ابتُلينا مع رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسَّرَاء بعده فلم نصبر ». انظر: سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (642/4)، (ح: 2464)، وقال حديث حسن.

– منزلة الصبر وفضائله:

ذكر الله سبحانه الصبر في كتابه أكثر من تسعين موضعا فمرة أمر به ومرة أثنى على أهله ومرة أمر نبيه أن يبشر به أهله ومرة جعله شرطا في حصول النصر والكفاية ومرة أخبر أنه مع أهله وأثنى به على صفوته من العالمين وهم أنبياؤه ورسله؛ وهذا يدل على أن الصبر من أرفع مقامات الإيمان، وخلق من أعظم أخلاق المؤمنين، ومنزلة من أجل منازل الصالحين، وشعبة من أبرز شعب الإيمان، وعروة من أوثق عرى الإسلام، حتى أن القرآن جعله مفتاح كل خير، وباب كل سعادة في الدنيا والآخرة.

فقد قُرِن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الدين كلها، قرنه بالصلاة كقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة، الآية:45]، وقرنه بالأعمال الصالحة عموما كقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود، الآية:11]، وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ [يوسف، الآية:90]، وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم، الآية:5]، وجعله قرين الحق كقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر، الآية:3]، وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد، الآية:17]، وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة، الآية:24]، وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب، الآية:35]، وجعله سبب محبته ومعيته ونصره وعونه وحسن جزائه[1].

بل الصبر من صفات الله جل جلاله، والصبور اسم من أسمائه الحسنى ولو لم كن للصبر من الفضيلة إلا ذلك لكفى[2].

---

(1) انظر: طريق الهجرتين (578/2)، وعدة الصابرين (ص135– 136).

(2) في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول ﷺ: « لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ ». «صحيح البخاري» (ح: 2378)، و«صحيح مسلم» (ح: 2804).

فصبر الله مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة. قال الغزالي: «الصبور هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود، لا يؤخرها عن آجالها المقدرة لها، ولا يقدمها على أوقاتها، بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي». انظر: عدة الصابرين (ص535)، والمقصد الأسنى (ص119).

– ومن فضائل الصبر الكثيرة والعظيمة التي ورد ذكرها في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ما يلي:

1– معية الله تعالى للصابرين، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة، الآية:153]، وهي معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية.

2– محبة الله تعالى لهم، قال جل جلاله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران، الآية:146].

3– أنه سبحانه جمع للصابرين ثلاثة أمورلم يجمعها لغيرهم، وهي:

الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة، الآيات:155–157].

4– توفيتهم أجورهم بغير حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر، الآية:10].

5– أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود، الآية:11].

6– الصبر نبراس ينير معالم الطريق، ويكشف ظلم الحيرة، ويوضح حقائق الأمور: فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه[1] أنّ رسول الله ﷺ قال: « الصَّبْرُ ضِيَاءٌ »[2].

7– الصبر خير عطاء أعطيه الإنسان وأوسعه: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ »[3].

---

(1) أبو مالك الأشعري: اختلف في اسمه، فقيل: كعب بن مالك، وقيل: كعب بن عاصم، وقيل: عُبَيد، وقيل: عمرو، وقيل: الحارث، وقيل: إنهما اثنان. قدم في السفينة مع الأشعريين على النبي ﷺ، وكان من أصحاب السقيفة. وهو معدود في الشاميين.

انظر: « أسد الغابة، لابن الأثير (507/4)، والاستيعاب، لابن عبد البر (ص852) ».

(2) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة / باب فضل الوضوء (203/1)، (ح: 223).

– قال ابن عثيمين: « وأما الصبر فقال: «إنه ضياء». أي: فيه نور لكن نور مع حرارة كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس، الآية:5]. فالضوء لابد فيه من حرارة وهكذا الصبر لابد فيه من حرارة وتعب؛ لأن فيه مشقة كبيرة ولهذا كان أجره بغير حساب. فالفرق بين النور في الصلاة والضياء في الصبر، أن الضياء في الصبر مصحوب بحرارة لما في ذلك من التعب القلبي والبدني في بعض الأحيان ».

شرح رياض الصالحين (93/1).

(3) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الزكاة / باب الاستعفاف عن المسألة (455/1)، (ح: 1469)، ومسلم في كتاب الزكاة / باب فضل التعفف والصبر (2/ 729)، (ح: 1053). انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (224/1).

الصبر سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

إنّ خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على فضيلة الصبر، فالنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع، منوط بالصبر.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران، الآية:200].

في الآية انتقال من الأدنى إلى الأعلى فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة، والمرابطة مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمي المرابط مرابطا: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع.
ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط، ومنه قول النبي ﷺ : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟». قَالُوا: بَلَى. يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ. فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[1].

فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾؛ **فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته[2].**

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة / باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (219/1)، (ح: 251).

(2) انظر: مدارج السالكين (558/1)، وعدة الصابرين (ص33).

– فائدة: « مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبّار. فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبّار: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم، والذي قبله في الوصف والكيف». مدارج السالكين (557/1).

وقيل: « الصبر على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض: فالأول: التصبر. وهو تحمل مشقة، وتجرع غصة في الثبات على ما يجري من الحكم. وهذا هو التصبر لله، وهو صبر العوام. والثاني: الصبر، وهو نوع سهولة تُخَففُ على المبتلي بعض الثقل، وتسهل عليه صعوبة المراد. وهو الصبر لله، وهو صبر المريدين. والثالث: الاصطبار، وهو التلذذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى. وهذا هو الصبر على الله، وهو صبر العارفين».

طريق الهجرتين (575/1).

وفيها حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. فعلم أنّ الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار؛ لأنه جاء في الخبر: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» [1] فيحتاج المؤمن إلى الصبر على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى الصبر عن الشهوات لينجو من النار؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدا الفلاح إلا بالإخلال بها، أو ببعضها[2].

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الرقاق/ باب حجبت النار بالشهوات (189/4)، (ح: 2487)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (4/ 2174)، (ح: 2822) واللفظ له.

انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (286/3).

(2) انظر: تفسير السعدي (ص162– 163)، وقوت القلوب، لأبي طالب المكي (554/2– 555).

– فائدة:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان، الآية:12].

قال شيخ الإسلام بن تيمية: «ولما كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه؛ كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة، والحرير الذي فيه اللين والنعومة، والاتكاء الذي يتضمن الراحة والظلال، المنافية للحر». اهـ

وهذا جار على نظم القرآن الكريم فإنه يرتب الجزاء من جنس العمل.

دقائق التفسير (5/ 24).

المطلب الثالث:

الجهاد في سبيل الله.

تمهيد:

إنّ الجهاد في الإسلام يشمل حياة الفرد والمجتمع كلها، بجوانبها المختلفة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والصراع فيه يشمل أعداء كثيرين، يشمل النفس وشهواتها، والكفار المعاندين، والمنافقين المرجفين، ووساوس الشياطين كلِّهم الجن والإنس، وهؤلاء وساوسهم على نوعين:
نوع هدفه زرع الشبهات، وآخر هدفه اتباع الشهوات؛ ومكافحة الأول بنشر العلم والعقيدة الصحيحة، ومقاومة الثاني بنشر الفضائل والأخلاق الحميدة وموعظة الناس لتقوية إيمانهم.
وكلُّ هذا من الجهاد الأكبر؛ خاصة أن أهل الشبهات وأهل الشهوات أصبحوا اليوم يستخدمون مختلف الوسائل المؤثرة: الإعلامية، والتعليمية، والاقتصادية، وفي غالب الأحيان يتم ذلك بدعم وتخطيط من أهل السياسة والحكم والتنفيذ.

انطلاقا من هذا الإيضاح يتبين أن حصر مفهوم " الجهاد " في القتال قصور في فهم الكتاب والسنة، فإن الجهاد جاء بمعنى القتال، وجاء بمعنى أكبر من ذلك وأشمل. قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان، الآية:52]، فالجهاد الكبير هنا ليس مقصودا به قتال السيف والسنان فحسب، وإنما هو الدعوة والبيان بالحجة والبرهان وأعظمها هو هذا القرآن، فإنه حجة الله على خلقه، ومعه تفسيره وبيانه الذي ورد في سنة المصطفى العدنان ﷺ.

وفي هذا الصدد يحسن التنبيه إلى أن المصطلح الإسلامي هو " الجهاد" وليس الحرب أو القتال، فلفظ الحرب غالبا ما يراد بها الاقتتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الطوائف والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأهداف مادية وأطماع دنيوية، والقتال المشروع في الإسلام ليس من هذا القبيل ولا يرمي لهذه الأغراض ولا لتلك الأهداف، ولكن مقصده سعادة البشر وفلاحهم تحت راية الإسلام.

هذا كله يوضح مدى اتساع دائرة الجهاد، وأنها ليست محصورة في القتال، بل هي مرتبطة بمجالات الحياة كلها، وهكذا حتى في القتال المباشر مع العدو، فإن جهاد كل واحد بحسبه، الطبيب بخبرته الطبية، وأهل الإغاثة بإغاثتهم، وأهل الإعلام بإعلامهم، وأهل الأموال بأموالهم، وأهل العلم والفكر بكلمتهم وأقلامهم. ويبقى في البلد من يقوم بشؤونها، ويخلف المجاهدين في أهليهم بالخير والرعاية والحراسة، وتستمر الدعوة إلى دين الله في كل الأحوال.

بعد هذا الإيضاح لمعنى الجهاد وسر اختيار هذه الكلمة على غيرها من مرادفاتها؛ لا بد من التنبيه إلى كلمة لصيقة بها في المصطلح الإسلامي ألا وهي عبارة: "في سبيل الله "[1]؛ فإنها تحدد بجلاء المقصود من هذه القوة الإسلامية بكونها شرطا لا ينفك عنها أبدا، بل لو انفك عنها لبطل المصطلح ولفسد الأمر واضمحل الهدف، والنص القرآني يوضح ذلك.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ [النساء، الآية:72]، وفي الحديث النبوي: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال ﷺ: ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ في سَبِيلِ الله))[2].

إن معنى "في سبيل الله " أن يكون ذلك خالصا لوجه الله من غير أن يشوبه شيء من شوائب الأهواء والشهوات، فالجهاد الإسلامي الحق لا بد أن يكون مجردا من كل غرض دنيء، نقيا من كل هوى أو نزعات عرقية أو طائفية؛ بل لا يقصد إلا لتأسيس نظام عادل يقوم عليه الناس بالقسط، ونشر الخير ونصر الحق، وفق مبادئ الإسلام السامية من أجل تحرير النفوس وإخراجها من ترسبات الوثنيات بأنواعها وأشكالها المقيتة إلى سماحة الشريعة ومحاسن الدين القويم، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، من ظلمات الكفر والعصيان إلى نور التوحيد والإيمان، ومن جور الأديان المحرفة والمذاهب الهدامة إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا وشقائها إلى سعتها وسعادتها، ومن عذاب النار يوم القيامة إلى جنات النعيم.

---

(1) قال ابن الأثير: ((السَّبيلُ: في الأصل الطَّريقُ ويذكَّر ويؤنثَّ، والتأنيثُ فيها أغلبُ . وسبيلُ اللّه عامٌّ يقعُ على كل عمل خالِص سُلك به طريق التقرُّب إلى اللّه تعالى بأداءِ الفرائض والنَّوافل وأنواع التطوعات، وإذا أُطلق فهو في الغالِب واقعٌ على الجهاد، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصورٌ عليه)). النهاية في غريب الأثر (339/2).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((والجهاد في سبيل الله مقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا)).

مجموع الفتاوى (16/28).

والمراد بكلمة الله: هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ومعنى ذلك أن القتال لإعلاء كلمة التوحيد، هو القتال في سبيل الله.

انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (152/14)، بتصرف.

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب التوحيد/ باب ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (396/4)، (ح: 7458)، ومسلم في كتاب الإمارة / باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (3/ 1512)، (ح: 1904) واللفظ للبخاري.

– الجهاد لغة:

مصدر قولهم جَاهَدَ يُجَاهِدُ مأخوذ من مادة (جَـهَـ دَ) التي تدل في الأصل على المشقة.
والجهاد مصدر الفعل الرباعي جاهَدَ على وزن «فِعال» بمعنى «المفاعلة» من الطرفين، ومنه المجاهدة.
قال الشيخ ابن باديس[1]: «الجهاد: بذل الجهد من ناحيتك في مقابلة من هو باذل جهده في الناحية المقابلة لك، هذا مقتضى صيغة فعال» [2].

قال ابن الأَثير: « قد تكرر لفظ الجَهْد والجُهْد في الحديث كثيرا، وهو بالضم (الجُهد): الوُسْع والطاقة، وبالفتح (الجَهد): المشقة. وقيل المبالغة والغاية. وقيل هما لغتان في الوسع والطاقة، فأَما في المشقة والغاية فالفتح لا غير» [3].

ومن الجَهد بمعنى المشقة: قولهم جَهد دابّته وأجهدها إذا حمّل عليها في السير فوق طاقتها، ومن الجُهد بمعنى الطاقة: قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة، الآية:79]، فالجُهد في هذه الآية: الطاقة، تقول: هذا جُهدي، أي: طاقتي.

وجاهَدَ العدوَّ مُجاهَدة وجِهاداً: قاتله، والجِهاد: محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع من طاقة أو فعل. والاجتهاد: أخذ النّفس بِبذل الطاقة وتحمل المشقة، يقال جَهِدتُ رَأيي وأَجْهَدتُه: أتعبته بالفكر. ويقال اجْتَهَدَ في الأمر: بذل وسعه وطاقته في طلبه ليبلغ مجهوده ويصل إلى نهايته[4].

– الجهاد اصطلاحا:

قال الراغب : « الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو» [5].

---

(1) عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس الصنهاجي. ولد سنة 1308هـ (1887 م) بقسنطينة . من أسرة معروفة بالعلم والجاه والثراء. ارتحل إلى جامع الزيتونة بتونس وأخذ عن أكابر العلماء هناك كالطاهر بن عاشور والصالح النيفر، ثم رجع إلى الجزائر وأنشأ جمعية العلماء 1931م ولسانها «مجلة الشهاب»، وهي مجلة علمية دينية أدبية، تعنى بشؤون الدعوة والتعليم ومقاومة الاستعمار الفرنسي.
كانت له جهود حثيثة وإسهامات طيبة مع إخوانه بالجمعية في نشر التعليم، والوعي الإسلامي، ومقاومة البدع والخرافات.
ظل ابن باديس يلقي دروسه في تفسير القرآن بالجامع الأخضر بقسنطينة، حتى ختمه. لم يخلف كتبا كثيرة، وأثر عنه قوله: «شغلنا تأليف الرجال عن الكتب». وإنما جمع نبذ من دروسه في التفسير وطبع عدة مرات باسم: «مجالس التذكير»، وله رسالة في« العقائد الإسلامية».
توفي سنة 1359هـ (1940م). « انظر: مقدمة تفسير ابن باديس (ص6– 15)، والأعلام، للزركلي (289/3) ».
(2) تفسير ابن باديس (ص187).
(3) النهاية في غريب الأثر (319/1).
(4) انظر: معجم مقاييس اللغة (486/2)، ولسان العرب (708/1)، وتاج العروس (534/7)، وموسوعة نضرة النعيم (1481/4)، والمصباح المنير (ص62).
(5) المفردات في غريب القرآن (ص101)

وعرفه القسطلاني[1] بقوله: «الجهاد في الاصطلاح: قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله» [2]
وقيل: «الجهاد بذل الوسع في القتال في سبيل الله، مباشرة، أو بمعاونة مال، أو رأي، أو تكثير سواد، أو غير ذلك» [3]. وقيل: «الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق، والقتال مع من لا يقبله» [4].
ومن أحسن التعريفات التي تيسر لي الإطلاع عليها، ماجاء في بعض كتب المالكية:
«الجهاد مأخوذ من الجهد، وهو التعب. فالجهاد: المبالغة في إتعاب الأنفس في ذات الله.
وهو على أربعة أقسام:
– جهاد بالقلب: أن يجاهد الشيطان والنفس عن الشهوات المحرمات.
– جهاد باللسان: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.
– جهاد باليد: أن يزجر ذو الأمر أهل المناكر عن المنكر بالأدب والضرب على ما يؤدي إليه الاجتهاد، ومن ذلك إقامتهم الحدود.
– جهاد بالسيف: قتال المشركين على الدين.
فكل من أتعب نفسه في ذات الله فقد جاهد في سبيله إلا أن الجهاد إذا أطلق لا يقع إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» [5].

– من معاني الجهاد في القرآن:

ذكر أهل التفسير أن الجهاد في القرآن على ثلاثة أوجه[6]:
– أحدها: الجهاد بالسلاح، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء، الآية:95].

---

(1) أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن التاج علي القسطلاني الأصل المصري الشافعي. ولد سنة 851هـ. اشتهر بالصلاح والتعفف على طريق أهل الفلاح، من مؤلفاته المشهورة: «إرشاد الساري شرح صحيح البخاري» و«شرح صحيح مسلم » ولم يكمل، و«المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» في السيرة النبوية. توفي سنة 923هـ.
« انظر: البدر الطالع، للشوكاني (70/1)، والأعلام، للزركلي (232/1) ».
(2) إرشاد الساري (31/5).
(3) انظر: رد المحتار على الدر المختار، المعروف بحاشية ابن عابدين (197/6).
(4) الكليات (ص354)، والتعريفات (ص107).
(5) التاج والإكليل لمختصر خليل (346/3)، بتصرف يسير.
(6) انظر: نزهة الأعين النواظر (ص231)، الوجوه والنظائر، للدامغاني (ص159).

– **الثاني: الجهاد بالقول، ومنه قوله تعالى:** ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان، الآية:52].

أراد بالقرآن. وفي براءة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الآية:73]، **أي: فجاهد المنافقين بالقول.**

– **الثالث: الجهاد في الأعمال، ومنه قوله تعالى:** ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت، الآية:69].

– أقسام الجهاد ومراتبه:

تقدم فيما سبق أنّ الجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب، والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة، إذا عُرِفَ هذا فالجهاد على ثلاث أقسام:

1) جهاد النفس: محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع.

قال ﷺ : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ »(1)، أي قهر نفسه الأمارة بالسوء على ما فيه رضا الله من فعل الطاعة وتجنب المعصية، وجهادها أصل كل جهاد، فإنه لا يمكنه جهاد عدو الخارج؛ ما لم يجاهد نفسه، بل إنَّ جهاد الكفار بالسنان ما هو إلا ثمرة مجاهدة النفس، فإنه ما لم يهذب نفسه التي بين جنبيه على فعل المأمورات، وترك المنهيات، ويحاربها في الله؛ لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، والانتصاف منه. ونفسه قاهرة له، متسلطة عليه (2).

وهو على أربع مراتب:

– **إحداها: أن يجاهدها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.**

– **الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.**

– **الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهُدى والبينات، ولا ينفعه علمُهُ، ولا يُنجِيه من عذاب الله.**

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد / باب فضل من مات مرابطا (165/4)، (ح: 1621)، وقال حديث حسن صحيح.

(2) انظر: تحفة الأحوذي (250/5)، وزاد المعاد (6/3).

– الرابعة: أن يُجاهدها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الرَّبَّانِيينَ؛ فإن السلف مجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يستحقُّ أن يُسمى ربانيًا حتى يعرف الحقَّ، ويعمل به، ويُعَلِّمَه، فمن علم وعَمِلَ وعلَّمَ فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات[1].

2) جهاد الشيطان: بمحاربة غوايته وضلالته ودفع وساوسه التي تصد عن سبل الخير، وتوقع العباد في الذنوب والمعاصي.

قال ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ، فقال: تسلم و تذر دينك و دين آبائك و آباء أبيك ؟! فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ، فقال: تهاجر و تدع أرضك و سماءك، و إنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ؟! فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ، فقال: تجاهد، فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقْتَل، فتُنْكَح المرأة، ويُقْسَمُ المال ؟! فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله ﷺ: « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ». قال: « وَإِنْ غَرِقَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ »[2].

ومجاهدة الشيطان لها مرتبتين:

– إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشبهات والشكوكِ القادحة في الإيمان.

– الثانية: جِهادهُ على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات فالجهادُ الأول يكون بعُدَّة اليقين، والثاني يكون بِعُدَّة الصبر؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة، الآية:24]، فأخبر أن إمامة الدين إنما تُنال بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

والشيطان أخبث أعداء بني آدم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر، الآية:6]، فالأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس[3].

---

(1) زاد المعاد (10/3).

(2) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب الجهاد / باب ما لمن أسلم ثم هاجر وجاهد (283/4)، (ح: 4327)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1186/6)، (ح: 2979).

(3) زاد المعاد (10/3).

3) جهاد الكفار والمنافقين: وهو على أربع مراتب:

بالقلب، واللِّسان، والمال، والنفس، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان[1].

قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان، الآية:52]، وهذا خطاب للنبي ﷺ ولأمته بمجاهدة الكافرين ومن دونهم بالقرآن الكريم.

والمعنى: لما أكرمناك بعموم رسالتك، وختم النبوة بك فقابل هذه النعمة بإخلاص الطاعة لربك.

ولا تطع الكافرين أعداء الله وأعداءك، في أي شيء يدعونك إليه من مقتضيات كفرهم: كالرجوع إليهم، والسكوت عن بعض كفرهم. وابذل كل جهدك في دعوتهم للدين الحق، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن العظيم، وجاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا، بتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء وإذاية والصبر عليه، والثبات على الدعوة والمقاومة[2].

وقال ﷺ: « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »[3].

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب: باليد – إذا قَدَرَ – فإن عَجَزَ انتقل إلى اللسان، فإن عَجَزَ جاهد بقلبه.

قال ﷺ: « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ. ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ. فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ »[4].

---

(1) المصدر السابق (11/3).

قال ابن القيم: « جهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً». زاد المعاد (5/3).

وقال أيضا: « قوام الدين بالعلم والجهاد؛ ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه». مفتاح دار السعادة (271/1).

(2) تفسير ابن باديس (ص188).

نعمة ومنقبة: قال الشيخ بن باديس: « قد سمى الله تعالى الجهاد بالقرآن جهادا كبيرا. وفي هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة إلى الله بالقرآن العظيم. وفي ذلك نعمة عظيمة من الله عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد، حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف مجاهدون. فحق عليهم أن يقدروا هذه النعمة، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل، والإخلاص والصبر والثبات واليقين، جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرهم أجمعين». تفسير ابن باديس (ص189).

(3) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد / باب كراهية ترك الغزو (18/3)، (ح: 2504)، والإمام أحمد في المسند (398/10)، (ح:12186).

(4) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان / باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (69/1)، (ح: 50).

خلاصة مراتب الجهاد وأقسامه:

– الجهاد بمفهومه العام يشمل جهاد النفس والشيطان في طاعة الله عز وجل وترك معصيته، ويشمل جهاد الكفار والمنافقين بالحجة والبيان، والسيف والسنان، كما يعني جهاد أهل البدع والمنكرات باليد أو باللسان أو بالقلب حسب الاستطاعة.

– جهاد الكفار في المعارك هو قمَّة الجهاد وكماله، وهو الذي ذكر النبي ﷺ أنه ذروة سنام هذا الدين وهو المراد من الجهاد في سبيل الله عند الإطلاق؛ بل هو قمة الإيمان وهو ثمرة جهاد طويل مع النفس والشيطان وتربيتها على الصبر والتضحية وقوة الصلة بالله عز وجل، ولا يصبر على جهاد الكفار وينتصر عليهم إلا أولئك الذين انتصروا على أنفسهم والشيطان في جهادهم لهما، وكان لهم نصيب من جهاد البيان وقول الحق والصبر على الأذى فيه؛ فالانتصار على الكفار في ساحات القتال هو نتيجة للانتصار على النفس والشيطان قبل ذلك؛ إذ معركة الجهاد مع الكفار ما هي إلا ساعات أو أيام حاسمة، وجهاد النفس والشيطان يستغرق العمر كله؛ إذ لا بد منه قبل منازلة الكفار، وأثناءها، وبعدها.

– أكمل الخلق عند الله من قام بمراتب الجهاد كلها، فعازِلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرِّفعةُ في الدنيا، وهم الأَعْلَوْنَ في الدنُّيَا والآخِرةِ. وكان رسول الله ﷺ في الذِّروةِ العُليا منه، واسْتولى على أنواعه كُلِّها فجاهد في اللهِ حقَّ جهاده بالقلب، والجنانِ، والدَّعوة، والبيان، والسيفِ، والسِّنَانِ، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده؛ ولهذا كان أرفعَ العَالَمِينَ ذِكراً، وأعظمَهم عند الله قدراً.

من فضائل الجهاد في القرآن والسنة:

النصوص من الكتاب والسنة في فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله كثيرة وحصرها يطول وهذا جانب منها: – قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء، الآيتين:95– 96]**، والدرجات بينها النبي ﷺ بقوله: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ »[1].**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد / باب درجات المجاهدين في سبيل الله (2/303)، (ح: 2790)، ومسلم في كتاب الإمارة/ باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات (3/ 1501)، (ح: 1884)، واللفظ للبخاري.

– **قال تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ **[التوبة، الآية:111]**

في هذه الآية الكريمة الترغيب العظيم في الجهاد في سبيل الله عز وجل وبيان ثواب المجاهدين وهو الفوز العظيم الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من اللّه الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو اللّه جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان. وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب اللّه الكبار المنزلة على أفضل الخلق[1].

– **قال رسول الله ﷺ :((رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ)) [2].**

وقال ﷺ :((لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ)) [3].

الجهاد في سبيل الله سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **[المائدة، الآية:35].**

بعدما ذكر الله عز وجل فيما سلف أن اليهود قد هموا ببسط أيديهم إلى الرسول حسدا منهم له، وغرورا بدينهم، واعتقادا منهم أنهم أبناء اللّه وأحباؤه – أمر المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد، ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يُسخط الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة، مستعينا بالله على تركها، لينجو بذلك من غضب الله وعقابه[4].

---

(1) تفسير السعدي (ص 353).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الإيمان / باب حرمة الصلاة (11/5)، (ح: 2616)، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (240/2)، (ح: 1663).

(3) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد / باب في ثواب الشهيد (187/4)، (ح: 1663)، وقال حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (43/3)، (ح: 2616).

(4) انظر: تفسير المراغي (108/6)، وتفسير السعدي (ص 230).

ومعنى ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾: اطلبوا القُرْبَ منه، والزُلْفَى له، والحُظْوَة لديه، بفعل ما يحب وترك ما يكره. وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة.

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه فقال: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾، وهو: بذل الجُهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات، كما يشمل مجاهدة النفس في طاعة الله، والشيطان في معصيته [1].

وأكد أنّ الفوز والفلاح لا يكون إلا بتقوى الله بترك المعاصي، وابتغاء الوسيلة إلهه سبحانه بفعل الطاعات، والجهاد في سبيله ابتغاء مرضاته، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والنعيم المقيم، والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة، التي لا تَبِيد ولا تَحُول ولا تزول، في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنهاـيَنْعَم لا ييأس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه[2].

قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة، الآية:88]

لما ذكر الله تعالى قبل هذه الآية أنّ المنافقين اختاروا الدعة والقعود مع أخسة الناس وأراذلهم وكرهوا الجهاد، وفروا من القتال، وذكر ما أثّر ذلك فيهم من الطبع على قلوبهم، بيّن حال الرسول ﷺ والمؤمنين في المثابرة على الجهاد، و ما لهم من الثواب. وافتتح الكلام بحرف الاستدراك للإشارة إلى الاستغناء عن نصرة المنافقين بنصرة المؤمنين للرسول ﷺ. أي: إن تخلف هؤلاء، فقد نهض إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله: ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام، الآية:89]، وابتدئ وصف أحوالهم بوصف حال الرسول ﷺ لأنّ تعلّقهم به، واتّباعهم إياه هو أصل كمالهم وخيرِهم[3].

---

(1) انظر: أيسر التفاسير (627/1)، والمفردات في غريب القرآن(ص 524)، وتفسير السعدي (ص 230).

(2) انظر: تفسير ابن كثير (204/5).

(3) انظر: البحر المحيط (86/5)، والتحرير والتنوير (290/10).

فقال: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، **وقدم جهاد المال على النفس للتنويه بأن الله تعالى أوجب الجهاد بكلا الأمرين فمن استطاعهما معاً قام بهما، ومن لم يستطع إلاّ واحداً منهما وجب عليه الذي استطاعه منهما** [1].

ثم ذكر منافع الجهاد فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ **والخيرات: جمع خيرة، وهو المستحسن من كل شيء، وتشمل المنافع التي تسكن النفس إليها وترتاح لها، وظاهر اللفظ عمومها هنا لمنافع الدارين كالنصر والغنيمة في الدنيا والجنة ونعيمها في الآخرة** [2]. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب، الفائزون بالسلامة من كل مرهوب وبالظفر بكل محبوب، وكرّر اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم**[3].

---

(1) التحرير والتنوير (207/10).

فائدة تقديم الأموال على الأنفس في القرآن الكريم عند ذكر الجهاد في سبيل الله:

قال ابن القيم: «تقديم الأموال على الأنفس في الجهاد حيث ما وقع في القرآن الكريم إلا في موضع واحد وهو قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة، الآية:111] والحكمة من ذلك:

أولا: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو؛ وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزا؛ وجب عليه أن يغزي بماله، وفي هذا رد على من توهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرا على أن يغزو بماله لا يجب عليه شيء، بل يتعين عليه الجهاد بالمال.

وفائدة ثانية:– على تقدير عدم الوجوب– وهي: أن المال محبوب النفس ومعشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله، وترتكب الأخطار، وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها، فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإنّ المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم، ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه؛ نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها وهي: بذل نفوسهم له، فهذا غاية الحب، فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه، فإذا أحب شيئا بذل له محبوبه من نفسه وماله فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه، هذا هو الغالب، وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية. ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فر وتركهم، فلم يرض الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها. وأيضا فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولا يقي به نفسه، فإذا لم يبق له ماله بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقا للواقع».

بدائع الفوائد (136/1–137).

(2) أنظر: تفسير البحر المحيط (86/5)، وروح المعاني للألوسي (157/10).

– جاء في تفسير اللباب، لابن عادل الدمشقي (167/10): «الخيراتُ: جمع خَيْرة، على وزن: «فَعْلة» بسكون العين، وهو المسْتَحْسَنُ من كُلِّ شيءٍ، وغلبَ استعماله في النِّساء، كما في قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن، الآية:70]. قال المفسِّرونَ: هي الجواري الحسان والجنَّة. وقال ابنُ عبَّاس: «الخَيْرَاتُ»: لا يعلم معناهُ إلاَّ الله، كما قال جلَّ ذكرهُ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة، الآية:17]. وقيل: المرادُ بالخَيْرَات: الثَّواب» اهـ. – وقيل: «المراد بالخيرات هنا الحور العين. وقيل: المراد بها الغنائم من الأموال والذراري. وقيل: أعدّ الله لهم جنات، تفسير للخيرات إذ هو لفظ مبهم». تفسير البحر المحيط (86/5).

(3) انظر: فتح القدير، للشوكاني (ص 590) و أيسر التفاسير (108/6)

ثمّ فسر تعالى تلك الخيرات وذلك الفلاح بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وعبر بالإعداد، وهو التهيئة؛ وفيه إشعار بالعناية بهم، والتهمّم بشأنهم[1].

كلمات في بيان معنى الجنات، والفوز العظيم من تفسير الإمام الشعراوي:

قال رحمه الله: « الجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار، وجمعها جنات، وفيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.
وجعلت هذه الجنات واسعة شاسعة، فيها زروع وأزهار وأشكال؛ تسرُّ العين بجمالها، وتمتع اللمس بنعومتها؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية. ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجري من خلالها، ولكنها لا تجري من فوقها بل تجري من تحتها، ومنابعها ذاتية، أي ينبع من نفس المكان. وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به. وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى ثم تجد الأنهار قد تشترك في المجرى؛ نهر اللبن، ونهر العسل، ونهر الماء، ونهر الخمر، وكلها تجري في مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض، فكل منها منفصل؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع.
ويعطيهم سبحانه وتعالى بعد كل ذلك، ميزة الخلود في هذه الجنات فيقول: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فلا يفارقون النعمة ولا تفارقهم؛ لأنه ليس هناك أغيار، وليس هناك موت؛ لذلك يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس.

وسمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه: ﴿ٱلْفَوْزَ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح في الدنيا، والفوز في الآخرة؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك. ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً. أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك، ولا تفارقها أنت، فالنعمة خالدة، وأنت خالد، وهذه النعمة – في الوقت نفسه – ليست بقدراتك أنت، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى، ولا تحتاج منك أي تعب أو عمل أو اجتهاد، بل يأتيك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك، وهذا لا يحدث إلا في الآخرة وفي الجنة وهذا هو الفوز العظيم؛ لأنه دائم وبلا نهاية »[2].

---

(1) التحرير والتنوير (291/10).

(2) تفسير الشعراوي، [الآيتين:(72، 88) من سورة التوبة] (ص 5318–5321)، و (ص 5410)، بتصرف يسير.



المطلب الرابع: ذكر الله.

- الذكر لغة:

الذِّكر مصدر ذَكَر يذكُرُ ذِكْراً وذُكْراً، وهو خلاف النسيان، تقول: ذكرت الشيء، ويقولون: اجعلْه منك على ذُكْرٍ- بضم الذال- أي لاتَنْسَه. ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان، ويطلق الذِكر ويراد به العَلاَءُ والشَّرَف[1].

والذِّكْرُ: حفظ الشيء، وهو ما يعرف بالتذكر والتذكرة والذكرى، قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الذاريات، الآية:55]. وقيل: الذِّكْرُ ما ذكرته بلسانك وأَظهرته، والذُّكْرُ بالقلب، ومنه الاسْتِذْكارُ: الدِّرَاسَةُ للحفظ والتَّذَكُّر، يقال: تذكر ما أُنسيتَه. وذَكَرْتُ الشيء بعد النسيان وذَكَرْتُه بلساني وبقلبي وتَذَكَّرْتُه. ويطلق الذكر على الصلاة والطَّاعَة والشُّكْر والدُّعَاء والتَّسْبِيح وقِراءَة القرآنِ وتَمْجِيدِ الله وتَسْبِيحه وتَهْليله والثَّناء عَلَيْه بجَمِيع مَحامِده. والذِّكْرُ: الشهرة والصيت، والثناء الحسن، قال تعالى:﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ ﴾ [الأنبياء، الآية:10] [2].

وخلاصة معاني الذكر في المعاجم اللغوية ثلاثة أمور:

- الحفظ فيما يقابل النسيان، ومنه سمي القرآن ذكرا؛ لأنه محفوظ بأمر الله ويذكر العباد بأحكام الشرع، الذي تسمو به حياتهم، وينمي الخير في مجتمعهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم، الآية:52].

- الشيء الذي يجري على اللسان ويعيه القلب، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف، الآية:205].

- الشرف والعلاء، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص، الآية:1].

- الذكر اصطلاحا:

المراد بذكر الله في الاصطلاح هو: أن يلهج اللسان بتمجيد الله والثناء عليه بجميع المحامد، ويشمل ذلك قراءة القرآن والتسبيح والتهليل مع استحضار تلك المعاني في القلب[3].

(1) معجم مقاييس اللغة (358/2)، بتصرف.

(2) انظر: لسان العرب (1507/3) مادة (ذكر)، وتاج العروس (377/11- 378)، والقاموس المحيط (ص 396).

(3) قال أبو حيان: «أطلق الذكر على اللسان لدلالته على ذلك، ولما كثر إطلاقه عليه صار هو السابق إلى الفهم، والذي يتبادر إليه الذهن هو الذكر اللساني، وأولاها الأذكار المروية في الآثار والمشار إليها في القرآن». تفسير البحر المحيط (620/1)، باختصار.

قال ابن حجر: «المراد بالذكر الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها مثل الباقيات الصالحات وهي "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة والاستغفار ونحو ذلك والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، ويطلق ذكر الله أيضا ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن وقراءة الحديث ومدارسة العلم والتنفل بالصلاة» [1].

ويقول الراغب: «الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلبَ أو القولَ، ولذلك قيل الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان» [2].

– أقسام الذكر:

الأذكار التي تجري على اللسان نوعان:

1) الأذكار المطلقة: وهي التي ورد الترغيب فيها مطلقا غير مقيدة بزمان ولا مكان. وحكمها البقاء على إطلاقها ولا تخصص إلا بدليل كالتسبيح، والتهليل، والاستغفار.

2) الأذكار المقيدة: هي التي ورد تقيدها بزمن أو مكان أو حال.

– المقيدة بزمن: كأذكار الصباح والمساء.

– المقيدة بمكان: كأذكار دخول المسجد، والمنزل.

– المقيدة بحال: مثل رؤية الهلال، ونزول المطر، وهذه متعلقة بأفعال الخالق. وأخرى لها تعلق بأفعال العبد، مثل الذكر الذي يقال عند الأكل، أو لبس الثوب وغيره.

وهناك من قسم الذكر إلى ثلاثة أقسام[3] باعتبار آخر، وهي:

---

(1) فتح الباري (209/11).

(2) المفردات في غريب القرآن (ص 179).

(3) انظر: مدارج السالكين (149/2)، والوابل الصيب (ص 216 – 220).

- ذكر الأسماء والصفات، ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيد الله بها.

وهذا يشمل الحمد، والثناء، والمجد. فالحمد هو الإخبار عن الله بصفات الكمال والجلال مع المحبة والرضى به، فإذا تكررت المحامد؛ كانت ثناءً، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك؛ كان مجداً. وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة، فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾؛ قال: مجدني عبدي[1].

- ذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام.

ويكون ذلك بالإخبار عمّا يحبه الله وما أمر به، وما يسخطه ونهى عنه، ويتضمن هذا مجالس العلم والتفقه في الدين التي يُعرف بها الحلال والحرام، فهي داخلة في عموم مجالس الذكر.

كما يشمل ذكر الله عند أوامره، للمبادرة إليها والسعي لإقامتها، وأما ذكره عند نهيه، فليجتنبه ويبتعد عنه.

وهذا من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية، فهو من الفقه الأكبر.

- ذكر الآلاء والنعماء والإحسان.

يتضمن ذكر آلائه، وإنعامه، وإحسانه، وأياديه، ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضا من أجل أنواع الذكر.

قال ابن القيم: « الذكر أنواع: الأول: ذكره بأسمائه، وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذِكْرِهِ، ذِكْرُهُ بكلامه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه، الآية:124]، فذكره هنا: كلامه الذي أنزله على رسوله. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد، الآية:28]، ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه »[2].

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة / باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (296/1)، (ح: 395).

(2) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام (ص 530).

- فذكر الله يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده. فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه. الفوائد (ص 186).

- **مراتب الذكر:**

ذكر العلماء أن الذكر على ثلاثة مراتب:

- ذكر باللسان، ويشمل التسبيح والحمد والتمجيد، وتلاوة القرآن.

- ذكر بالقلب، ويكون بالتفكر في عظمة الله وصفاته، والنظر في أسرار مخلوقاته.

- الذكر بالجوارح، باستغراقها في الأعمال المأمورة بها، واجتنابها الأعمال المنهي عنها [1].

قال الشيخ ابن عثيمين[2] : « وليعلم أن ذكر الله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح، أما القلب فهو التفكر، ذكر الله تعالى بالقلب أن يتفكر الإنسان في أسماء الله وصفاته وأحكامه وأفعاله وآياته، وأما الذكر باللسان فظاهر، ويشمل كل قول يقرب إلى الله عز وجل من التهليل والتسبيح والتكبير وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقراءة السنة وقراءة العلم كل قول يقرب إلى الله فهو ذكر لله عز وجل . وأما ذكر الله بالأفعال فهو ذكر الله بالجوارح، فهو كل فعل يقرب إلى الله كالقيام في الصلاة والركوع والسجود والقعود، وغير ذلك، لكن يطلق عرفا على ذكر الله تعالى: التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل» [3].

ونقل ابن حجر عن الفخر الرازي: « أنَّ المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد، والذكر بالقلب التفكر في أدلة الذات والصفات وفي أدلة التكاليف من الأمر والنهي حتى يطلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات الله. والذكر بالجوارح هو أن تصير مستغرقة في الطاعات، ومن ثم سمى الله الصلاة ذكرا فقال: "فاسعوا إلى ذكر الله" ونقل عن بعض العارفين قال: الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء» [4].

---

(1) انظر: تفسير البحر المحيط (1/619- 620). (2) ستأتي ترجمته في (ص 295).

(3) شرح رياض الصالحين (3/444).

(4) انظر: فتح الباري (11/209).

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « الناس في الذكر أربع طبقات.

إحداها: الذكر بالقلب واللسان، وهو المأمور به.

الثاني: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فترك للأفضل.

الثالث: الذكر باللسان فقط، وهو كون لسانه رطبًا بذكر الله، يقول الله تعالى: " أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ." (رواه أحمد ح: 10976).

الرابع: عدم الأمرين وهو حال الخاسرين ». مجموع الفتاوى (10/320).

قال ابن حجر: ((الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالا، فإن وقع ذلك في عمل صالح من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالا، فإن صحح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال)) [1].

ويقول ابن القيم: ((الذكر يكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر.

وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية.

وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة.

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان. وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويزع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا من ذلك الإثمار، وإن أثمر منها فثمرته ضعيفة)) [2].

– حديث القرآن عن الذكر:

جاء الذكر في القرآن الكريم على عشرة أوجه[3]:

الأول: الأمر به مطلقا ومقيدا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب، الآيتين:41– 42]

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف، الآية:205].

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة، الآية:10].

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعده الله لهم من الجنة والمغفرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب، الآية: 35].

---

(1) فتح الباري (11/209)، باختصار.

(2) الوابل الصيب (ص 221).

(3) انظر: مدارج السالكين (2/144– 145). وقد أوصلها ابن الجوزي إلى عشرين وجها، انظر: نزهة الأعين النواظر (ص 302).

الخامس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له، كقوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة، الآية:152].

السادس: الإخبار بخسران من لهىٰ عنه بغيره كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون، الآية:9].

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت، الآية:45].

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها، فختم به الحج كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَـٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة، الآية:200]، **وختم به الصلاة، قال تعالى:** ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء، الآية:103].

التاسع: الإخبار عن أهله أنهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولو الألباب دون غيرهم، قال تعالى:
إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران، الآيتين: 190– 191].

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال وروحها، فقد قرنه بالصلاة قال تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه، الآية:14]، **وكذلك قرنه بالصيام والحج وغيرهما.**

– منزلة الذكر:

إنّ للذكر مكانة مرموقة، ودرجة عالية، ومرتبة منيفة في شرع الله تعالى إذ هو من أجلِّ المقاصد وأنفع الأعمال المقرّبة إلى الله تعالى، وقد أمر الله به في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ورغّب فيه، ومدح أهله وأثنى عليهم أحسن الثناء وأطيبه، وقد وردت ألفاظ الذكر في القرآن في نحو مائتي موضع مختلفة الاشتقاق بمعان متنوعة.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب، الآية:41]، **وقال عز وجل:** ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[آل عمران، الآية:191]، **وقال تعالى:** ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[الأحزاب، الآية:35]، **فأمر تعالى في هذه الآيات بالإكثار من ذكره، وذلك لشدّة حاجة العبد إلى ذلك وافتقاره إليه أعظم الافتقار، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.**

بل قال رسول ﷺ: « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» [1]، وفيه حثٌّ على ذكر الله عز وجل لأنه يُكسب الحياة ذاتيتها وأصالتها، ويجعلها شيئاً ذا قيمة عظيمة ويخرج الإنسان إلى عالم الأحياء، فكم من حي لا يذكر الله هو من الأموات، وكم من ميت كان لله ذاكراً هو من الأحياء؛ ولهذا كان ذكر الله من أفضل العبادات وأجلّها على الإطلاق؛ فهذه شعائر الدين العظيمة لم تفرض إلا من أجل إقامة ذكر الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه، الآية:14]، قال السعدي: « وقوله ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أَجَلُّ المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصا الصلاة» [2].اهـ

وكذلك الحج إنما شرع لذكر الله قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج، الآية:34]، وقال ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ رَمْيُ الْجِمَارِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، لإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ» [3]، وحتى في فريضة الصوم، فهو شهر القرآن والذكر، قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾

– قال ابن القيّم: « إنّ أفضل أهل كلّ عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرهم ذكرًا لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدّقين أكثرهم ذكرًا لله عز وجل، وأفضلُ الحجّاج أكثرهم ذكرًا لله عز وجل، وهكذا سائر الأعمال» [4]، ثم ساق الحديث الذي رواه أحمد: أنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أيُّ الجهاد أعظمُ أجراً ؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا». فقال: فأيُّ الصّائمين أعظم أجراً؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا»، ثمّ ذكر الصّلاة، والزكاة، والحجّ، والصّدقة، كلُّ ذلك رسول الله ﷺ يقول: «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لِعُمَرَ رضي الله عنه : يَا أَبَا حَفْصٍ، ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلْ» [5].

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الدعوات / باب فضل ذكر الله عز وجل (173/4)، (ح: 6407)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (2/ 729)، (ح: 1053).
انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (149/1).

(2) تفسير السعدي (ص 503).

(3) أخرجه الترمذي: كتاب الحج / باب كيف ترمى الجمار (237/3)، (ح: 902)، وقال: حديث حسن صحيح. والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص 98)، (ح: 902).

(4) الوابل الصيب (ص 181– 182).

(5) مسند الإمام أحمد (380/24)، (ح: 15614)، بإسناد ضعيف. وأرده الهيثمي في«مجمع الزوائد» (71/10)، وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه زبان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وثق، وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات.اهـ قلتُ: ذكر الدكتور عبد الرزاق البدر أنَّ له شاهدين، وقال: فالحديث بشاهديه صالح للاحتجاج إن شاء الله، ومعناه الذي دلَّ عليه حق لا ريب في صحته. انظر: فقه الأدعية والأذكار (36/1).

لذلك كان لزاما على كل عاقل من عباد الله المسلمين أن يجعل له من هذه الأذكار النبوية حصنا حصينا، ويتخذ له منها زادا ليوم الدين، وأن يجعل لسانه رطبا بها في كل وقت وحين، اقتداء بسيد الخلق وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى الأنبياء والرسل أجمعين فقد كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده، ذكرا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته ذكرا منه له، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه، فكان ذاكرا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائما وقاعدا وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه ومسيره،ونزوله وظعنه وإقامته، في ليله ونهاره، وسره وإعلانه، وعند الخاصة والعامة وغير ذلك من أحواله ﷺ [1].

فمن واظب على الأذكار المأثورة والأدعية المشروعة في الأوقات المتنوعة والأحوال المختلفة على ضوء ما ورد في الكتاب والسنة كتب من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات الذين أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما [2].

كما أن للذكر أثرا كبيرا على سلوك المؤمن في هذه الحياة الدنيا، فهو يصل العبد بربه ويجعله يحلق في آفاق عالية من الطهر والصفاء، فينعم بالقرب والحب والأنس فينعكس ذلك عليه بتزكية نفسه وتهذيب أخلاقه واستقامة سلوكه واستنارة بصيرته، وحسن سيرة؛ فللذكر يؤثر على القلب، ويشغله بما ينفعه ويصلح تعبده، وينتهي عما يغضب الرب تبارك وتعالى؛ فتصلح الجوارح بعد ذلك، فلا نظر إلا فيما يرضي الله، ولا سمع إلا لما يحبه الله، ولا مشي إلا لمراضي الله، ولا بطش إلا لله؛ فيكون العبد لله وبالله، وتنفتح له أبواب الخيرات من الفضائل والعبادات، وتوصد دونه أبواب الشر والمنكرات.

– قال ابن القيم: ((الذكر شجرة تثمر المعارفَ والأحوال التي شمَّر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلاَّ من شجرة الذِّكر، وكلَّما عظمت تلك الشجرةُ ورسخ أصلُها كان أعظمَ لثمرها، فالذِّكر يُثمرُ المقاماتِ كلَّها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كلِّ مقام، وقاعدتُه التي يُبنَى ذلك المقامُ عليها، كما يُبنَى الحائط على أُسِّه، وكما يقوم السَّقفُ على حائطه)) [3].

---

(1) زاد المعاد (365/2)، بتصرف.

(2) ورد في سنن أبي داود من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: ((إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ)). (ح: 1309)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح: 6030). قال مجاهد: ((لا يكون من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات حتّى يذكر الله قائما وقاعدًا ومضطجعًا".وقال عطاء: "من صلّى الصّلوات الخمس بحقوقها فهو داخلٌ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: ((المراد يذكرون الله في أدبار الصّلوات وغدوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلّما استيقظ من نومه، وكلّما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى)). وقد سُئل أبو عمرو بن الصّلاح عن القَدْر الذي يصير به العبد من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات فقال: ((إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحًا ومساءً في الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهارًا، وهي مبيّنة في كتاب عمل اليوم والليلة، كان من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات)) . انظر هذه الآثار في الأذكار للنووي (ص 7).

(3) الوابل الصيب (ص 157).

أفضل الذكر:

لا شك أنّ أفضل الذكر مطلقا هو القرآن الكريم كلام رب العالمين، فهو خيرُ الكلام وأحسنُه وأصدقُه وأنفعُه، وهو وحي الله وتنزيلُه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى على أفضل رسول، على عبده ومصطفاه وخيرته من خلقه محمّد ﷺ.

لذلك كانت تلاوة القرآن بتدبر وتفهم لمعانيه ومقاصده من أعظم ما يتقرب به العبد إلى مولاه، ومن أنفع الأعمال التي تزكوا بها النفوس، وتطمئن بها القلوب، وتنشرح بها الصدور، وتعظم بها الأجور.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ **[الرعد، الآية:28].**

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾

[فاطر، الآية:29– 30].

– قال ابن القيم: « فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبّر والتفكّر فإنَّه جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مرّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرّرها ولو مائة مرّة ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكّرٍ وتفهّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبّر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن » [1].

ثم تأتي بعد ذلك الأذكار النبوية الجامعة التي دوام عليها المصطفى ﷺ وحث أمته على الإكثار من ترديدها، وهذه طائفة منها:

قال عليه السلام: « أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ – وَهِيَ مِنْ الْقُرْآنِ – لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» [2]، وقال ﷺ:« أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» [3].

---

(1) مفتاح دار السعادة (553/1).

(2) مسند الإمام أحمد (375/33)، (ح: 20223)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط. وهذه هي الباقيات الصالحات. انظر: صحيح الجامع الصغير (612/1) (ح: 3214)

(3) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات / باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (462/5)، (ح: 3383)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (389/3).

وقال ﷺ : ((خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [1].

آداب الذكر:

قال الإمام النووي[2]: ((ينبغي أن يكون الذكر على أكمل الصفات، وأن يجلس متذللا متخشعا بسكينة ووقار مطرقا رأسه، وأن يكون الموضع الذي يذكر الله فيه خاليا نظيفا، ولهذا مُدِح الذكر في المساجد والأماكن الشريفة، وأن يكون فمه نظيفا، فإن كان فيه تغير أزاله بالسواك وغيره، وإن كان فيه نجاسة أزالها بالماء، والذكر محبوب في جميع الأحوال، إلا ما ورد الشرع باستثنائها منها: عند الجلوس على قضاء الحاجة، وفي حالة الجماع، وفي حالة الخطبة لمن يسمع صوت الخطيب، وفي القيام في الصلاة لأن عليه الاشتغال بالقراءة، وفي حالة النعاس)) [3].

من ثمرات الذكر:

إنّ الآيات والأحاديث الدّالة على فضل الذِّكر، ورفيع قدره، وعلوِّ مكانته، وكثرةِ عوائده ومنافعه على الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات، قد بلغت حد التواتر، وهي كثيرة يطول حصرها، وفيما يلي: بعض ثمرات الذكر حاولت اختصارها على قدر الإمكان. [4]

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات / باب في دعاء يوم عرفة (5/572)، (ح: 3585)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (3/472).

(2) محي الدين أبو زكريا، يحي بن شرف بن مري بن حسن، الإمام العلامة الحافظ الفقيه الشافعي، الدمشقي، النواوي، ولد سنة 631هـ.
لزم الاشتغال بالعلوم منذ صغره حتى بزغ نجمه وتفوق على أقرانه، وصار إمام الشافعية في عصره ، وهو محقق المذهب ومنقحه، صاحب التصانيف النافعة، من أشهرها: ((شرح صحيح مسلم))، و((المجموع شرح المهذب))، و((رياض الصالحين))، و((الأذكار))، توفي سنة 676هـ.
((انظر: شذرات الذهب (7/618)، وتذكرة الحفاظ (4/1470))).

(3) انظر: الأذكار للنووي (ص 8– 9).

(4) من أحسن المصنفات في هذا الباب، كتاب((الوابل الصيِّب من الكَلِمِ الطيِّب))، للعلامة ابن القيم، فقد جمع أطرافه ولمّ شتاته، وأحصى فيه أكثر من سبعين فائدة للذكر، كلُّ واحدة منها بمفردها كافيةٌ لحفز النُّفوس وتحريك الهِمم للاشتغال بالذِّكر.

قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة، الآية: 152]، وفي الحديث قال ﷺ : ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)) [1].

فلو لم يكن في الذّكر إلاّ هذه الخصلة الواحدة؛ لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتُرَ لسانُه من ذكر الله تعالى.

قال أهل المعاني: ((معناه: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب، وقيل: اذكروني في الرخاء بالطاعة والدعاء، أذكركم في البلاء بالعطية والنعماء ، وقيل: اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال، أو اذكروني بالتوبة أذكركم بالعفو عن الحوبة، أو اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة، أو اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات، أو اذكروني بمحامدي أذكركم بهدايتي، أو اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص، أو اذكروني بالموافقات أذكركم بالكرامات، أو اذكروني بترك كل حظ أذكركم بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم، أو اذكروني بقطع العلائق أذكركم بنعت الحقائق، أو اذكروني لمن لقيتموه أذكركم لكل من خاطبته، أو اذكروني بالتذلل أذكركم بالتفضل، أو اذكروني بقلوبكم أذكركم بتحقيق مطلوبكم، أو اذكروني على الباب من حيث الخدمة أذكركم على بساط القرب بإكمال النعمة، أو اذكروني بتصفية السر أذكركم بتوفية البر، أو اذكروني في حال سروركم أذكركم في قبوركم، أو اذكروني وأنتم بوصف السلامة أذكركم يوم القيامة يوم لا تنفع الندامة، أو اذكروني بالرهبة أذكركم بالرغبة، أو اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي، أو اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، أو اذكروني بالقلوب أذكركم بغفران الذنوب، أو اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء، أو اذكروني بالتوحيد والإيمان أذكركم بالجنان والرضوان)) [2].

ومن فوائده: أنّه يحطُّ الخطايا ويمحيها، كما يرفع الدرجات وينميها. قال ﷺ : ((مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا، قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)) [3].

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ (173/4)، (ح: 6407)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء / باب الحث على ذكر الله تعالى (4/ 2060)، (ح: 2675).

انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (219/3).

(2) انظر: تفسير البحر المحيط (619/1)، ولباب التأويل، للخازن (102/1).

(3) مسند الإمام أحمد (396/36)، (ح: 22079)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (986/2) (ح: 5644).

وقال ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟». قَالُوا بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»[1].

قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت، الآية:45]، فذِكرُ الله تعالى هو أفضل الأعمال، وهو أكبر من كلّ شيء؛ لاشتماله على غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، وفيه من الخير والنفع والبركة والفوائد الحميدة والنتائج العظيمة ما لا يمكن أن يحيط به إنسان أو يعبر عنه لسان، فالله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، ملءَ سمواتِه، وملءَ أرضِه، وملءَ ما بينهما، وملء ما شاء من شيء بعد، لا ينقطع ولا يبيد ولا يفنى، عدد ما حمده الحامدون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون، عدد خلقه ورضا نفسه وزِنة عرشه ومِدادَ كلماته.

ذكر الله تعالى سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

علق الفلاح بالذكر في أربعة مواضع من القرآن:

- قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف، الآية:69].

وردت الآية الكريمة في سياق دعوة النبي هود ﷺ لقومه عاد المعروفين بقوة الأجسام وشدة البأس؛ لتذكيرهم بنعم الله عليهم، لأنّ النّفس تنسى النّعم فتكفر المنعم، فإذا تذكّرت النّعمة رأتْ حقاً عليها أن تشكر المنعم بالأقوال والأفعال، ورتب على ذلك رجاء الفلاح، وبذلك تحصل النجاة، ويدرك الفوز بالبقاء والخلود في النعيم[2].

- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال، الآية:45]، في هذه الآية نداء للمؤمنين، وهو في إرشادهم إلى أسباب النصر على الأعداء، وذلك بالثبات والصمود، والإكثار من ذكر الله، باللسان تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً ودعاء وتضرعا،

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات / باب منه (459/5)، (ح: 3377)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (386/3).
(2) انظر: التحرير والتنوير (204/8– 205)، وتفسير المراغي (194/8).

وبالقلوب يقينا وإيمانا بقدرة الله ووعده بنصر رسله والمؤمنين، وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى في أضيق الأوقات، وهو وقت التحام السيوف والرماح الذي يقع فيه الذهول عن كل شيء؛ دليل واضح على فضل الذكر وأهميته، وفيه إشعار بأنّه ينبغي على العبد أن لا يفتر عن ذكر الله على كل حال.

وختمت الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: تفوزون بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، بعد النجاة من الهزيمة والمذلة في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة[1].

– قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الجمعة، الآية:9– 10].

يخاطب الله عز وجل في هذه الآية المؤمنين دون الكافرين تشريفا لهم وتكريما، وأمرهم بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العدو المنهي عنه عند المضي إلى الصلاة، ونهاهم عن الاشتغال بالبيع، كي لا تفوتهم الفريضة، لأنّ ما عند الله خير وأبقى، فمن آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، فإذا أدوا الصلاة أباح لهم السعي فيما يصلح معاشهم من طلب المكاسب والتماس الرزق.

ولما كان الاشتغال في التجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾[2] في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، وحثهم على ذكره بالحمد له، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه، وقال: ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾؛ فإن الإكثار من ذكر الله، أكبر أسباب الفلاح، والفوز بخيري الدارين[3].

---

(1) انظر: أيسر التفاسير (314/2)، وتفسير البحر المحيط (498/4).

(2) قال الرازي: "الفرق بين ذكر الله أولاً وذكر الله ثانياً، أنّ الأول: من جملة مالا يجتمع مع التجارة أصلاً؛ إذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مر، والثاني: من جملة ما يجتمع كما في قوله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور، الآية: 37]".
مفاتيح الغيب (10/30).

(3) انظر: تفسير السعدي (ص 863)، وفتح القدير (ص 1492).

قال السيد قطب[1]: ((هذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي. فالتوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض من عمل وكد ونشاط وكسب، وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو، وانقطاع القلب وتجرده للذكر؛ هو ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها؛ للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى، وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة؛ ولكنه مع هذا لا بد من فترة للذكر الخالص، والانقطاع الكامل، والتجرد الممحض. كما توحي هاتان الآيتان)) [2].

– قال الله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى، الآية:14– 15].

يخبر المولى سبحانه بفلاح العبد المؤمن الذي زكى نفسه بالإيمان وصالح الأعمال، وطهرها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، المتصف بذكر الله، الذي انصبغ قلبه بذكر اسم ربّه على جميع أحواله، وفي كل أوقاته؛ فهذا الصنف من الناس قد جُمعت لهم أنواع الخير في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ﴾؛ فإنّ الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه، فهو يجمع معنيي الفوز والنجاة، وذلك هو الظفر بأسنى المطالب وغاية المقاصد من الخير؛ بتحقيق الفلاح في دنياه، والعيش موصولاً بربه، حي القلب، شاعراً بحلاوة الذكر وإيناسه، ومفلحا في أخراه، ناجياً من النار الكبرى، وفائزاً بالنعيم والرضى[3].

---

(1) سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري ولد بأسيوط سنة 1324هـ (1906 م) تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة)، وشغل مناصب متعددة في الصحافة والتعليم، ابتعث للدراسة في أمريكا، ولما عاد انتقد البرامج المصرية، وطالب ببرامج تتفق مع الشريعة الإسلامية. انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين واشتهر بآرائه المصادمة للأنظمة الحاكمة، سجن مرارا إلى أن صدر الحكم بإعدامه، ونفذ سنة 1387هـ (1967 م)، من أشهر مؤلفاته التي كتب جلها وهو مسجون: ((السلام العالمي والاسلام))، و((المستقبل لهذا الدين))، و((في ظلال القرآن))، و((معالم في الطريق)). ((انظر: الأعلام، للزركلي (3/147))).

(2) في ظلال القرآن (6/3570).

(3) انظر: التحرير والتنوير (30/287)، وتفسير الظلال (6/3894).

من فوائد الذكر التي ارتبطت بالفلاح عند ابن القيم، ما جاء في كتابه الماتع الوابل الصيب:

الفائدة السادسة والثلاثون:

« الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ **[الأنعام، الآية:122]، فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته.**

والشأن كل الشأن، والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته» [1].

الفائدة الخمسون:

« الذكر يوجب صلاة الله عز و جل وملائكته على الذاكر. ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ **[الأحزاب، الآيات: من 41 إلى 43] فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي على الذاكرين الله كثيرا، وهذه الصلاة منه ومن ملائكته هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوا من الظلمات إلى النور فأي خير لم يحصل لهم بذلك ؟! وأي شر لم يندفع عنهم ؟!**

فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله! » [2].

---

(1) الوابل الصيب (ص **114**).

(2) المصدر نفسه (ص **174**).



المطلب الخامس: التوبة.

التوبة: لغة

مصدر تاب يتوب، وهو مأخوذ من مادّة (ت و ب) التي تدل على الرجوع، يقال: تابَ مِنْ ذنبه، أي: رَجَعَ عنه. يتوب إلى الله تَوبةً ومَتاباً، فهو تائب. والتَّوْبُ جمع تَوْبةٍ، قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر، الآية:3] [1].

فأصل تَابَ: عاد إلى الله ورَجَعَ وأَنَابَ، وتاب الله عليه، أي: عَاد بالمغفرة، أو وَفَّقَهُ للتوبة أو رَجَعَ به مِن التَّشْديد إِلى التَّخْفِيف، أَوْ رجَع عليه بفَضْلِه وقَبُولِه، وكلها معان صحيحة وَارِدَةٌ[2].

فالتوبة من الله على عباده: الرجوع بهم من المعصية إلى الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة، الآية:54]. وقد يكون الرجوع بهم من الحظر إلى الإباحة كقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة، الآية:187]، أي أباح لكم ما حظره. وقد يكون من الأثقل إلى الأخف، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل، الآية:20]. والتائب يقال لباذل التوبة، ولقابل التوبة؛ فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده، والتوّاب صيغة مبالغة يوصف بها الله تعالى لكثرة قبوله توبة عباده، قال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة، الآية:160] [3].

التوبة: اصطلاحا

قال الجرجاني: ((التوبة الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب، وقيل: هي الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة، وقيل: التوبة الإعراض والندم والإقلاع)) [4].

وقال الراغب: ((التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة)) [5].

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة (357/1)، ولسان العرب (454/1).

(2) تاج العروس (78/2).

(3) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (270/1)، والمفردات في غريب القرآن (ص 76).

(4) التعريفات (ص 95).

(5) المفردات في غريب القرآن (ص 76).

حقيقة التوبة:

تتمثل حقيقة التوبة في رجوع العبد من حالة العصيان إلى حالة الطاعة، مع الندم على التقصير والعزم على تدارك ما فاته من الخير.

قال الطاهر بن عاشور: « لما كانت التوبة رجوعا من التائب إلى الطاعة، ونبذا للعصيان، وكان قبولها رجوعا من المتوب إليه إلى الرضى، وحسن المعاملة، وصف بذلك رجوع العاصي عن العصيان ورجوع المعصي عن العقاب، فقالوا: تاب فلان لله فتاب عليه.

والتوبة تتركب من علم وحال وعمل، فالعلم هو معرفة الذنب، والحال هو تألم النفس من ذلك الضرر ويسمى ندماً، والعمل هو الترك للإثم وتدارك ما يمكن تداركه، وهو المقصود من التوبة.

وأما الندم فهو الباعث على العمل ولذلك ورد في الحديث: "النَّدَمُ تَوْبَةٌ"[1] »[2].

وقال ابن القيم: « حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره. فهي رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر؛ ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور، الآية:31] »[3].

التوبة النصوح:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم ، الآية:8].

قال القرطبي: «اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا ...، وأصل التوبة النصوح من الخلوص؛ يقال: هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع. وقيل: هي مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة. وفي أخذها منها وجهان: أحدهما: لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه. والثاني: لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم؛ كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه ببعض» [4].

---

(1) مسند الإمام أحمد (37/6)، (ح: 3568)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (1150/2) (ح: 6802).

(2) التحرير والتنوير (438/1)، باختصار.

(3) مدارج السالكين (258/1).

(4) الجامع لأحكام القرآن (96/21– 99).

قال الجرجاني: « التوبة النصوح هي توثيق العزم على ألا يعود لمثله. وقيل ألا يبقي التائب على عمله أثرا من المعصية سرا وجهرا، وهذه هي التوبة التي تورث صاحبها الفلاح عاجلا وآجلا» [1].

وقيل: « هي رجوع العبد إلى الله وحده لا شريك له من ذنب سبق اقترافه قصدا أو جهلا رجوعا صادقا خالصا محكما موثقا بطاعات ترقى بالعبد إلى مقامات أولياء الله المتقين وتحول بينه وبين سبل الشيطان» [2].

وقيل: «التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان» [3].

والنصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه، وحرمته، ومنصبه، ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز و جل[4].

من معاني التوبة في القرآن الكريم:

التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه[5]:

الأول: بمعنى النّدم، كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة، الآية:54]، وقوله: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النور، الآية:31]، ونحوه.

---

(1) التعريفات (ص 95).

(2) التوبة النصوح في ضوء القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة (ص 6).

(3) الجامع لأحكام القرآن (97/21).

(4) مدارج السالكين (261/1).

(5) الوجوه والنظائر، للدامغاني (ص 136– 137).

الثاني: بمعنى التجاوز، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ **[التوبة، الآية:117]، وقوله:** ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ **[الأحزاب، الآية:73]، يعني: يتجاوز.**

الثالث: بمعنى الرجوع عن الشيء، قال تعالى على لسان موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ **[الأعراف، الآية:143]، يعني: رجعت عن سؤالي الرؤية.**

حكم التوبة ومستوياتها:

التوبة من المعاصي والذنوب واجبة فورا على كل عين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **[النور، الآية:31]، وقال سبحانه:** ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **[الحجرات، الآية:11]، فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا قسم ثالث غيرهما. وقال ﷺ : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»** [1].

قال الإمام النووي: « قد تظاهرت دلائل الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة على وجوب التوبة» [2].

ولا يجوز تأخيرها لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **[النساء، الآيتين:17- 18].**

وأعظم التوبة وأوجبها: التوبة من الكفر إلى الإيمان، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ **[الأنفال، الآية:38]، ثم يليها التوبة من كبائر الذنوب، وبعدها الصغائر.**

- قال ابن القيم: « لا يستحق العبد اسم التائب حتى يتخلص منها أجناس المحرمات المذكورة في كتاب الله عز و جل، و هي: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين. فهذه الاثنا عشر جنسا عليها مدار

---

(1) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء / باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (2075/4)، (ح: 2702).

(2) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين (60/1).

كل ما حرم الله، وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها. وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلم، فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها)) [1].

والتوبة على مستويات متفاوتة؛ لاختلاف أسبابها من المعاصي والذنوب، أو المخالفات والتقصيرات، أو الغفلات، واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله والتفكر فيه.

فمنها: التوبة من الكفر والشرك، وهي توبة ترفع إلى مستوى الإيمان.

وفوقها التوبة من الكبائر، وهي توبة ترفع إلى بعض درجات التقوى.

وفوقها التوبة من الصغائر، وهي ترفع إلى أعلى درجات التقوى.

وفوقها التوبة من المكروهات وترك المندوبات، وهي توبة ترفع إلى درجات البر.

وفوقها التوبة من التقصيرات عن درجات الكمال الإنساني في السلوك، وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات الإحسان.

وفوقها التوبة من الغفلات عن الله والاشتغال بغير مراقبته والتفكر فيه، وهي توبة ترفع إلى مرتبة المقربين.

ولهذه المستويات درجات يرتقي فيها التائبون بحسب ما يكون منهم من توبة إلى الله.

وتوبة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من مستوى التوبة العليا، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيرهم عن بلوغ أعلى درجاتها، فكلما وجدوا من أنفسهم أي تقصير ينزل بهم عن المرتقى الرفيع الذي ينشدونه تابوا إلى الله واستغفروا وأنابوا، ولذلك ثبت أن رسول ﷺ كان يستغفر الله ويتوب إليه في كل يوم أكثر من سبعين مرة [2].

شروط التوبة [3]:

ذكر أكثر الفقهاء والمفسرين أنّ للتوبة أربعة شروط على سبيل الإجمال، وهي:

- الإقلاع عن المعصية حالا.
- النَّدم على فعلها في الماضي.
- العزْمُ عزما جازما أن لا يعود إلى مثلها أبدًا.
- ردّ المظالم إلى أهلها أو تحصيل البراءة منهم؛ إن كانت المعصية تتعلق بحقّ آدمي.

---

(1) مدارج السالكين (282/1).

(2) الأخلاق الإسلامية وأسسها (690/1).

(3) انظر: الموسوعة الفقهية (120/14)، ومدارج السالكين (165/1).

ومنهم من اعتبر أن للتوبة خمسة شروط[1]، وهي:

- الشرط الأول: الإخلاص لله، بأن يكون قصد الإنسان بتوبته وجه الله عز وجل حتى يتوب الله عليه، ويتجاوز عما فعل من المعصية لا يقصد بذلك مراءة الناس والتقرب إليهم، ولا يقصد بذلك دفع الأذية من السلطان وولي الأمر. وإنما يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة وأن يعفو الله عن ذنوبه.
- الشرط الثاني: الندم على ما فعل من المعصية لأن شعور الإنسان بالندم هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة، بمعنى أن يتحسر على ما سبق منه، وينكسر من أجله ولا يرى أنه في حل منه حتى يتوب منه إلى الله .
- الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب الذي هو فيه وهذا من أهم شروطه، والإقلاع عن الذنب يجب أن يكون على الفورية، فإن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع عنه بفعله مثل أن يكون شخص لا يزكي فأراد أن يتوب إلى الله فلابد من أن يخرج الزكاة التي مضت ولم يؤدها، إذا كان الإنسان مقصراً في بر الوالدين فإنه يجب عليه أن يقوم ببرهما، إذا كان مقصراً في صلة الرحم فإنه يجب عليه أن يصل الرحم وإن كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يقلع عنه فوراً ولا يبقى فيه ولا لحظة .

والذنب إن كان له متعلقا بحق الله عز وجل، فهذا يكفي فيه التوبة بين العبد وربه، وأمّا إذا تعلق بحقوق الناس؛ فيلزم أداء الحقوق لأصحابها مع طلب الصفح والمسامحة.

- الشرط الرابع: فهو العزم الأكيد على عدم العودة للذنب في المستقبل.
- الشرط الخامس: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة وذلك على نوعين:

النوع الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه، فلابد أن تكون التوبة قبل حلول الأجل لقوله تعالى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء، الآية: 18]، قال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ؛ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ »[2]. أي: ما لم تبلغ روحه الحلقوم، وهو كناية عن آخر رمق الإنسان؛ فمن عاين الموت وحضره الأجل فهذا يئس من الحياة، وعرف أنه لا بقاء له، فيتوب اضطرارا؛ و عندئذ تكون توبته في غير محلها، فلا تنفعه ولا تقبل منه.

---

(1) انظر: شرح رياض الصالحين (61/1 وما بعدها).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات / باب في فضل التوبة والاستغفار (547/5)، (ح: 3537)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (454/3).

النوع الثاني: باعتبار العموم، ويكون قبل طلوع الشمس من مغربها.

قال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ لاَ يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام، الآية: 158] »[1].

وقد خيّر ربنا تبارك وتعالى رسولَهُ الكريم عليه السلام بأن يجعل جبل الصَّفا ذهبا أو يفتح التَّوبة والرحمة، فاختار النبي ﷺ الرؤوف بأمته الرحيم بأتباعه باب التوبة والرحمة، فعن ابن عباس[2] رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ. قَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»[3].

ما يعين على التوبة:

قال القرطبي: «قال علماؤنا: الباعث على التوبة وحل الإصرار: إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة، ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار، وتهدد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه، فدعا الله رغبا ورهبا؛ والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب، ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب»[4].

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات / باب في فضل التوبة والاستغفار (546/5)، (ح: 3536)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (453/3).

(2) هو الصحابي الجليل، حبر الأمة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشي الهاشمي: يكنى بأبي العباس، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وبنو هاشم محاصرون بشعب مكة، مات رضي الله عنه بالطائف سنة 68هـ، في أيام ابن الزبير.
« انظر: الاستيعاب (ص 423)، والإصابة (90/4) ».

(3) مسند الإمام أحمد (60/4)، (ح: 2166)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1185/7) (ح: 3388).

(4) الجامع لأحكام القرآن (326/5).

أهمية التوبة ومنزلتها:

لقد أولى القرآن الكريم اهتماما كبيرا بموضوع التوبة حيث ورد ذكرها في أكثر من أربعين موضعا منه؛ وفي هذا دليل واضح على أنها من أشرف مراتب العبودية، ولا ينفك عنها المؤمن بأي حال من الأحوال؛ وذلك لأنه من طبيعة البشر التقصير والغفلة والنسيان، والميل إلى الشهوات والعصيان، والعبد مهما احترز فلا بد له من غفلة تنسيه، أو شهوة تستهويه، أو غضب يعميه؛ قال ﷺ : «وَالذي نَفسي بيدهِ، لَوْ لَمْ تُذنِبُوا لَذَهَبَ الله بكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[1]، وقال عليه السلام : «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[2]، فكان من رحمة الله تبارك وتعالى أن فتح لعباده باب التوبة والندم، بل من أسماء الله الحسنى: التواب، والغفور، والعفو، فلمحبته التوبة والمغفرة والعفو والصفح؛ خلق من يغفر له، ويتوب عليه، ويعف عنه، فقدَّرَ على عباده ما يقتضي وقوعهم في المكروه؛ حتى ينيبوا إليه، وينطرحوا ببابه؛ لطلب غفرانه، ويلوذون بجنابه؛ للنجاة من عقابه، والفوز بمرضاته.

فكم من عبد يصيب ذنبا فلا يزال نصب عينيه، خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما، مستحيا من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة؛ بما ترتب عليه من الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ومنهم من يفعل الحسنة فلا يزال يَمُنُّ بها على ربه، ويتكبر بها، ويرى نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول فَعَلتُ، وفَعَلتُ؛ فيورثه من العجب والكبر، والفخر والاستطالة، ما يكون سبب هلاكه.

فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجوء إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها، وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه، وإحسانه، ورحمته، وجوده، وبره، وغناه، وحمده.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار، والافتقار والتوبة في كل وقت، فيتيقن العبد احتياجه إلى ربه عز و جل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأنَّ في كل ذرة من ذرَّاتِه الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك، وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يتوب الله تعالى عليه ويتداركه برحمته[3].

---

(1) صحيح مسلم: كتاب التوبة / باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (2106/4)، (ح: 2749).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (659/4)، (ح: 2499)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (604/2).

(3) انظر: الوابل الصيب (ص 8 وما بعدها).

– قال ابن القيم: «التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، فإن التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا.
ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها، وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علما وعملا وحالا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها» [1].

من ثمرات التوبة في الكتاب والسنة:

– التوبة تَجُبُّ ما قبلها، وسبب في تبديل السيئات حسنات:

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان، الآية: 70].

وفي الحديث أنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ رَجُلا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا فلم يَتْرُكْ منها شيئا وهو في ذلك لم يَتْرُكْ حَاجَةً وَلا دَاجَةً إلا أَتَاهَا فَهَلْ له من تَوْبَةٍ؟ قال: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟» قال: أَمَّا أنا فَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأَنَّكَ رسول اللَّهِ، قال: «نَعَمْ تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ؛ فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ». قال: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قال: «نَعَمْ». قال: اللَّهُ أَكْبَرُ! فما زَالَ يُكَبِّرُ حتى تَوَارَى [2].

– التوبة مطهرة للقلب ممحاة للذنب مرضاة للرب:

قال ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ؛

---

(1) مدارج السالكين (1/258– 259).

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير (7/375)، (ح: 7235)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (7/1162)، (ح: 3391).

سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ؛ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين، الآية: 14] ›› (1).

وقال ﷺ : ‹‹ قَالَ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ؛ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً›› (2).

– التوبة سبب للحياة الدنيا الهادئة المطمئنة، وتثمر بركات السماء والأرض:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود، الآية: 3].

وقال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود، الآية: 52].

– فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده، واستغفار الملائكة للتائبين:

قال ﷺ : ‹‹ لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ›› (3).

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر، الآية: 7].

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن / باب ‹‹ ومن سورة وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ›› (434/5)، (ح: 3334)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (364/3).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات / باب فضل التوبة والاستغفار (548/5)، (ح: 3540)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (455/3).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات / باب التوبة (154/4)، (ح: 6308). و مسلم في كتاب التوبة / باب في الحض على التوبة والفرح بها (2104/4)، (ح: 2747)، واللفظ لمسلم.

- **محبة الله تبارك وتعالى للتوابين:**

قال جل جلاله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ **[البقرة، الآية: 222].**

فالله تعالى يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصي والآثام، ويرضى عنهم في الدنيا والآخرة[1].

التوبة إلى الله سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

- **قال الله تعالى:** ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ **[النور، الآية: 30- 31].**

لقد وردت هاتين الآيتين من سورة النور التي اهتمت ببيان الآداب والأخلاق النفسية والعائلية والجماعية، للدلالة على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة؛ ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية، وذلك سعيا لبناء مجتمع طاهر متماسك الأواصر وفق مقاييس أخلاقية راقية بدءا من الأفراد في البيوت وانتهاءً بالجماعات والأسر المكونة للمجتمع؛ وخُتِمت بالدعوة إلى التوبة في سياق الأمر بالغض من الأبصار، وحفظ الفروج، ونهي النساء عن التهتك، وأمرهن بالاحتشام، ويتأكد هذا الأمر؛ سيما ونحن في عصر شاع فيه أن النظرة الآثمة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواضع الفتنة

---

(1) التفسير الوسيط، للطنطاوي (497/1).

المخبوءة، كل هذا تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضغط الجنسي؛ فانتهى الواقع إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي، ومجتمعات إباحية تُهَيِّجُ فيها الشهوات في كل لحظة، وتستثار فيها دعوات الرذيلة في كل حين، وما يعيشه العالم الغربي اليوم من إفلاس أخلاقي، وانتكاس للفطرة السوية، وانفلات من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية؛ لهو وصمة عار في تاريخ البشرية، وخير دليل على زيف حضارتهم المادية وتقدمهم الاقتصادي، على حساب القيم الأخلاقية والفضائل السامية [1].

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى أهل الإيمان بالتوبة من أسباب الهلاك والشقاء، ونداهم بوصف الإيمان؛ لحثهم على امتثال الأمر، لأن الاتصاف بصفة الإيمان بمعناه الصحيح، يقتضي المسارعة إلى امتثال أمر الله، واجتناب نهيه؛ فالمؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة، ثم علق الفلاح على ذلك ، فقال: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرا وباطنا، إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا، ومَنْ تاب إلى الله كما أمره نال الفلاح بمعنييه، فإنّه يفوز بالمطلوب الأعظم وهو الجنة، ورضى الله تعالى، وكذلك ينال البقاء الأبدي في النعيم والسرور ، وفي الآية الكريمة دليل على أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعا بذلك[2].

– قال ابن القيم: « هذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي؛ إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم» [3].

---

(1) انظر: تفسير الظلال (4/2511 وما بعدها)، والأخلاق الإسلامية وأسسها (1/703).

(2) انظر: تفسير السعدي (ص 567)، وأضواء البيان (6/227– 228).

(3) مدارج السالكين (1/162).

– **قال الله تعالى:** ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ [1] أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ **[القصص، الآية: 67].**

لَمَّا ذكر الله تعالى أحوال الكفار يوم القيامة قبل هذه الآية، وما يجري عليهم من التوبيخ، أخبر بأنّ من تاب منهم، فأناب ورجع إلى الحقّ، وأخلص لله الألوهيّة وأفرد له العبادة، فلم يشرك في عبادته شيئا، وآمن وصدّق بنبيه محمد ﷺ وعمل صالحاً؛ فإنه مرجو له الفلاح والفوز في الآخرة، وهذا فيه ترغيب للكافر في التوبة والرجوع إلى الإسلام، مع ضمان الفلاح له، وتحذير لمن أصر على كفره وتمادى في طغيانه.

فهذه دعوة سخية لكل مشرك وكافر وفاسق أن يتخلى عن الباطل المتلبس به ويؤمن الإيمان الصحيح ويعمل صالحاً بأداء الفرائض؛ حتى يكون من المفلحين الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، الخالدين في النعيم، فلا سبيل إلى الفلاح والنجاة من النار، والدخول لجنة دار الأبرار ؛ إلا بالتوبة والإيمان مع العمل الصالح [2].

---

(1) فائدة:

(عسى) تفيد الرجاء في كلام المخلوقين، وأما إن كانت من الله فهي تفيد الرجاء بمعنى التحقيق بمنه وفضله؛ لأن الترجي في القرآن بمنزلة التحقيق، فهو وعد كريم، من رب رحيم، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده. « صفوة التفاسير، للصابوني (442/2) ».

– قال الزركشي: (عسى) لها نسبتان: نسبة إلى الله تعالى، تسمى نسبة قطع ويقين، ونسبة إلى المخلوق، وتسمى نسبة شك وظن. « انظر: البرهان في علوم القرآن (159/4)، والإتقان في علوم القرآن (1119/3) ».

– قال الإمام الشعراوي: (عسى) من الله تدل على التحقيق، وسبق أنْ قُلْنا: إن الرجاءات على درجات، فالرجاء في المتكلم أقوى من الرجاء في الغائب، فإن كان الرجاء في الله فهو أقوى الرجاءات كلها. والحاصل أن عسى تفيد الرجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو، و حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو، وهو الحق سبحانه وتعالى؛ فتفيد التحقيق. « تفسير الشعراوي (ص 10992)، بتصرف ».

(2) انظر: تفسير الطبري (298/18)، وأيسر التفاسير (4/90– 91).



المطلب السادس: تزكية النفس.

مدخل:

إن الإسلام شريعة متوازنة متكاملة، فقد تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحة ما فيه سعادة الناس في دنياهم وأخراهم، وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس والجسد والروح.

فقد ركّب الله تعالى في بني البشر نزعتان؛ إحداهما مادية تتطلب الطعام والشراب والملبس والمسكن والتزاوج، وغير ذلك مما جرت عليه سنة الحياة، أمّا النزعة الأخرى فهي الجانب الروحي للإنسان الذي يتطلب تزكية النفس وتهذيبها، والسمو بها إلى العا لم العلوي.

لذلك كان الغلو في أحد الجانبين؛ خروجا عن الطريق المستقيم الذي بينه الله جلّ وعلا، وانحرافا عن سنن الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومن هذا المنطلق جاء التوجيه القرآني والهدي النبوي معتدلا وقائما على أساس تنظيم العلاقة بين النفس والبدن؛ فلا رهبانية في الإسلام ولا مشقة أو تعذيب للبدن، وبالمقابل لا يرخي العنان لنفسه بتمكينها في كل ما تشتهيه من المباحات فضلا عن المحرمات، فإن ذلك يورثها الركون إلى الدنيا، ونسيان الآخرة، واستثقال العبادة؛ ما يكون سببا في قسوة قلبه وهلاك نفسه، فالشريعة لا تحرم التمتع بالطيبات، بل تنادي بعمارة الأرض بالمال والبنين، لكن على وفق الأسس والفضائل المثلى التي ترسم للمجتمع الإسلامي طريق النصر والتمكين في الدنيا، والنجاة والفوز في الآخرة.

وأما محاربة الإسلام للمادية الطاغية البحتة؛ فذلك لأنها مالت عن القيم الرفيعة والآداب العالية، وتمادت في تلبية رغبات الجسد بالطرق المحرمة، وأهملت غذاء الروح وطمأنينة النفس؛ لذلك تكرر ذكر النفس في القرآن الكريم مرات كثيرة، ممّا يدل على اهتمام القرآن بالنفس الإنسانية وعنايته بها أيما عناية، فالإنسان مطالب بتفقد ومحاسبة نفسه التي بين جنبيه. فإنّ مصير الإنسان، أو هلاكه مرتبط بصلاح نفسه وتزكيتها، فقد أقسم الله بها في كتابه، قال عز وجل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس، الآيات: 7 – 10]، ولأهمية تزكية النفس كان رسولنا الكريم ﷺ أزكى البشرية وأطهر البرية يقول في دعائه: « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا »[1].

والنفس إنما هي وديعة أُودعها العبد، وحفيظة استحفظها، فمن تمام النصح لها أن ينأى بها عن المهلكات والمطبات، و يحرص على تزكيتها وتطهيرها ويطلب لها معالي الأمور ونفائسها.

---

(1) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء / باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (2088/4)، (ح: 2722).

التزكية: لغة واصطلاحا

مصدر زَكَّى، يُقال: زَكَّى فلان فلانا: إذا نسبه إلى الزَّكَاء، وهو الصَّلاح. وزَكَا الرجل يَزْكُو: إذا صَلُحَ، فهو زَكِيٌّ والجمع أَزْكِيَاءٌ[1].

قال ابن الأثير: « تكرر في الحديث ذكر الزكاة والتزكية، وأصل الزكاة في اللُّغة: الطَّهارةُ، والنَّماءُ، والبركَةُ، والمدحُ، وكُلُّ ذلك قد اسْتُعمل في القُرآن والحديث. ووزنها فَعَلَة كالصَّدقة، فلما تحرَّكت الواو وانْفتَح ما قبلها؛ انقلبَتَ ألِفاً. وهي من الأسماء المشْترِكة بين المخْرَج والفِعْل؛ فُتطلَق على العَين، وهي: الطَّائفَة من المال المزكَّى بها، وعلى المعنى، وهو: التَّزكِية» [2].

وقال الراغب: « أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية، يقال: زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة، ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة . أو لتزكية النفس. أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعا؛ فإن الخيرين موجودان فيها» [3].

النَّفْسُ في اللغة والاصطلاح:

النَّفَسُ: نَسِيمُ الْهَوَاءِ، وَالْجَمْعُ أَنْفَاسٌ، وَالنَّفَسُ: الرِّيحُ الدَّاخِل وَالْخَارِجُ فِي الْبَدَنِ مِنَ الْفَمِ وَالأَنْفِ وسمِّيَت النَّفْس نَفْساً لتولُّد النَّفَس منها، واتصاله بها. قال ابن فارس: « النون والفاء والسين أصلٌ واحد يدلُّ على خُروج النَّسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، ومنه التَّنَفُّس: خُروج الهواء من الجوف» [4].

من معاني النَّفْس في اللغة[5]:

- الرُّوح، يقال: خرجتْ نَفْسهُ، أي: روحه.
- الدَّمُ، يقال: ما لا نَفْسَ له سائلة، أي: لا دَمَ فيه.
- ذَاتُ الشَّيْءِ وَعَيْنُهُ، يقال: جاء هو نَفْسُهُ، أَوْ بِنَفْسِهِ.
- العَيْنُ، يقال نَفَسْتُهُ بِنَفْسٍ، أي: أَصَبْتُهُ بِعَيْنٍ.

---

(1) انظر: المصباح المنير (357/1)، ولسان العرب (1849/3).

(2) النهاية في غريب الحديث (307/2).

(3) المفردات في غريب القرآن (ص 213).

(4) معجم مقاييس اللغة (460/5).

(5) انظر: تاج العروس (16/559– 562)، وتهذيب اللغة (8/13)، والصحاح في اللغة (984/3).

قال الجرجاني: « النفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم: الروح الحيوانية، فهو جوهر مشرق للبدن» [1].

ومنهم من قال: « النفس لطيفة نورانية من صنع الله، تتضمن طاقة حيوية وهي التي تحرك هيكل المادي للإنسان» [2].

وجاء في تفسير الفخر الرازي أنّ النفس: « جوهر جسماني لطيف صاف بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية نوراني سماوي مخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية، فإذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حياً وإن فارقته صار البدن ميتاً » [3].

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن النفس شيء داخلي في كيان الإنسان لا تدرك ماهيته، وتشمل الروح والقلب وكل ما في الإنسان من قوى الإدراك التي يميز بها بين الخير والشر، وهي جامعة لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في سلوك الفرد[4].

أقسام النفس في القرآن الكريم:

من خلال الآيات القرآنية التي ورد فيها الحديث عن النفس الإنسانية وصفاتها وأحوالها يتبين أنّ للنفس ثلاثة أحوال وهي: النفس الأمّارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة.

1- النفس الأمارة بالسوء:

حينما تنحرف النفس البشرية عن الفطرة السوية، فإنها تزين للعبد فعل المنكرات، وتهوي به في دركات الإثم والعدوان، وقد عرفها الجرجاني بأنها: « تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية؛ فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة » [5].

وورد الحديث عن هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف، الآية: 53]،

---

(1) التعريفات (ص 312).

(2) انظر: النفس في القرآن الكريم (ص 112).

(3) تفسير مفاتيح الغيب (178/31).

(4) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (229/1).

(5) التعريفات (ص 312).

قال ابن القيم: « وهذه النفس تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغي، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء. وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل آمرة لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله؛ لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمة الله، والعدل والعلم طارىء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها، فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم؛ فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة » [1].

ولذلك كان رسول الله ﷺ يستعيذ من شرور النفس كما ورد عنه في خطبة الحاجة: «وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا» [2].

2- النفس اللوامة:

و هي النفس المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها، وتتلفت حولها، وتتبين حقيقة هواها، وتحذر خداع ذاتها فهي النفس الكريمة على الله، حتى ليذكرها مع القيامة.

وقال الجرجاني في تعريفه للنفس اللوامة: « هي التي تنورت بنور القلب، قدر ما تنبهت به عن سِنَة الغفلة، كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها وتتوب عنها » [3].

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة، الآيتين: 1- 2]

هذا القسم خارج مخرج المدح للنفس، والمراد في هذه الآية نفوس المؤمنين، ليكون الإقسام بها حسناً سائغاً؛ فوصفُ ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ مبالغة لأنها تُكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة، وهذا اللوم هو المعبر عنه في الاصطلاح بالمحاسبة، ولومُها يكون بتفكيرها وحديثها النفسي.

قال الحسن[4]: « ما يُرى المؤمن إلاّ يلوم نفسه على ما فات ويندم، يلوم نفسه على الشر لِمَ فعله وعلى الخير لم لا يستكثر منه » [5].

---

(1) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (93/1).

(2) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح / باب ما جاء في خطبة النكاح (408/2)، (ح: 2118)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (591/1).

(3) التعريفات (ص 312).

(4) الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري مولى الأنصار وسيد التابعين في زمانه بالبصرة، ولد سنة 21هـ. وكان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة، غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه، ومات سنة 110هـ.
« انظر: حلية الأولياء (131/2)، والأعلام (226/2) ».

(5) التحرير والتنوير (338/29)

فهذه النفوس تقية مستقيمة، والمراد باللوامة: التأنيب الذي ينشأ عنه التوبة والتقوى؛ فتلوم ذاتها على ما فات منها، فهي مهما أكثرت من فعل الخير تتمنى أن لو ازدادت من ذلك، ومهما قللت من فعل الشر، تمنت أيضا أن لو ازدادت من هذا التقليل[1].

و هذه الصورة في مقابلة النفس الفاجرة؛ نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور، والذي يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه، ودون تلوم ولا تحرج ولا مبالاة [2].

3- النفس المطمئنة:

هي أعلى درجات النفس، فإذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي مطمئنة وهي التي يقال لها عند الوفاة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ [الليل، الآيتين: 27- 28]، وقد نقل المفسرون في معنى النفس المطمئنة أقوالا عن السلف، ومن أبرزها:

أنّ النفس المطمئنة: المصدقة، وقيل: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله، وقيل: هي المنيبة المخبتة الراضية بقضاء الله، وقيل: المخلصة، وقال آخرون: هي العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين، وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى، الآمنة من عذابه[3].

قال ابن القيم: ((حقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضى به ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسبه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين)) [4].

وقال الجرجاني في تعريفه للنفس المطمئنة: ((هي التي تنورت بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة)) [5].

وتزكية النفس غايتها العظمى، وهدفها الأسمى؛ الوصول بها إلى مرتبة الاطمئنان والأنس بالودود المنان.

---

(1) انظر: فتح القدير (ص 1557)، والتفسير الوسيط، للطنطاوي (197/15).

(2) تفسير الظلال (3768/6).

(3) انظر: تفسير الطبري (393/24- 394)، وتفسير القرطبي (284/22- 285).

(4) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (92/1).

(5) التعريفات (ص 312).

تزكية النفس وركائزها:

– المراد به: تطهيرها من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها، للوصول بها إلى طريق الإستقامة، وبلوغها درجة الإحسان.

ويؤكد هذا المعنى أنّ الرسول ﷺ فسر التزكية ببلوغ مرتبة الإحسان، فقد قال عليه السلام: " ثَلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلاَ الدَّرِنَةَ، وَلاَ الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ" فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: " أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ "[1].

وهذا يعني شعور العبد بالرقابة الإلهية؛ فيكون ذلك سببا في صلاح ظاهره وباطنه، وإقامة أوامر ربه تعالى في شؤون حياته كلها. فالمراد بالتزكية في هذا الموضع هو: إصلاح النفوس وتطهيرها، عن طريق العلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات.

قال الراغب: " بزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة؛ وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسبا لذلك، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس، الآية: 9]، وتارة ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلا لذلك في الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور، الآية: 21]، وتارة إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، مثل قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة، الآية: 151]، وتارة إلى العبادة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون، الآية: 4]، أي: يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله أو ليزكوا أنفسهم، والمعنيان واحد"[2].

فصلاح العباد وفلاحهم وفوزهم ونجاتهم في تعهد أنفسهم بالإصلاح، وتطهير بواطنهم وظواهرهم من الشرك بالله عز وجل ومن سائر الصفات المذمومة، وتحليتها بالتوحيد واستسلامها للشرع المجيد.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الصغير (334/1)، (ح: 555)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (38/3)، (ح: 1046).
(2) المفردات في غريب القرآن (ص 214)، بتصرف.

وبهذا يعرف أن تزكية النفوس قائمة على ركيزتين أساسيتين وهما:

– التخلية:

والمقصود بها تطهير النفس وتنقيتها من الأوصاف الذميمة والعادات القبيحة، وإصلاح الأعمال والأخلاق، وهذه هي الطهارة المعنوية التي يتكلم عنها علماء السلوك والتربية، ويريدون بذلك طهارة القلب وسلامته من الشرك وسائر أمراض القلوب كالغل والحسد والبغضاء، وصفاء النفس ونقائها من كل الشرور.

وزكاة النفس لا تحصل إلا بهذه الطهارة؛ لذلك وجب الاهتمام بها أكثر من الطهارة الحسية؛ لأنّ طهارة الباطن أمرها يخفى على كثير من الناس، بخلاف طهارة الظاهر فهي مكملة ومتممة للطهارة المعنوية.

والغالب على أحوال الناس في هذا العصر اهتمامهم بالمظهر الأجوف والتزين الكاذب، وإهمال تطهير الأنفس والسرائر المتلطخة بالذنوب والآثام.

فمن أراد الفوز والفلاح، والنجاة والسلامة في الدنيا والآخرة؛ فليجمع بين طهارة الباطن والظاهر،

قال ابن القيم: «الله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر. وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر. فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب؛ ولهذا شرع للمتوضىء أن يقول عقب وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين.

فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء. فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته»[1].

– التحلية:

وهي الشق الثاني من التزكية، ويراد بها التحلي بالإيمان والصفات الحميدة والتزين بالأخلاق الفاضلة، والحرص على تنمية النفس وإعلائها بحملها على الطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف؛ ما يكون سببا في انشراح الصدر، وراحة البال مع اطمئنان النفس وسكينتها.

وقد توافقت آراء علماء القلوب على أن النفوس لا تصل إلى مُنَاها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون طاهرة نقية، سليمة زكية، والله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبا، فكلما طابت النفس وزكت قربها الله سبحانه إليه، فتسعد، وتأنس، وتستغني بالله عز وجل عمن سواه من المخلوقين.

---

(1) إغاثة اللهفان (71/1).

منهج تزكية النفوس:

إن تزكية النفس تكون بثلاثة أصول، وهي:

-1) التزكية بالعقيدة الصحيحة:

القائمة على التوحيد الخالص للخالق تبارك وتعالى، فتتعبد النفوس لله عز و جل، وتمتلئ القلوب بأنوار أسمائه وصفاته وربوبيته وإلهيته.

قال تعالى: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ **[فصلت، الآيتين: 6- 7]**

ذكر أكثر المفسرين مِنَ السلف ومَنْ بعدهم أنّ المراد بالزكاة في هذا الموضع: التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته. وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة فإنه إنما يحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعا؛ فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد[1].

- قال ابن كثير: ((والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله في الطاعات)) [2].

وجاء في وصف عباد الله الخيار ممّن زكت نفوسهم واطمأنت إلى باريها، أنهم قوم امتلأت قلوبهم من معرفة الله وتوحيده، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسرت المحبة في أجزائهم، فلم يبق فيها عرق، ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، فأنساهم حبه ذكر غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه، قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه، ورجائه، والرغبة إليه، والرهبة منه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والسكون إليه، والتذلل والانكسار بين يديه؛ عن تعلق ذلك منهم بغيره. فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه واجتمع همه عليه، متذكرا صفاته العلى وأسماءه الحسنى، مشاهدا له في أسمائه وصفاته، قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته؛ فأثمر ذلك اطمئنانا في نفسه وانشراحا في صدره[3].

---

(1) إغاثة اللهفان (62/1).

(2) تفسير ابن كثير (219/12).

(3) طريق الهجرتين (ص 449- 450)، بتصرف.

-2) التزكية بفعل الواجبات وترك المحرمات:

وهذه تزكية واجبة بعد التزكية بالتوحيد، وأولى ما يتقرب به العبد إلى ربه بعد توحيد الله عز وجل أداء الفرائض واجتناب المحرمات، والعمدة في ذلك حديث الولي في صحيح البخاري أنّه ﷺ قال: « قَالَ اللهُ تَعَالَىَ: وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ» [1].

وفي هذا إشارة إلى أن درجة المحبة لله تعالى إنما تنال بطاعته وبفعل ما يحبه، فإذا امتثل العبد لأوامر مولاه وفعل ما يحبه أحبه الله تعالى ورقاه إلى درجة محبته كما دلّ عليه الحديث، فأفضل ما تستجلب به محبة الله عز وجل فعل الواجبات، وترك المحرمات، ولهذا جعل النبي ﷺ من علامات وجدان حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار[2].

-3) التزكية بالنوافل:

النوافل هي ما عدا الفرائض من جميع أجناس الطاعات، وكل ما ندب الله سبحانه إليه ورغب فيه من غير حتم وافتراض، وتختلف النوافل باختلاف ثوابها، فما كان ثوابه أكثر كان فعله أفضل، وتختلف كذلك باختلاف ما ورد في الترغيب فيها، فبعضها قد يقع الترغيب فيه ترغيبا مؤكدا، وقد يلازمه النبي ﷺ مع الترغيب للناس في فعله، وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: « وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ» [3].

فهذه أمثال والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء وتيسير المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله[4].

فالإكثار من النوافل مع الاستمرار عليها يجلب محبَّة الله عزَّ وجلَّ، وإذا حصلت له المحبَّة ظفر بتسديد الله في تصرفاته، فلا يسمع إلاَّ ما هو حق، ولا يرى إلاَّ ما هو حق، ولا ينال إلاَّ ما هو حق، ولا يمشي إلاَّ إلى ما هو حق، وأكرمه الله بإجابة دعوته إذا دعاه، وإعاذته مِمَّا استعاذه منه[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق/ باب التواضع (192/4)، (ح: 6502).

(2) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص 129).

(3) جزء من حديث الولي السابق، تقدم تخريجه في هذه الصفحة.

(4) انظر: عمدة القاري (137/23).

(5) انظر: جامع العلوم والحكم (ص 632).

وقيل: ((معناه: أن يجعل الله سلطان حبه غالباً على عبده؛ حتى يسلب عنه الاهتمام بكل شيء سوى ما يقربه إليه، فيصير منخلعاً عن الشهوات، ذاهلاً عن الحظوظ واللذات، حيثما تقلب وأينما توجه لقي الله تعالى بمرأى منه ومسمع لا تحجب الغفلة نفسه عن ذكر ربه، ولا يحول دون شهوده الحجبة، ولا يعتري ذكره النسيان، ولا يخطر بباله الأحداث والأعيان. يأخذ بمجامع قلبه حب الله فلا يرى إلا ما يحبه ولا يسمع إلا ما يحبه ولا يفعل إلا ما يحبه، ويكون الله سبحانه في ذلك له يداً ومؤيداً وعوناً ووكيلاً؛ يحمي سمعه، وبصره، ويده، ورجله، عما لا يرضاه، وحقيقة هذا القول ارتهان كلية العبد بمراضي الله وحسن رعاية الله له)) [1].

متعلقات التزكية:

قال ابن عثيمين: التزكية لها ثلاث متعلقات:

– الأول: في حق الله تعالى، بالتزكي من الشرك فيعبد الله تعالى مخلصاً له الدين.

– الثاني: في حق الرسول ﷺ، ويكون بالتزكي من الابتداع فيعبد الله على مقتضى شريعة النبي عليه السلام في العقيدة، والقول، والعمل.

– الثالث: في حق عامة الناس، بمعاملتهم بالود والصفاء، والتزكي من الغل والحقد والعداوة والبغضاء، وكل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين يتجنبه، ويفعل كل ما فيه المودة والمحبة [2].

ثمرات التزكية:

– التزكية غاية عظمى في هذا الدين وخلاصة دعوة المرسلين.

قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية: 151].

قال السعدي: ((يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق،

---

(1) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (390/7).

(2) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين – جزء عمّ (ص 172)، بتصرف يسير.

ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع، إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية» [1].

وهذه التزكية شاملة لجميع مناحي الحياة، فيطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر، وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم.

فهذا التطهير شامل للضمير والشعور، وللعمل والسلوك، يطهر الحياة الزوجية، والحياة الاجتماعية؛ فترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال؛ فينعكس هذا التطهير إلى تزكية عامّة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع، تسمو بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه [2].

– التزكية سبب لدخول الجنة والنجاة من النار.

التزكية عربون الجنة، وستار من النار، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه، الآيتين: 75– 76].

فهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله من المنازل العاليات، و الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه [3].

---

(1) تفسير السعدي (ص 74).

(2) في ظلال القرآن (139/1)، (3565/6)، بتصرف.

(3) تفسير السعدي (ص 510)، وتفسير الطبري (120/16).

وقال تعالى في الوقاية من النار: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل، الآيتين: 17- 18].

هذه الآية جارية على عادة القرآن الكريم في المقابلة بين الأشرار والأخيار، وبين السعداء والأشقياء، فجاء الحديث فيها عن حال الأتقياء، المبعدين عن النار المتأججة، وهم من بالغوا في صيانة أنفسهم عن كل ما يغضب الله تعالى، وحرصوا كل الحرص على فعل ما يرضيه عز وجل.

والتعبير بقوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ يشعر بابتعاده عنها ابتعادا تاما، بحيث تكون النار في جانب، وهذا الأتقى في جانب آخر، أي: سيبعد عنها الأتقى، وهو الشديد التقوى المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي، الشديد التحرز منهما، الحريص على صيانة نفسه عن كل ما يغضب اللّه تعالى، والإتيان بكل ما يرضي الحق جل جلاله [1].

ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه فقال: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، أي: إنّ الأتقى هو الذي ينفق أمواله في وجوه البر، طالبا بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه، لا مريدا بذلك رياء ولا سمعة ولا طالبا مديح الناس له، فإن ذلك ضرب من النفاق الذي يبطل معه العمل، ولا يكون لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهدها، فاللّه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه[2].

تزكية النفوس سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

– قال الله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى، الآيتين: 14- 15].

المعنى: قد أفلح وفاز ونجا من العذاب وانتفع بالتذكير، من تطهر من الشرك والمعاصي، فآمن بالله ووحّده وعمل بشرائعه، وتعهّد نفسه بالتزكية فنمّاها وهذّبها وطهرها من الرذائل ومساوئ الأخلاق، ومن ذكر اسم ربه بقلبه ولسانه، فصلى الصلوات الخمس التي فرضها الله تعالى عليه، وأضاف إليها ما استطاع من نوافل وسنن، وقال سبحانه: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ﴾؛ ليجمع في هذا التعبير البليغ، كل معاني الخير والنفع، لأن الفلاح معناه: وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع، وذلك هو الظفر بالمبتغى من الخير، والنجاة من أسباب الهلاك والشر، وقد اشتملت هاتان الآيتان في قوله تعالى: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، على الطهارة من العقائد الباطلة، وعلى استحضار معرفة الله تعالى.

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (422/15).

(2) تفسير المراغي (179/30).

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ اشتمل على أداء التكاليف الشرعية التي على رأسها الصلاة؛ فهذه المعاني هي التي أوصلت صاحبها إلى الفلاح الذي ليس بعده فلاح[1].

وقدم التزكّي على ذكر الله والصلاةِ؛ لأنه أصل العمل بذلك كله؛ فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية فعُلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها؛ فالتزكية: الارتياض على قبول الخير، والمراد هنا التزكّي بالإيمان [2].

– قال الله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس، الآيتين: 9– 10].

أقسم الله تعالى في هذه السورة بأشرف مخلوقاته أحد عشر قسما على فلاح من طهر نفسه، وزكاها، وخسارة من خذل نفسه وأهلكها بالموبقات.

فمن وفقه الله وأعانه على تزكية نفسه بالتزود من الخير والطاعة، وتطهيرها من الذنوب، وتنقيتها من العيوب، وترقيتها بطاعة الله، وإعلائها بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فقد أفلح، وهذا الفلاح لا يقف عند حد، وإنما هو نور تشع آثاره على حياة المؤمن بجميع مجالاتها، وتقر به عينه، فيحظى بسعادة لا يعرف قيمتها إلا من تذوقها، ويشرق قلبه بنور الإيمان فتشرق معه جميع الأعضاء والجوارح.

ويشمل ذلك الفوز يوم القيامة وذلك بالنجاة من النار، ودخول الجنة؛ لأن معنى الفوز لغة هو: السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب.

وأمّا من دساها، أي: نقصها وأخفاها بالمعاصي والآثام وقمعها بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويسيئها؛ فقد خاب وهلك في آخرته فلم يفلح وخسر نفسه وأهله، وهو الخسران المبين [3].

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (368/15).

(2) التحرير والتنوير (288/30).

(3) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (413/15)، وأيسر التفاسير (577/5)، وتفسير السعدي (ص 926).

الفصل الثاني:

صفات المفلحين وثمرات الفلاح في القرآن الكريم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: صفات المفلحين

المبحث الثاني: ثمرات الفلاح.

مدخل:

بعد عرض أسباب الفلاح في الفصل السابق، يأتي بيان صفات المفلحين الذين أخبر المولى تبارك وتعالى عن تحقق فلاحهم بفوزهم بأعلى النعيم، ونجاتهم من العذاب والجحيم.

وحاولت في هذا الفصل استيعاب جميع الآيات التي تطرقت لذكر أهل الفلاح، الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ في أكثر من موضع، فقمت بترتيبها تحت مباحث وعناوين تجلي مضمونها وتكشف أسرارها، مع إيضاح معانيها وإبراز مدلولاتها التربوية؛ حتى يتحلى بها المؤمنون ليكونوا في زمرة المفلحين الناجحين الذين ظفروا بما رغبوا، وسلموا مما رهبوا.

وقد جاءت الآيات التي في صدر سورة المؤمنون جامعة لأهم صفات المفلحين، واحتوت على آداب رفيعة وفوائد جمة، فكانت بحق واسطة العقد، وسبيل المجد لمن تخلق بتلكم الأخلاق الكريمة والشمائل الحميدة؛ فآثرت جعلها كمقدمة لهذا الفصل، مبينا مضامينها مسترشدا بأقوال المفسرين في إظهار أوجه الإعجاز والبيان المكتنزة فيها، مراعيا الاختصار والدقة في النقل والتعبير.

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون، الآيات : 1 إلى 11].

قال السيد قطب: « إنه الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين. وعد الله لا يخلف الله وعده؛ وقرار الله لا يملك أحد رده. الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة. الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته؛ والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين »[1].

---

(1) في ظلال القرآن (4/2453).

مناسبة ابتداء السورة لما قبلها:

إنّ هناك ارتباطا وثيقا بين صدر سورة المؤمنين وآواخر السورة التي قبلها، وهي سورة الحج فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج، الآية: **77**]، **فقد أمرهم بالركوع والسجود؛ وأتى بصيغة:** ((**لعلكم**)) **المتضمنة معنى التوقع؛ ليرجى لهم الفلاح، ولما كان الرجاء من الله تعالى واقعا ومؤكدا، قال سبحانه في سورة المؤمنون:** ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، **فجاء بحرف** ((**قد**)) **الداخلة على الفعل الماضي، وهي تفيد التحقيق؛ فهنا حصل لهم الفلاح على جهة التحقيق والتأكيد، بعدما فعلوا ما أمرهم به ربهم.**

ففي سورة الحج طلب وترجٍ لحصول الفلاح إذا قاموا بما أمروا به، وفي هذه السورة تنفيذ وحصول، وفي هذا تناسب لطيف، وتركيب بديع في التعبير؛ فقد كان الفلاح متوقعاً مرجواً لهم، فحصل ما توقعوه وتحقق عن قريب. فما أسرع ما نفذوا، وما أسرع ما تحقق لهم الفلاح! [(1)]

– **كما تناسقت خاتمة سورة المؤمنين مع بدايتها، فقد جاء في آواخرها قوله تعالى:** ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون، الآيتين: **117– 118**].

قال الإمام الشعراوي: ((**عجيبٌ أن تبدأ السورة بقوله تعالى:** ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، **وتنتهي بقوله:** ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، **أي: بنقيض ما بدأتْ به، وعليك أنت أنْ تتأمل ما بين هذين المعنيين، وما دامت المسألة مسألة إيمان يفلح أهله، وكفر لا يفلح أهله، فتمسَّكوا بربكم، والتزموا منهجه في (افعل) و(لا تفعل). وإنْ غلبتكم النفس على شيء من الذنوب فتذكَّروا قوله:** ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ ﴾)) [(2)].

فصار أول السورة وآخرها مفهماً بأن الفلاح مختص به المؤمنون ولما كان الأمر كذلك، أمر سبحانه نبيه ﷺ بالاجتهاد في إنقاذ عباده حتى بالدعاء لله في إصلاحهم ليكون الختم بالرحمة للمؤمنين، كما كان الافتتاح بفلاحهم[(3)].

(**1**) انظر: تفسير البحر المحيط (**365/6**)، وتفسير المراغي (**3/18**).

(**2**) تفسير الشعراوي (ص **10178**)، بتصرف.

(**3**) نظم الدرر في تناسب السور (**199/13**).

قيمة صفات المفلحين التي افتتحت بها سورة المؤمنين وأثرها على الفرد والمجتمع:

- الخشوع في الصلاة:

أول صفات المفلحين، بدأ به للتنويه بشأنه وبيان أهميته، ويكون بحضور القلب وسكونه بين يدي الله تعالى، واستحضار ه لقربه، فتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أولها إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها [1].

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فَرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبي ﷺ: « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » [2].

ثم إن البدء بالخشوع له دلالة أخرى، ذلك أنه ورد في الآثار، أن الخشوع أول ما يرفع من الناس، فقد جاء عن عبادة بن الصامت[3] أنه قال: « يوشك أن تدخل المسجد، فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً » [4]، وعن حذيفة[5] أنه قال: « أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، وتنقض عرى الإسلام عروة عروة » [6]. فبدأ بما يرفع أولاً؛ وهذا مشاهد في واقعنا اليوم، فإنّ الغالب على أحوال الناس الغفلة والعبث أثناء الصلاة، لذلك لم يتأثر جموع المصلين بتأدية هذه الفريضة الجليلة ولم تنعكس عليهم آثار الصلاة الحميدة من انشراح الصدر وسكون النفس وطيب الأخلاق[7].

---

(1) تفسير السعدي (ص 547).

(2) مسند الإمام أحمد (307/19)، (ح: 12294)، وحسن إسناده الألباني في مشكاة المصابيح (1448/3) (ح: 5261).

(3) الصحابي الجليل عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد، شهد العقبة الأولى والثانية وبدرا والمشاهد كلها، كان ممن جمع القرآن زمن النبي ﷺ، أرسله الخليفة عمر ﷺ إلى الشام ليعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين، وتوفي بها سنة 45هـ. « انظر: أسد الغابة (158/3)، والإصابة (27/4) ».

(4) أخرجه الترمذي: كتاب العلم / باب ما جاء في ذهاب العلم (31/5)، (ح: 2653)، وقال حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (59/3).

(5) صاحب سر رسول ﷺ، حذيفة بن حِسْل، ويقال: حُسَيل بن جابر بن عمرو، أبو عبد الله العبسي بن اليمان، شهد أحدا وقتل أبوه بها، شهد فتوح العراق وله بها آثار شهيرة، استعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد مقتل عثمان سنة 36هـ. « انظر: أسد الغابة (706/1)، والإصابة (332/1) ».

(6) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الفتن والملاحم (637/4)، (ح: 8514).

(7) انظر: تفسير ابن كثير (107/10)، وروح المعاني (4/18).

- الإعراض عن اللغو:

الصفة الثانية لعباد الله المفلحين هي إعراضهم عن اللغو، والمقصود به انصرافهم وعدم إقبالهم على كل ألوان اللغو، وهو الساقط من الكلام، وكل ما لا فائدة فيه من الأقوال، والأفعال، والاهتمام والشعور، فيشمل الكذب والهزل والسب والطعن واللعن وفحش الكلام، وجميع المعاصي.

فالمؤمن له ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق، وله ما يشغله من تطهير قلبه وتزكية نفسه وحملها على محاسن الأخلاق والآداب في السلوك والمعاملات، ومحاولة الثبات على هذا المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان. فإن التكاليف لا تنتهي، ويجب أن لا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها؛ فإن حياة البشر قصيرة، وطاقتهم محدودة، وهي إما أن تنفق فيما يصلح الحياة وينميها ويرقيها؛ وإما أن تنفق في الهذر واللغو اللهو، والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح، فوجب عليه اغتنام العمر كله في طاعة ربه؛ حتى يفوز برضوانه وجناته[1].

- آداء الزكاة:

ذهب جمع من المفسرين على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، وقال بعضهم يحتمل أن يكون المراد منه زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس، الآيتين: 9 – 10]، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل من يحرص على تزكية نفسه وماله معا؛ ليكون من المفلحين، ويظفر بالفوز والسعادة في الدراين[2].

فبعد إقبالهم على الله، وانصرافهم عن اللغو في الحياة، يأتي وصفهم بأنهم مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة، فهي طهارة للقلب والمال: طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء، وطهارة للمال تجعل ما بقي منه طيباً مباركا، ينتفع به صاحبه ويرتقي به درجات الجنة، ويبذله بطيب نفس لمساعدة إخوانه المحتاجين،

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للزحيلي (1677/2)، وتفسير الظلال (2454/4).

(2) انظر: تفسير ابن كثير (108/10).

فهذا البذل والعطاء صيانة للجماعة من الخلل الذي ينشئه العوز في جانب، والترف في جانب آخر؛ فهو تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً، و ضمان اجتماعي للعاجزين، ووقاية للمجتمع كله من التفكك والانحلال[1].

– العفة وصون الأعراض:

هذه طهارة الروح والبيت والجماعة، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع؛ بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب.

والمجتمعات التي تحررت من كل القيود، سواء الدينية أو الأخلاقية أو الإنسانية؛ تستباح فيها الشهوات والمحرمات جهارا نهارا، لَهِيَ مجتمعات قذرة هابطة في سلم البشرية، معرضة للدمار والانهيار، أفرادها مُسِخت فطرهم السليمة وتحولوا إلى مخلوقات منكوسة، تؤثر الرذيلة على الفضيلة.

لهذا فإن المقياس الصحيح للإرتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها، وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة، وعلاقات شرعية طاهرة ذات مقصد نبيل وهدف رفيع، يتمثل في إعمار الأرض واستخلافها على وفق المنهج الرباني، ولا عبرة بالحضارة الزائفة القائمة على نزوات الجسد البهيمية، حين تُهْمَل القيم الفاضلة، ويُغْفَل عن طهارة الروح وزكاة النفس[2].

وذُكر حفظ الفرج هنا عطفاً على الإعراض عن اللغو؛ لأن زلة العباد راجعة إلى انفلات أحد هذين العضوين – اللسان والفرج – من جهة ما أُودع في الجِّبِلة من شهوة استعمالهما، فلذلك ضبطت الشريعة استعمالهما بأن يكون في الأمور الصالحة التي أرشدت إليها الديانة، ففي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ »[3].

– حفظ الأمانات ورعاية العهود:

أداء الأمانة والوفاء بالعهد من صفات أهل الإيمان. والأمانات: جمع أمانة، وتشمل كل ما استودعنا الله تعالى إياه، وأمرنا بحفظه؛ فتشمل جميع التكاليف التي كلفنا الله بأدائها كما تشمل الأموال المودعة،

---

(1) انظر: تفسير السعدي (ص 548)، وتفسير الظلال (2455/4).

(2) تفسير الظلال (2455/4)، بتصرف.

(3) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق / باب حفظ اللسان (186/4)، (ح: 6474).

والأيمان والنذور والعقود وما يشبه ذلك، وأمّا والعهود فيتناول كل ما طلب من الوفاء به من حقوق الله تعالى وحقوق الناس.

قال القرطبي: « والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، وغاية ذلك حفظه والقيام به. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد » [1].

وقوله: ﴿ رَٰعُون ﴾ من الفعل "رعى" بمعنى: حفظ، والمقصود به ليس مجرد الحفظ، بل هو الحفظ والإصلاح والعناية بالأمر وتولي شأنه، وتفقد أحواله وما إلى ذلك. يقال: رعى الأمير رعيته رعاية، إذا حفظها واهتم بشؤونها، فمن صفات هؤلاء المفلحين: أنهم يقومون بحفظ ما ائتمنوا عليه من أمانات، ويوفون بعهودهم مع الله تعالى ومع الناس، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس، وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم؛ إلا إذا أديت فيها الأمانات، وحفظت فيها العهود، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه [2].

– المحافظة على الصلوات:

الصفة السادسة والأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين، أنهم يحافظون على الصلوات التي أمرهم اللّه بأدائها محافظة تامة، بأن يؤدوها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع، مصداقا لقول رسول الله ﷺ : « خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ، وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ » [3].

فلا يفوّتونها كسلاً، ولا يضيعونها إهمالاً؛ ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام؛ إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، مستوفية الأركان والآداب، حية يستغرق فيها القلب، وينفعل بها الوجدان. والصلاة صلة ما بين القلب والرب، فالذي لا يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير [4].

---

(1) تفسير القرطبي (15/15).

(2) تفسير الطنطاوي (14/10).

(3) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة / باب في المحافظة على وقت الصلوات (1/212)، (ح: 425)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (1/125).

(4) تفسير الظلال (4/2456– 2457).

ولقد ابتدأ الله سبحانه صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع في الصلاة وختمها بالمحافظة عليها؛ للدلالة على عظم مكانتها، وسمو منزلتها، وكأنه إشارة إلى أول ما يرفع، وإلى آخر ما يبقى [1].

وبعدما أثنى المولى تعالى على أولئك المؤمنين المفلحين الذين تحلوا بتلك الصفات الكريمة، وهي صفات تمثل الكمال الإنساني في أنقى صوره ـ بَيَّن سبحانه ما أعد لهم من حسن الثواب.

فقال جلّ جلاله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون، الآيتين: 10-11]

والفردوس: أعلى الجنات وأفضلها، وهو لفظ عربي يجمع على فراديس، وقيل: هو لفظ معرب. معناه: الذي يجمع ما في البساتين من ثمرات، والحاصل أنَّ الفردوس اسم من أسماء الجنَّة في مصطلح القرآن، أو من أسماء أشرف جهات الجنات، وأصله البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر [2].

جاء في السُنة أنّ النبي ﷺ قال: « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » [3].

فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا في الطريق، إلى الغاية المقدرة لهم، هنالك في الفردوس، دار الخلود بلا فناء، والأمن بلا خوف، والإستقرار بلا زوال، فأولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلى الجنات وأفضلها، وهم فيها خالدون خلودا أبديّا، لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب، وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين، وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال [4].

وهذه الصفات تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح، وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد طبيعة الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي تحياها، الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذي كرمه الله؛ وأراد له التدرج في مدارج الكمال، ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام.

وقد جمعت هذه الآية أصول التقوى الشرعية؛ لأنها أتت على أعسر ما تُراض له النفس من أعمال القلب والجوارح.

---

(1) ورد في الأثر عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: « أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، وتنقض عرى الإسلام عروة عروة ». سبق تخريجه في (ص 140).

(2) انظر: تفسير الطنطاوي (15/10)، والتحرير والتنوير (21/18).

(3) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد / باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ، وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (388/4)، (ح: 7423).

(4) انظر: تفسير الظلال (2457/4).

فجاءت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى لقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس، الآيات: 92 إلى 94].

ثم ذكرت الصلاة وهي عماد التقوى والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تكرر استحضار الوقوف بين يدي الله ومناجاته، وذكر الخشوع وهو تمام الطاعة لأن المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عهدة التكليف غيرَ مستحضر خشوعاً لربه الذي كلفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبتُه ربَّه فامتثل واجتنب، فهذان من أعمال القلب .

وذكر الإعراض عن اللغو، واللغو من سوء الخلق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه فإذا تخلق المؤمن بالإعراض عَن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك.

وذكر إعطاء الصدقات وفي ذلك مقاومة داء الشح، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن، الآية: 16].

وذكر حفظ الفرج، وفي ذلك خلق مقاومة اطراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها والترفع بها عن حضيض مشابهة البهائم فمن تخلق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخُلقاً.

وذكر أداء الأمانة وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحق حقه ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا.

وذكر الوفاء بالعهد وهو مظهر لخلق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء.

وذكر المحافظة على الصلوات وهو التخلق بالعناية بالوقوف عند الحدود والمواقيت وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقاً راسخاً.

والمتأمل لهذه الخصال يجدها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله مثل الصلاة والخشوع وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل الصدقة وأداء الأمانة.
فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعل والترك في المهمات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها [1].

---

(1) تفسير التحرير والتنوير (18/18– 19)، بتصرف يسير.
روى النسائي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قيل لها: كيف كان خُلق رسول الله؟ قالت: كان خُلق رسول الله ﷺ القُرآن، فقرأت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى انتهت إلى قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .
أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب التفسير/ باب سورة المؤمنون (193/10)، (ح: 11287).
وله شاهد في صحيح مسلم، أنّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان خلق رسول الله ﷺ القرآن)). (ح: 746).

المبحث الأول: صفات المفلحين.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

المطلب الثاني: اتِّبَاعُ الرسول ﷺ وطاعته.

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الرابع: ثقل الموازين يوم القيامة.

المطلب الخامس: الإيثار والسخاء.

المطلب السادس: موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ.

المطلب الأول:

الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ **[البقرة، الآيات: 1– 5].**

وقال جلّ جلاله: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ **[لقمان، الآيات: 1– 5].**

– أولا: الإيمان بالغيب وأهميته.

لا شك أنّ للمعتقد تأثير خاص على كل إنسان في هذه المعمورة مهما كانت ديانته، غير أنّ الإيمان يحوز على الاهتمام الأكبر في حياة المسلم؛ لعِظَم شأنه، وكثرة عوائده وفوائده على المؤمنين في الدنيا والآخرة، بل إن كل خير في الدنيا والآخرة متوقف على تحقق الإيمان الصحيح، فهو أجل المطالب، وأهم المقاصد، وأنبل الأهداف، وبه يحيا العبد حياة طيبة سعيدة، وينجو من المكاره والشرور والشدائد، وينال ثواب الآخرة ونعيمها المقيم، وخيرها الدائم المستمر الذي لا يحول ولا يزول.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ **[الكهف، الآيتين: 107– 108]. والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة.**

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أنّ الإيمان بالغَيْبِ هو منبع العقيدة وأصلها، ومفتاح الإيمان بالله تعالى، وبما أخبرت به الرسل عليهم السلام، فمن خصائص أهل الإسلام وأهل الإيمان أنهم يؤمنون بالغيب، فإنَّ الإيمان بالغيب هو الحقيقة العظمى والقضية الكبرى التي عليها مدار الإيمان كله؛ لذلك كان أول علامة من علامات المؤمنين، وأول صفة من صفاتهم: أنهم يؤمنون بالغيب، وهذا مفرق الطريق بينهم وبين الكافرين والملحدين والمنحرفين، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾**، فليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، فنؤمن به؛ لخبر الله، وخبر**

رسوله ﷺ ، فهذا الإيمان الذي يُمَيَّز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله ﷺ ، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين بالأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تمتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومَرَجت أحلامهم.

بينما زكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، فهذا شأنُهم، وهذ ه‍سبيلهم: الإيمان والتسليم والإذعان والقبول، وعندما يكون المؤمن كذلك ترافقه السلامة، ويتحقق له الأمن والأمان، وتزكو نفسُه، ويطمئنُّ قلبُه، ويكون بعيدًا تمام البعد عمَّا يقع فيه ضُلاَّل الناس بسبب عقائدهم الباطلة من تناقض واضطراب، وشكوك وأوهام، وحَيرة وتذبذب.

ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها [1].

– والغيب: هو كل ما غاب عن العقول والأنظار من الأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وقد استأثر الله عز وجل بعلمه واختص نفسه سبحانه بذلك[2].

قال القرطبي: « واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا فقالت طائفة: الغيب في هذه الآية: الله سبحانه، وضعفه ابن العربي. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار. قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها » [3].

واختار الطبري أنَّ تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، إنما هم الذين يؤمنون بما غاب عنهم من الجنة والنار، والثَّواب والعقاب والبعث، والتصديقِ بالله ومَلائكته وكُتُبه ورسله، وجميع ما كانت العرب لا تدينُ به في جاهليّتها، مما أوجب الله جل ثناؤه على عِبَاده الدَّيْنُونة به[4].

---

(1) انظر: تفسير السعدي (ص 40).

(2) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص 69).

(3) تفسير القرطبي (252/1).

(4) تفسير الطبري (243/1).

وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان؛ لأن الإيمان بالغيب، أي: ما غاب عن الحس، هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلِّغه عن الله تعالى فسهل عليه إدراك الأدلة ، وأما مَن يَعتقِدُ أنهليس وراء عالم الماديات عالم آخر، وهو ما وراء الطبيعة فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة، كما كان حال الماديين وهم المسموْن بالدَّهْريين الملاحدة الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية، الآية: 24] .

فالإيمان بالغيب هو أساس التسليم التام لله تعالى في أمره ونهيه، وعندما يثبت هذا الإيمان في قلب المؤمن؛ لا تجده يعترض على أي شيء من الشرع المنزل، ولا يصد عنه؛ بل هو في غاية الانقياد، وتمام الانشراح لشرع الله تعالى؛ لذلك من أنكر الغيب فهو خارج من الإيمان كله، وليس في قلبه إيمان البتة، فهو ليس لديه قابليةٌ لأن يُصَدِّق بما أخبرت به الرسل، وما أُنزِل من الكتب؛ لأن أساس الإيمان بذلك هو الإيمان بالغيب. فكلما كان الإيمان بالغيب أقوى؛ كان الإيمان بالله تعالى وبما جاء من عنده أقوى وأمكنَ في قلْبِ العَبْدِ، وكُلَّما ضعُف الإيمانُ بِالغيب؛ ضعف الإيمان بالله تعالى[1].

أركان الإيمان الستة من جملة الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب يشمل الإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق ذلك الإقرار بالفعل حتى يتحقق فيهم كونهم موصوفين بالتصديق بالغيب قولا واعتقادا وعملا [2].

وهذا ما يعرف في كتب العقائد بالأصول الستة التي يقوم عليها الإيمان، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقد جاء ذكر هذه الأصول في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواطن عديدة، منها: قوله تعالى في آواخر سورة البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة، الآية: 285]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر، الآية: 49]، وهي المشار إليها في حديث جبريل عليه السلام، حين قال للنبي ﷺ : أخبرني عن الإيمان،

---

(1) تفسير التحرير والتنوير (230/1)، بتصرف يسير.

(2) انظر: تفسير الطبري (241/1)

قال: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.» [1]، وهي أصول مترابطة متلازمة، لا تنفك عن بعضها، فالإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها، والكفر ببعضها كفر بها كلها [2].

ثمرات الإيمان بالغيب وأثرها على الاستقرار النفسي والروحي في حياة المسلم:

إنّ الإيمان بالغيب دليل على اتساع العقول، وسلامة القلوب، إذ أن معنى الإيمان بالغيب هو أن عقولهم قد سلم إدراكها، وتقشعت عنها غشاواتها، وامتد نظرها في الكائنات فأدركت أن لها مبدعاً حكيماً وخالقاً قديراً، جعلها تسير بنظام محكم، فهذه كواكب تظهر وتغيب، وسماء مرفوعة بغير عمد، وأرض راسية لا تميد ولا تضطرب .... ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل، الآية: 88]،

فكان ذلك لأولي الألباب براهين قاطعة على وجود خالق مدبر، وحكيم قدير، ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم.

والإيمان بالغيب الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ يقوى ويعظُم كلما قوى الإيمان في القلوب، واستولى الصفاء على النفوس، وقد مدح النبي ﷺ المؤمنين بالغيب في أحاديث متعددة، منها ما جاء عن أبي عبيدة بن الجراح [3] أنّه قال : « يَا رَسُولُ الله، هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا ؟ أَسَلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكْ ». قال : « نَعَمْ قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي، وَلَمْ يَرَوْنِي » [4]، وهذه ميزة فاضلة ودلالة على عظم الأجر من هذه الحيثية لمن آمن بالرسول ﷺ واتبع هديه بعد وفاته [5].

قال السيد قطب:

« الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان / باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (36/1)، (ح: 1).

(2) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص 8 وما بعدها)، والجامع لأحكام القرآن (252/1).

(3) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح أمين هذه الأمة، المشهور بكنيته، من العشرة المبشرين بالجنة من السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ . توفي بالطاعون سنة 18هـ، وعمره ثمان وخمسون سنة.

« انظر: أسد الغابة (125/3)، والإصابة (11/4) ».

(4) مسند الإمام أحمد (182/18)، (ح: 16976)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (1771/3) (ح: 6282).

(5) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (43/1)، وتفسير ابن كثير (267/1).

الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقاق بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده ... حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه؛ فإن الطاقة الفكرية التي وُهِبَها الإنسان، وُهِبَها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة تنظر فيها، وتتعمقها وتتقصاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجملها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول.

فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول هي محاولة فاشلة أولا، ومحاولة عابثة أخيرا؛ فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال، وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال ... ومتى سلم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه – احتراما لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل؛ وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون؛ وأن عليه أن يَكِل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل؛ وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين» [1].

---

(1) في ظلال القرآن (1/39– 40)، بتصرف يسير.

مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله:

قال الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ **[الأنعام، الآية: 59].**

هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها [1].

وقد جاء بيان هذه المفاتيح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان، الآية: **34]، وقال رسول الله ﷺ : « مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللَّهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ اللَّهُ » [2].**

ذكر أهل التفسير أنَّ حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة لا يستلزم اقتصار الغيب عليها، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله تعالى داخل فيما استأثر المولى سبحانه بعلمه، وإنما خصت هذه الخمسة بالذكر لأنها من أهم المغيبات المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم وجاء التعبير عنها بالمفاتح؛ لأنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت لكان وقوعها فتحاً لما كان مغلقاً، وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت ويمكن لبعضهم تعيينها مثل تعيين مواقيت العبادات والأعياد، أما في العوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة، وليست لها مفاتح عِلم في هذا العالم [3].

---

(1) تفسير السعدي (ص 259).

(2) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا و إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (379/4)، (ح: 7379).

(3) انظر: التحرير والتنوير (198/21)، والتفسير الوسيط، للطنطاوي (135/11).

فإذا تقرر هذا في النفوس المؤمنة كانت محصنة من تصديق الدجاجلة والكذابين المدَّعين لعلم الغيب المفترين على الله، الذين ضلوا في أنفسهم وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل، المعتمدين على السحر والتنجيم الكهانة وقراءة الكف والفنجان، وغيرها من الأمور الشركية الخطيرة التي تكون سببا في وقوع بعض الناس في الكفر المخرج من الملة والعياذ بالله.

– ثانيا: إقامة الصلاة.

من صفات المفلحين التي وردت في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾،

ومعنى إقامة الصلاة: أنهم يؤدونها في أوقاتها المقدرة لها، مع تعديل أركانها، وإيقاعها مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها، فلم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهرا بإتمام أركانها وواجباتها، وشروطها، وإقامتها باطنا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

فإن الصلاة المقامة بحق هي تلك التي يصحبها الإخلاص، واستحضار جلال الله في الركوع والسجود، وهي التي تترتب عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس، وعفافها، وتركها لكل الشرور والآثام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت، الآية: 45]، وقدم الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة تعظيماً لعمل القلب، واعتداداً بشرطية الإيمان في صحة أعمال الجوارح، وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنها تتكرر في اليوم خمس مرات، ولأنها صلة بين العبد وربه، والإنفاق صلته بالناس، ولأن مشروعيتها كانت سابقة على مشروعية الزكاة [1].

فالصلاة عظيم شأنها، رفيع ذكرها، عالية مكانتها، وهي الركن الثاني والعمود الذي يقوم الإسلام عليه بعد الشهادتين، كما قال النبي ﷺ: « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ » [2]، وقال عليه السلام: « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ » [3].

---

(1) انظر: تفسير السعدي (ص 41)، والتفسير الوسيط، للطنطاوي (135/11).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الإيمان / باب دعاؤكم إيمانكم (20/1)، (ح: 8)، ومسلم في كتاب الإيمان/ باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (1/ 45)، (ح: 21). انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (3/1).

(3) سبق تخريجه (ص 89).

والصلاة هي أم العبادات، وأفضل الطاعات، ولذلك جاءت نصوص الكتاب والسنة بإقامتها والمحافظة عليها والمداومة على تأديتها في أوقاتها، فقد سُئِل نبينا ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا» [1]، وكانت آخر وصايا رسول الله ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى: « الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ، اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » [2].

فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله؛ لأنه افتتحها بالتوحيد، والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله، وثناء عليه، وتمجيد له، ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع، والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله، وتعظيم له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها، وسجودها؛ خشوعا له، وتواضعا، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع، ورفع الرأس؛ تعظيما لله، وإجلالا له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله؛ تذللا له، وإذعانا بالعبودية [3].

ولما كانت المحافظة الصلوات، وإقامتها بشروطها وآدابها من أهم صفات المفلحين بعد الإيمان بالغيب؛ ارتبط فلاح العباد في الدنيا والآخرة، ونجاحهم في مسعاهم بصلاح صلاتهم وكمالها، فقد قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ؛ صَلاَتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ؛ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ؛ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ» [4].

فمن وفقه الله لأداء فريضة الصلاة على الوجه المطلوب، نجا من سوء العقاب، وفاز بحسن الثواب، وأمّا من ضَيَّعها ولم يحافظ عليها؛ فقد خاب مسعاه، وخسر دنياه وأخراه، وحشر في النار مع الكفرة الفجرة. قال النبي ﷺ : « مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيٍّ بْنِ خَلَفٍ » [5].

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان / باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (89/1)، (ح: 137).

(2) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب / باب في حق المملوك (226/5)، (ح: 5156)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (265/3).

(3) تعظيم قدر الصلاة (268/1).

(4) أخرجه الترمذي: كتاب أبواب الصلاة / باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (269/2)، (ح: 413)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (237/1).

(5) مسند الإمام أحمد (141/11)، (ح: 6576)، وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط، والألباني.

انظر: مشكاة المصابيح (183/1) (ح: 578).

– ثالثا: الإنفاق في سبيل الله.

من الصفات المحمودة التي مدح الله جل ثناؤه عباده المفلحين أنهم ينفقون مما رزقهم الله تعالى.

المعاني اللغوية:

الرزق: مصدر رَزَقَ-يَرْزُقُ رَزْقًا ورِزْقًا، فالرَّزْقُ بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم وجمعه أرزاق، فيطلق ويراد به تارة العطاء، ويكون دنيويا وأخرويا، وتارة الحظ والنصيب، وهو أصله في اللغة. [1]
والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للانتفاع به حلالا كان أو حراماً، ويشمل جميع ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم التي يسد بها ضروراته وحاجاته وَينال بها مُلائَمه، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة في الحياة من الأطعمة والأنعام والحيوان والشجر المثمر والثياب، وما يقتني به ذلك من النقدين[2].
والإنفاق: هو إخراج المال وإنفاده وصرفه، يقال-نَفَق، أي: نفد وفني، أو قلّ. وأنفق ماله: أنفده، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب [3].
قال ابن عاشور: ((الإنفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال، ومن يُرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس)) [4].

مدلولات لفظي الرزق والإنفاق ومضامينها في الآيتين:

كما هو معلوم في تاريخ التشريع الإسلامي أنّ الإنفاق شُرِع قبل الزكاة التي فرضت في السنة الثانية للهجرة، فهو الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة.
والمعنى المقصود في الآيتين: أنّ المفلحين موصوفون بجميع معاني النفقات المحمودِ عليها صاحبُها من طيّب ما رزقهم رَبُّهم من أموالهم وأملاكهم، وذلك يخص الحلال منه الذي لم يَشُبْهُ حرام، فيشمل الزكاة والصدقة، وسائر ما ينفق في وجوه البر [5].

---

(1) تفسير القرطبي (273/1)، وعمدة الحفاظ (87/2).
(2) التحرير والتنوير (234/1– 235)، والتفسير الوسيط، للطنطاوي (44/1).
(3) البحر المحيط (163/1).
(4) التحرير والتنوير (235/1).
(5) انظر: تفسير ابن كثير (108/10)، وتفسير الطبري (250/1)، وفقه الزكاة (ص 70).

ولم يذكر المنفق عليهم، لكثرة أسبابه وتنوع أهله؛ فالإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب من الفقراء وأهل الحاجة، ويشمل ذلك تسديد نوائب المسلمين وحوائج الأمة كتجهيز الجيوش، وحفر الآبار، وبناء المساجد، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، فبعضه محدد، وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية الضرورية أو الحاجية، وهذا مفصل في تضاعيف الأحكام الشرعية في كتب الفقه [1].

أوجه الإعجاز البياني والتشريعي في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾:

- أتى بـ " من " الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيرا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم، وللإشعار بأنهم ينفقون بعض أموالهم مبتعدين عن الإسراف والتبذير؛ حتى لا يتركوا ورثتهم عالة يتكففون وجوه الناس[2].

- في إسناد فعل (رزقنا) إلى ضمير الله تعالى؛ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذي في أيديهم هم من رزق الله لهم، لا من خلق أنفسهم؛ ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق، والتضامن بين عباد الخالق، والشعور بالآصرة الإنسانية، وبالأخوة الإيمانية؛ فيتجلى ذلك بتطهير النفس من الشح، وتزكيتها بالبر بالتصدق ببعض ما أنعم الله لمواساة إخوانهم من المعدومين، وقيمة هذا كله في تبيين أن الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تهتم للفقير والعاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون في مجتمع أفراده متآزرون متحابون، لا يؤمن أحدهم حتى يحب لأخيه من الخير كما يحب لنفسه، وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحض على الإنفاق في وجوه الخير، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحا عظيما في عشرات الآيات؛ وذلك لأن الأمة التي يكثر فيها المنفقون في وجوه البر، لابد أن تعز كلمتها، وتسلم من كوارث شتى، كالجهل والفقر والمرض، فببذل المال تسد حاجات البؤساء، وتشيد معاهد التعليم، وتقام وسائل حفظ الصحة، وتنمو المحبة والمودة بين الفقراء والأغنياء [3].

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (235/1)، وتفسير ابن كثير (270/1).

(2) انظر: تفسير السعدي (ص 41)، والتفسير الوسيط (44/1).

(3) التحرير والتنوير (235/1)، وفي ظلال القرآن (40/1)، والتفسير الوسيط (44/1).

- المقصود في الآية: الرزق بمفهومه الشامل الواسع، بخلاف ما يظنه كثير من الناس أن الرزق مقصور على المال؛ لأن الرزق يعم جميع ما ينتفع به، فالقوة رزق، والعلم رزق، والحكمة رزق، والتواضع رزق ... وكل ما فيه حركة للحياة رزق، فإن لم يكن للإنسان مال لينفق منه فعنده عافية يعمل بها ليحصل على المال، ويتصدق به على العاجز والمريض، وان كان عنده حلم، فإنه ينفقه بأن يحمي نفسه من تصرفات قد تؤذيه وتؤذي المجتمع، وان كان عنده علم بذله لتعليم الجاهل ... وهكذا فإنَّ قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ تستوعب جميع حركة الحياة [1].

- وقال: " ينفقون "، ولم يقل أنفقوا؛ ليبين بأن الإنفاق منهم يتجدد بين وقت وآخر، ولم يحدد وجوه الأنفاق، بل تركها مطلقة؛ لتشمل الفرض والواجب وغيرهما من وجوه الإحسان[2].

- وقد بيّن المولى سبحانه أنّه من يفعل ذلك مبتغيا وجه الله، فأولئك هم المنجحون، المدركون طلباتهم عند الله، الفائزون بما ابتغوه والتمسوه من نفقاتهم.

قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم، الآية: 38].

فذلك الإيتاء خير وأبقى عند الله تعالى للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله، ويُقَدِّمون الفقراء والمحتاجين من ذوي القرابة والرحم؛ فأولئك هم الكاملون في الفلاح، والظافرون بالخير في الدنيا والآخرة، فيثيبهم الله تعالى مرتين، على إعانة المحرومين، و على بر الأرحام وصلتهم[3]؛ بخلاف أهل الجاهلية الذين يعطون الأغنياء البعداء للرياء والسمعة، فأولئك لا يتقبل الله منهم، ولن ينالوا ثواب ما أنفقوه؛ فمن آتى للرياء والفخر فلا فلاح له من إيتائه [4].

---

(1) تفسير الشعراوي (ص 129).

(2) التفسير الوسيط (44/1).

(3) كما ثبت في الصحيحين من قصة زينب امرأة عبد الله بن مسعود في سؤالها عن إنفاقها على زوجها وأيتامها، فقال النبي ﷺ : « لَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَالصَّدَقَةِ ». انظر: البخاري (ح: 1466)، ومسلم (ح: 1000). وفي مسند الإمام أحمد، قال ﷺ : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ». (ح: 16233)، والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ح: 892).

(4) انظر: تفسير الطبري (502/18)، والتحرير والتنوير (104/21– 105).

الحكمة في وصف المفلحين بهذه الصفات دون غيرها:

لقد تجلت حكمة الله تعالى في وصف أهل الفلاح بهذه الفضائل لم تحقق ه من معاني التقوى، وصدق الإيمان من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله؛ وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعارَ المسلمين وهي دليل على استقرار الإيمان في نفوسهم؛ لأن الإيمان لَمَّا كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه بقيامه بعظائم الأعمال التي تبين آثاره، ومن ذلك ملازمة إقامة الصلوات فهي دليل على تذكر المؤمن لربه، وبذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله سبحانه، فإنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أقدم المشروعات وهما أختان في كثير من آيات القرآن.

والعبادات إمّا بدنية، وأجلها الصلاة وهي برهان على امتلاء القلب بنور الذكر؛ لما فيها من الخضوع وإظهار العبودية لله تعالى، وهي شكر لنعمة البدن وطهرة له.

وإمّا مالية، وأجلها الزكاة وهي دليل على سمو النفس وعزتها، فبالرغم من كون الأنفس مجبولة على الشح وحب المال حبا جما غير أن المؤمن سخي كريم في بذل الأموال في أبواب الخير، ما يعود بالنفع والبركة على نفسه ومجتمعه، فالزكاة شكر لنعمة المال وطهرة له [1].

وقد قيل: في الإيمان النجاة، و في الصلاة المناجاة، و في الإنفاق زيادة الدرجات، وقال آخرون: في الإيمان البشارة، و في الصلاة الكفارة، و في الإنفاق الطهارة [2].

لذلك فإنّ أعظم ما لله على الأبدان من الحقوق الصلاة، وفي الأموال الزكاة، وكثيرا ما يجمع الله تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان إلى عبيده، فعنوان سعادة العبد الإخلاص للخالق والإحسان للمخلوقين [3].

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (1/236– 237).

(2) تفسير المراغي (1/43).

(3) تفسير السعدي (ص 41).

وقد بشّر النبي ﷺ أمته بالجنة وضمن الفلاح لمن أتى بالصلوات والزكاة مع سائر شرائع الإسلام، فمن حديث طلحة بن عبيد الله [1] قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، نسمع دوي صوته، ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ ، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ)) فقال: هل علي غيرهن ؟ قال: ((لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ))، فقال: هل علي غيره ؟ فقال: ((لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ))، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل علي غيرها ؟ قال: ((لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ))، قال: فأدبر الرجل، وهو يقول: والله، لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه، فقال رسول ﷺ : ((أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ))، وفي رواية: ((دَخَلَ الجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ)) [2].

– قال ابن عبد البر [3]: ((ففيه دليل – والله أعلم – على أن من أدى فرائض الله، وجبت له الجنة إذا اجتنب محارمه؛ لأن الفلاح معناه البقاء في نعيم الجنة التي أكلها دائم وظلها، وفاكهتها لا مقطوعة ولا ممنوعة؛ وعلى أداء فرائض الله واجتناب محارمه، وعد الله المؤمنين بالجنة. والله لا يخلف الميعاد)) [4].

– قال ابن القيم: ((وهذا الصنف من طبقة أهل النجاة، وه ي طبقة من يؤدي فرائض الله، ويترك محارم ه،مقتصرا على ذلك، لا يزيد عليه ولا ينقص منه. فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه، ولا يزيد على ما فرض عليه، وهذا من المفلحين بضمان رسول الله لمن أخبره بشرائع الإسلام، فقال: والله لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه. فقال: ((أفلح إن صدق)). وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء، الآية: 31])) [5].

---

(1) الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو القرشي التيمي، وكنيته أبو محمد، ويعرف بطلحة الخير وطلحة الفياض، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين على الإسلام، وأحد الستة من أصحاب الشورى، لم يشهد بدرا لأنه كان في تجارة بالشام، وشهد أحدا وما بعدها من المشاهد وأبلى فيها بلاء حسنا، قُتِل رضي الله عنه في وقعة الجمل سنة 36هـ، وعمره 64 سنة.
((انظر: أسد الغابة (84/3)، والإصابة (290/3))).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الإيمان/ باب الزكاة من الإسلام (31/1)، (ح: 46)، ومسلم في كتاب الإيمان/ باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (1/ 40)، (ح: 8). انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (2/1).

(3) ابن عبد البر: الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، المالكي، صاحب التصانيف الفائقة، من أشهرها: ((التمهيد)) و((الاستذكار)) في شرح موطأ مالك، و((الاستيعاب)) في تراجم الصحابة. ولد سنة 368هـ، وتوفي سنة 463هـ. ((انظر: سير أعلام النبلاء (153/18)، والديباج المذهب (ص 440))).

(4) التمهيد (174/16).

(5) طريق الهجرتين (ص 825– 826).



المطلب الثاني: اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ وطاعته.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **[الأعراف، الآية: 157– 158].**

وقال جلّ جلاله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ **[النور، الآية:51– 52].**

إنّ اتباع الرسول ﷺ وطاعته فيما أمر به ونهى عنه من أهم صفات عباد الله المفلحين، وقد جاء هذا مبينا في قوله الله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾**، وهذه الآية وردت في سياق أحوال بني إسرائيل، وبيان أنّ رحمة الله الواسعة إنّما هي لأمة الإسلام، وهم أتباع النبي الأمي محمد عليه السلام ، وجاء وصفه بالأمي، وهو من لا يعرف الكتابة والقراءة. وهذا الوصف اختص به خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ دون غيره من الرسل؛ إتماماً للإعجاز العلمي العقلي الذي أيده الله به، فجعل الأمية وصفاً ذاتياً له، ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة؛ ليظهر أنَّ كماله النفساني كمالٌ لدُنّي إلهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع أنها في غيره وصف نقصان؛ لأنه لما حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات الحق، وكان على يقين من علمه، وبينة من أمره، ما هو أعظم مما حصل للمتعلمين، صارت أميته آية على كون ما حصل له إنّما هو من فيوضات إلهية [1].**

---

(1) انظر: تفسير الطبري (488/10)، والتحرير والتنوير (133/9).

ومن أعظم وأجل ما جاء في دعوة نبي الإسلام والرحمة، أنه يأمر بالمعروف، وهو كل ما استقر حسنه وصلاحه وبان نفعه، وينهى عن المنكر، ويشمل كل ما عرف قبحه في العقول والفطر.

فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم ما يدل على أنه رسول من عند الله تعالى، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحله وحرمه، فإنه يحل لهم الطيبات من المطاعم والمشارب، والمناكح، ويحرم عليهم الخبائث من المطاعم والمشارب والمناكح، والأقوال والأفعال.

ومن وصفه أنه بعث بالحنيفية السمحة،فدينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه، ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

وقال تعالى في وصف أتباعه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظموه وبجلوه، ﴿ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح. وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعزره، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

وفي هذه الآية دليل على أن الأمة المحمدية أفضل الأمم على الجملة، وأنهم الذين تنالهم الرحمة الإلهية التي تسع كل شيء من شؤونهم. وفيها تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم، ويُلحق بهم من نصر دينه بعدهم [1].

---

(1) انظر: تفسير السعدي (ص 305)، والتحرير والتنوير (9/138– 139).

حقيقة اتباع الرسول ﷺ :

الاتباع لغة:

الإِتْبَاعُ والاتِّبَاعُ مصدر الفعل تَبِعَ المأخوذ من مادة (ت ب ع)، وتدل هذه المادة للتُّلُوِّ والقَفْوِ.
يقال: تبعتُ فلانا إذا تلوتُه واتّبعتُه. وأتبعتُه إذا لحقتُه. ويقال: أَتْبَعَهُ، أَيْ: حَذَا حَذْوَهُ. وتَبِعْتَ القوم تبَعاً، إذا مشيتَ خلفهم أو مرّوا بك فمضيت خلفهم.
وتَّبَعَ القُرْآنَ: ائْتَمَّ به وعَمِلَ بما فيه. وتبِعْتُ الشيء: سِرْتُ في أثره، والتابع التالي، والجمع تُبَّع، وتُبَّاع، وتَبَعَة. والتَّبْعُ اسم للجمع[1].

الاتباع اصطلاحا:

قال الطاهر بن عاشور: ((الاتباع في الأصل: اقتفاء أثر الماشي، ثم استعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ [التوبة، الآية: 100]، ثم استعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع فهو الائتمار، وإطلاق الاتّباع بمعنى الائتمار شائع في القرآن؛ لأنّه جاء بالأمر والنّهي، وأمر النّاس باتّباعه)) [2].

ومما يقترب من هذا المعنى الأسوة والقدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتّباع غيره إن حسنا وإن قبيحا، وإن سارا وإن ضارا، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ ﴾ [الأحزاب، الآية: 21]، فوصفها بالحسنة، ويقال: تأسى به إذا اتبع فعله واقتدى به، وائتس به، أي: اقتد به وكن مثله.

والاتباع تارة يكون بالجسم، وتارة بالارتسام، والائتمار، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس، الآية: 20– 21] [3].

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة (362/1)، ولسان العرب [مادة: تبع] (416/1)، وتاج العروس (380/20).
(2) التحرير والتنوير (423/7– 424).
(3) انظر: المفردات غريب القرآن (ص 18 و72)، وبصائر ذو التمييز، للفيروزآبادي (99/2– 293).

وعرفه الإمام أحمد[1] بقوله: ((هو أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير)) [2].

فاتباع الرسول ﷺ هو الاقتداء به واقتفاء آثاره والتأسي به فيما أمر به، وفيما نهى عنه، فيشمل اتباع سنته عليه السلام في الفعل والترك.

قال أبو الحسين البصري[3]: ((فأمّا اتباع النبي ﷺ فقد يكون في القول، وقد يكون في الفعل، وقد يكون في الترك؛ فالاتباع في القول هو المصير إلى مقتضاه من وجوب أو ندب أو حظر لأجله، والاتباع في الفعل أو في الترك هو إيقاع مثله في صورته على وجهه؛ لأجل أنه أوقعه)) [4].

وقال شيخ الإسلام بن تيمية[5]: ((... ونحن مأمورون باتباعه صلى الله عليه وسلم، وذلك بأن نصدقه في كل ما أخبر به، ونطيعه في كل ما أوجبه وأمر به، لا يتم الإيمان به إلا بهذا وهذا.

ومن ذلك أن نقتدي به في أفعاله التي يشرع لنا أن نقتدي به، فما فعله على وجه الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة نفعله على وجه الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة، وهو مذهب جماهير العلماء، إلا ما ثبت اختصاصه به ....)) [6].

---

(1) الحافظ الحجة شيخ الإسلام، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذهلي، الشيباني، المروزي، ثم البغدادي. ولد سنة 164هـ، اشتهر بثباته في محنة القول بخلق القرآن مع خلفاء الدولة العباسية، ولحقه الأذى الشديد بسبب ذلك، فحفظ الله به الدين، وخرج من محنته معززا مكرما، وكان من أشد الناس حرصا على السنة واقتفاء الآثار، انتشر مذهبه في الآفاق ثم استقر في بلاد الحجاز، من أشهر مؤلفاته: ((المسند))، جمع فيه نحوا من أربعين ألف حديث، ومات ولم ينقحه. توفي سنة 241هـ، وشهد جنازته جموع لم يُرى لها مثيل.

((انظر: سير أعلام النبلاء (178/11)، وطبقات الحفاظ (ص189))).

((ومن المصنفات التي ذكرت ترجمته وافية : مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، وابن حنبل حياته وعصره، لأبي زهرة)).

(2) انظر: موسوعة نضرة النعيم (10/2).

(3) أبو الحسين محمد بن علي الطيب البصري أصولي متكلم، كان من أئمة المعتزلة، له تصانيف عديدة منها : ((غرر الأدلة))، ((شرح الأصول الخمسة))، و((المعتمد في أصول الفقه)). ولد بالبصرة، وسكن ببغداد، وتوفي بها سنة 436هـ.

((انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (168/4)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (587/17))).

(4) المعتمد في أصول الفقه (374/1).

(5) هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحنبلي، ولد بحران سنة 661هـ، وانتقل مع والده إلى دمشق، فتعلم واشتهر وبرع في الفقه وأصوله والتفسير والحديث وغيرها من العلوم، كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان منها: ((مجموع الفتاوى))، و((منهاج السنة))، و((الاستقامة))، وقد أوذي وامتحن مرارا، وسجن بقلعة القاهرة والإسكندرية، وبقلعة دمشق وتوفي بها سنة 728هـ.

((انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (1496/4)، والدرر الكامنة، لابن حجر (144/1))).

(6) مجموع الفتاوى (222/27).

أهمية اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ:

إنّ من نعم الله الجليلة على عباده أن بعث إليهم محمدا ﷺ خاتم النبيين، وأرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعَلَّم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عُمْيًا، وآذانًا صُما، وقلوبًا غُلْفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، أرسله على حين فَتْرة من الرسل، ودروس من الكتب حين حُرِّف الكلم، وبُدِّلت الشرائع، واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وأبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وجعله قسيم الجنة والنار، وفَرّق ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته [1].

وافترض على العباد طاعتَه وتعزيره وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه، وسدَّ دون جنَته الطرق، فلن تفتح لأحد إلا من طريقه؛ فبِحَسب متابعة الرسول ﷺ تكونُ العزَّة والكفاية والنُّصرة، كما أن بحسب متابعته تكونُ الهدايةُ والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شَقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاحُ والعزَّة، والكفاية والنصرة، والوِلاية والتأييد، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذِّلةُ والصَّغار، والخوفُ والضلال، والخِذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة [2].

ومن هاهنا تظهر حاجة العباد إلى معرفة الرسول ﵇، واتباع ما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على يد الرسول ﷺ، ولا سبيلَ إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا مِن جهته، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على يديه، فالطَّيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق، ليس إلا هديه وما جاء به، فهو الميزانُ الراجح الذي على أقواله وأعماله وأخلاقه تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعته يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليه أعظمُ مِن ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فإنَّ كُلَّ خير في الوجود؛ إما عام، وإما خاص فمنشأه من جهة الرسول ﷺ، وأن كل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول ﷺ، أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة [3].

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (**56/19**).

(2) انظر: زاد المعاد (**37/1**).

(3) انظر: زاد المعاد (**69/1**)، ومجموع الفتاوى (**52/19**).

فالرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، فهي روح العَالَمِ ونوره وحياته، فأي صلاح للعالَمِ إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾ [الأنعام، الآية: 122]، **فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب، في الظلمات، وسمى الله تعالى رسالته روحًا، والروح إذا عُدِم فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى، الآية: 52]، **فذكر هنا الأصلين، وهما: الروح، والنور.**

وكذلك يضرب الله الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد، الآية: 17]، **فشبه العلم بالماء المنزل من السماء؛ لأن به حياة القلوب كما أن بالماء حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية؛ لأنها محل العلم.**

وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب؛ فإنَّ آخر ما يُقَدَّرُ بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا تُرْجى الحياة معه أبدًا، أو شَقِي شقاوة لا سعادة معها أبدًا، فلا فلاح إلا باتباع الرسول، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف، الآية: 157]، **أي: لا مفلح إلا هم، فخص هؤلاء بالفلاح، كما خص المتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم، ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله، وما أنزل من قبله، ويوقنون بالآخرة وبالهدى والفلاح، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح مرتبط ارتباطا وثيقا باتباع الرسول ﷺ والاقتداء بسنته، والتزام هديه في جميع الأمور** [1].

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (19/52، 53، 54)، باختصار.

فإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ، فيجِب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يجعله قدوته ويتبع هديه، ويقتفي أثره؛ ليدخل بذلك في عِداد أتباعه وحِزبه، والناس في هذا بين مستقِل، ومستكثِر، ومحروم، والفضلُ بيد الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم [1].

مظاهر اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ:

إنّ اتباع النبي ﷺ لابد من ترجمته إلى واقع عملي يسري في جميع مناحي الحياة، ويكون مقترنا بشواهد تؤكده ومظاهر عملية تحدده، وبدونها يصير الاتباع دعوى مجردة عن الدليل؛ فلا يصير المسلم مسلما حتى يتبع الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله حسب علمه واستطاعته، فإن اتباعه ﷺ من مقتضى شهادة لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، ولا يتم ذلك إلا بطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع [2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وأمّا الإيمان بالرسول، فهو المهم؛ إذ لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه، إذ هو الطريق إلى الله سبحانه، ولهذا كان ركنا الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)) [3].

وفيما يلي بعض مظاهر الاتباع التي إذا تحققت؛ تحقق الاتباع وصدقت المحبة لرسول الله ﷺ.

أولا: الاقتداء بالنبي ﷺ والتأسي به:

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب، الآية: 21].

قال ابن كثير: ((هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أُمِر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ ، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين)) [4].

---

(1) زاد المعاد (1/69– 70).

(2) انظر: الأصول الثلاثة وأدلتها (ص 15).

(3) مجموع الفتاوى (7/338).

(4) تفسير ابن كثير (11/133).

والسبيل العملي للتأسي بالرسول ﷺ هو تطبيق السنة في حياة الفرد والجماعة تطبيقا شاملا لكافة جوانب الدين من اعتقادات وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وآداب، ونظم اجتماعية، وإدارية، وسياسية شرعية، ومما يعين على تطبيق السنة؛ إحياؤها بنشر العلم الشرعي الموروث عن رسول الله ﷺ، ونشره في أوساط المجتمع.

ثانيا: طاعته ﷺ والحذر من مخالفة سنته:

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران، الآية: 31– 32]،

هذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمرتها: الصدق في اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فاتباع الرسول ﷺ دليل على صدق دعوى محبة الله تعالى، ومن أحبه الله؛ غفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول ﷺ يكون إيمانهم وحبهم لله سبحانه.

ثم أمر الله تعالى عباده بطاعته وطاعة رسوله التي يدخل فيها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، كما يشمل ذلك اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالا لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون، وأمّا الذين تولوا فهم الذين يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأنَّ في هذه الآية الكريمة بيان وتفسير لاتِّبَاع الرسول، ولا يتم ذلك إلا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فهذا هو الاتباع الحقيقي[1].

بل جعل الله تعالى طاعة رسوله من طاعته سبحانه، قال عز وجل: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء، الآية: 80]، وقال عليه السلام: « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ »[2].

وجاء التحذير في القرآن لمن خالف أمر الرسول ﷺ ، وتوعده الله بالفتنة، والعذاب الأليم.

---

(1) انظر: تفسير السعدي (ص 128).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الأحكام/ باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء، الآية: 80]، (328/4)، (ح: 7137)، ومسلم في كتاب الإمارة / باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (1466/3)، (ح: 1835). انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (245/2).

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
[النور، الآية: 93]

والمعنى: فليحذر وليخْشَ من خالف السنة النبوية والهدي المحمدي أن تصيبه الفتنة، فإنّ ذلك سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم، بحكم صريح هذه الآية.

وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة [1] أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد، فذكروا الكفر، والقتل، والاستدراج بالنعم، وقسوة القلب من عقل المعروف والمنكر، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئا.

والمراد بِأَمْرِ رسول الله ﷺ هنا: سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فينبغي وزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله، كائنا ما كان، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » [2].

ومن أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد لله بها على ما مضى من سنته فيها، وإحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرّت عليه ﷺ ولم يتعبد بمثل ذلك المُحْدَث فيها.

وكلا هذين زيادة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول الله ﷺ و سبق إلى فضيلة قصّر رسول الله ﷺ عنها. وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء، مع ما يجر إليه من بلايا أخرى[3].

---

(1) ذكر العالم الرباني والمصلح الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس في تفسيره عن الإمام جعفر الصادق: « أنَّ من أعظم الفتنة تسلط أئمة الجور الذين أفسدوا القلوب والعقول والأخلاق والأعمال، وبسببهم انحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك. ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه. هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها– ويدين بحسب ظواهر– دينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء !! وهذا حق لا يماري فيه أحد فإنَّ أعظم ما لحق الأمة الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على السلاطين الجائرين منها ومن غيرها. ويشهد بهذا تاريخ الأمة في الماضي والحاضر » اهـ .

انظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص **338**).

– قلتُ: صدق الشيخ ابن باديس – رحمه الله تعالى– فيما ذكره، وكأنه يعيش واقعنا المرير الذي تُقتّل فيه الشعوب المسلمة وتستباح دماؤهم على أيدي الحكام الظلمة !! وما جرى ويجري لإخواننا المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية كسوريا ومصر واليمن وليبيا، ليس بخاف على أحد !؟. فالله المستعان، وإليه المشتكى.

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري (ح: **2697**)، ومسلم (ح: **1718**).

(3) انظر: تفسير ابن باديس، المعروف بمجالس التذكير (ص **337– 338**).

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [النساء، الآية: 13– 14].

بيّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ من يطيع ورسوله فيما أمر به من الشرائع والأحكام فجزاؤه أنه يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار، أنهار العسل واللبن والخمر والماء.

وما ذُكِر من دخول الجنة الخالدة الباقية بمن فيها هو الفوز العظيم، والفلاح الذي ليس بعده فلاح. ومن يعص الله تعالى ورسوله بتعد الحدود وانتهاك الحرمات، ومات على ذلك فجزاؤه أن يدخله ناراً يُخلَّد فيها وله عذاب مهين. والعياذ بالله من عذابه وشر عقابه[1].

وقال جلّ جلاله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر، الآية: 7]

هذه الآية قاعدة في مصدر تلقي الشريعة، وهي تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، والتي تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، فليس للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء، وكل ما تشاء، فإنّ مصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ.

والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة؛ فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع، فسلطان القانون في الإسلام مستمد مما جاء به الرسول ﷺ قرآناً، أو سُنَّة [2].

---

(1) انظر: أيسر التفاسير (1/447– 448)، والتفسير الوسيط (3/76).

(2) انظر: تفسير الظلال (6/3525).

ثالثا: وجوب التحاكم إليه، والرضى بحكمه ﷺ:

إنَّ ما يؤكد صدق الاتباع لرسول الله ﷺ الانقياد لسنته والتحاكم إليها، والرضى التام بذلك، الذي يثمر اطمئنان النفس وانشراح الصدر.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾
[النساء، الآية: 59]

أمر الله في هذه الآية المؤمنين برد قضاياهم وما تنازعوا فيه إلي كتابه وسنة نبيه ﷺ ، وهذا يشمل جميع ما اختلفوا فيه وتجادلوا عليه من أمور الدين والدنيا، ويعمُّ مختلف المتنازعين من ولاة الأمور بعضهم مع بعض، كتنازع الوزراء مع الأمير، ويشمل تنازع الرعية مع ولاة أمورهم، كما يشمل تنازع العلماء بعضهم مع بعض في الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد والنظر في أدلة الشريعة.

ومعنى الردّ إلى الله: هو الردّ إلى كتابه العزيز. وأمّا الردّ إلى الرسول ﷺ يكون بإنهاء الأمور إليه وسؤاله في حياته وحضرته، فأمّا بعد وفاته أو في غيبَتِه، فالردّ إليه يكون بالرجوع إلى أقواله وأفعاله، والاحتذاء بسُنّته، فقد ثبت عنه ﷺ قوله: « أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلاَلاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ »[1].

ثم أعلمهم أن ذلك خير لهم حالاً ومآلا؛ في الدنيا لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة متحابة متعاونة، وأحسن عاقبة في الأخرى بعظيم الثواب وخير الجزاء.

وفي الأمر بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله دلالة صريحة على أنهما كافيان لفصل النزاع وتقديم الحل لكل مشكلة تقع بين المسلمين[2].

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب العلم / باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (38/5)، (ح: 2664)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (64/3).

(2) انظر: التحرير والتنوير (99/5– 100)، وأيسر التفاسير (497/1– 498).

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء، الآية: 65] [1].

أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الانصياع، ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.
فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان؛ فمَن استكمل هذه المراتب وكمَّلها، فقد استكمل مراتب الدين كلها [2].

قال السيد طنطاوي[3]: « والمتأمل في الآية الكريمة يراها قد بينت أن المؤمن لا يكون إيمانه تاما؛ إلا إذا توفرت فيه صفات ثلاث: أولها: أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في حياته، وإلى شريعته بعد وفاته.
وثانيها: أن يتقبل حكم الشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ برضا وطيب خاطر، وأن يوقن إيقانا تاما بأن ما يقضي به هو الحق والعدل. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾.
وثالثها: أن يذعن لأحكام شريعة الله إذعانا تاما في مظهره وحسه. قال تعالى: ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

---

(1) روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات، منها ما جاء في البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أنّ رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل – أي: في مسيل مياه – فقال الأنصاري: « سرح الماء يمر ». فأبى عليه. فاختصما عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: « اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك ». فغضب الأنصاري، فقال: « أن كان ابن عمتك ؟ » فتلون وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال: « اسق يا زبير، ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » – والجدر هو ما يدار بالنخل من تراب كالجدار– فقال الزبير: « والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ».

صحيح البخاري: كتاب الشرب والمساقاة / باب سَكْرِ الأنهار (164/2)، (ح: 2360).

وانظر: أسباب النزول، للواحدي (ص 302).

وهذا السبب الخاص في نزول الآية الكريمة لا يمنع عمومها في وجوب التحاكم إلى رسول الله ﷺ في حياته، وإلى الشريعة التي أتى بها بعد وفاته، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء.

ذكر الإمام الطنطاوي في تفسيره: أنَّ ما ذُكِر سابقا من تحاكم بعض المنافقين إلى غير رسول الله ﷺ، وما جاء في البخاري من تخاصم الزبير مع الرجل الأنصاري قد حدثت في زمن متقارب؛ فنزلت الآيات لبيان وجوب التحاكم إلى شريعة الله دون سواها. التفسير الوسيط (203/3).

(2) تفسير السعدي (ص 185).

(3) محمد سيد طنطاوي: مفتي جمهورية مصر، وشيخ الأزهر سابقا، عمل بالتدريس وتدرج في المسؤوليات حتى أصبح عميدا لكلية أصول الدين. تحصل على الدكتوراه في التفسير والحديث من كلية أصول الدين بالقاهرة. من مؤلفاته: «التفسير الوسيط للقرآن الكريم»، و«جوامع الدعاء من القرآن والسنة». « انظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير (2111/3) ».

أي: يخضعوا خضوعا تاما، فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ ﴾؛ يمثل الانقياد الباطني والنفسي، وقوله تعالى: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾؛ يمثل الانقياد الظاهري والحسي.
وهكذا نرى الآية الكريمة تحذر المؤمنين من التحاكم إلى غير شريعة الله بأسلوب يبعث في النفوس الوجل والخشية، ويحملهم على الإذعان لأحكام الله تعالى» [1].

لأجل هذا ؛ كان الرضى بحكم الرسول ﷺ وشرعه من أعظم مظاهر اتباع الرسول ﷺ ، وهو تابع للرضا بالله ربا وإلها، فمن رضي بالله ربا؛ رضي بالرسول الذي أرسله والدين الذي أنزله، ومن حصل له ذلك فهو السعيد حقا. قال ﷺ : « ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً» [2]. فإذا رضي المسلم بمحمد ﷺ رسولا لم يلتفت إلى غير هديه، ولم يعول في سلوكه على غير سنته وحكمه، وحاكم إليه، وقَبِل حكمه، وانقاد له وتابعه ولتَّبَعَه، ورضي بكل ما جاء به من عند ربه، فسكن قلبه لذلك واطمأنت نفسه وانشرح صدره، ورأى نعمة الله عليه وعلى الخلق بهذا النبي ﷺ وبدينه أعظم من أي نعمة؛ ففرح بفضل ربه عليه ورحمته به أن جعله من أتباع خير المرسلين وحزبه المفلحين [3].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [النور، الآية: 51- 52].

يخبر الله تعالى في هذه الآية عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ﷺ ، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله، فهم الذين يسمعون ويطيعون قولا وفعلا، ظاهرا وباطنا؛ فإنَّ شأن أهل الإيمان الصادقين في إيمانهم: أنهم إذا طالبهم أحد إلى حكم الله ورسوله في منازعاتهم، وإلى شرع الله ودينه أن يبادروا إلى القول: سمعنا وأطعنا؛ فاستحقوا الوصف بالفلاح والنجاة، ونيل الآمال المطلوبة، والسلامة من المرهوب [4].

---

(1) التفسير الوسيط، للطنطاوي (3/203- 204).
(2) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان / باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا (1/62)، (ح: 34).
(3) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع (ص 131- 132).
(4) انظر: تفسير ابن كثير (10/260).

وأكد الله تعالى بشارة المؤمنين بالفلاح في الآخرة والدنيا، بالفوز بكل خير، والأمن من كل شر، في الدنيا والآخرة، فكل من يطيع الله ورسوله في كل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وخاف الله فيما مضى من ذنوبه، واتقاه في مستقبل أيامه، فأولئك هم الذين فازوا فوزا ساحقا، في حياة الدنيا وحياة الآخرة. وهم المفلحون البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم، وهم أيضا الفائزون بكل خير، والآمنون من كل شر في الدنيا والآخرة [1].

قال الإمام الرازي: ((وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه)) [2].

ثمراتُ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ:

لقد تواترت نصوص الشرع الحكيم في فضل اتباع الرسول ﷺ ، وما يترتب على التمسك بسنة النبي العدنان عليه السلام من الآثار الحميدة والأجور العظيمة، وفيما يأتي نبذ يسيرة توضح ذلك.

أولا: اتباع الرسول عليه السلام سبب الرحمة والهداية.

قال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف، الآية: 158].

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور، الآية: 54].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور، الآية: 56].

ثانيا: التمسك بالسنة سبب للنجاة، وعصمة من الضلال.

قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَداً، كِتَابَ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ)) [3].

---

(1) التفسير الوسيط، للزحيلي (1764/2).

(2) مفاتح الغيب (22/24).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك (160/1)، (ح: 318). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (566/1)، (ح: 3937).

ثالثا: في التمسك بالسنة تحصيل تمام الأخلاق وجميلها ومكارمها.

قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)) [1].

قال ابن عبد البر: ((هذا حديث مدني صحيح، ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل، فبذلك بُعث لِيُتَمِّمه صلى الله عليه وسلم)) [2].

رابعا: الدعوة إلى سنة المصطفى ﷺ سبب في تحصيل الأجور العظيمة.

قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى؛ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ؛ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ؛ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ؛ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا)) [3].

خامسا: الاقتداء بسنة الرسول سبب الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ)) [4].

لذلك فإنَّ في لزوم سنته ﷺ تمامَ السلامة، وجِماعَ الكرامة، لا تُطْفَأُ سُرُجُهَا، ولا تُدْحَضُ حُجَجُها، مَنْ لَزِمَهَا عُصِم، و مَنْ خَالَفَها نَدِم، إذْ هي الحِصنُ الحَصِين، والرُّكْنُ الرَّكِين، الذي بَانَ فضله، ومَتُنَ حَبْلُه، مَنْ تمسَّك به سادَ، ومَنْ رامَ خِلافَهُ بادَ، فالمتعلقون به أهل السعادة في الآجِل، والمغْبوطونَ بين الأنام في العاجِل [5].

(1) مسند الإمام أحمد (512/14)، (ح: 8952)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (112/1) (ح: 45).

(2) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (334/24).

(3) أخرجه مسلم: كتاب العلم / باب من سنَّ سنة حسنة (2060/4)، (ح: 2674).

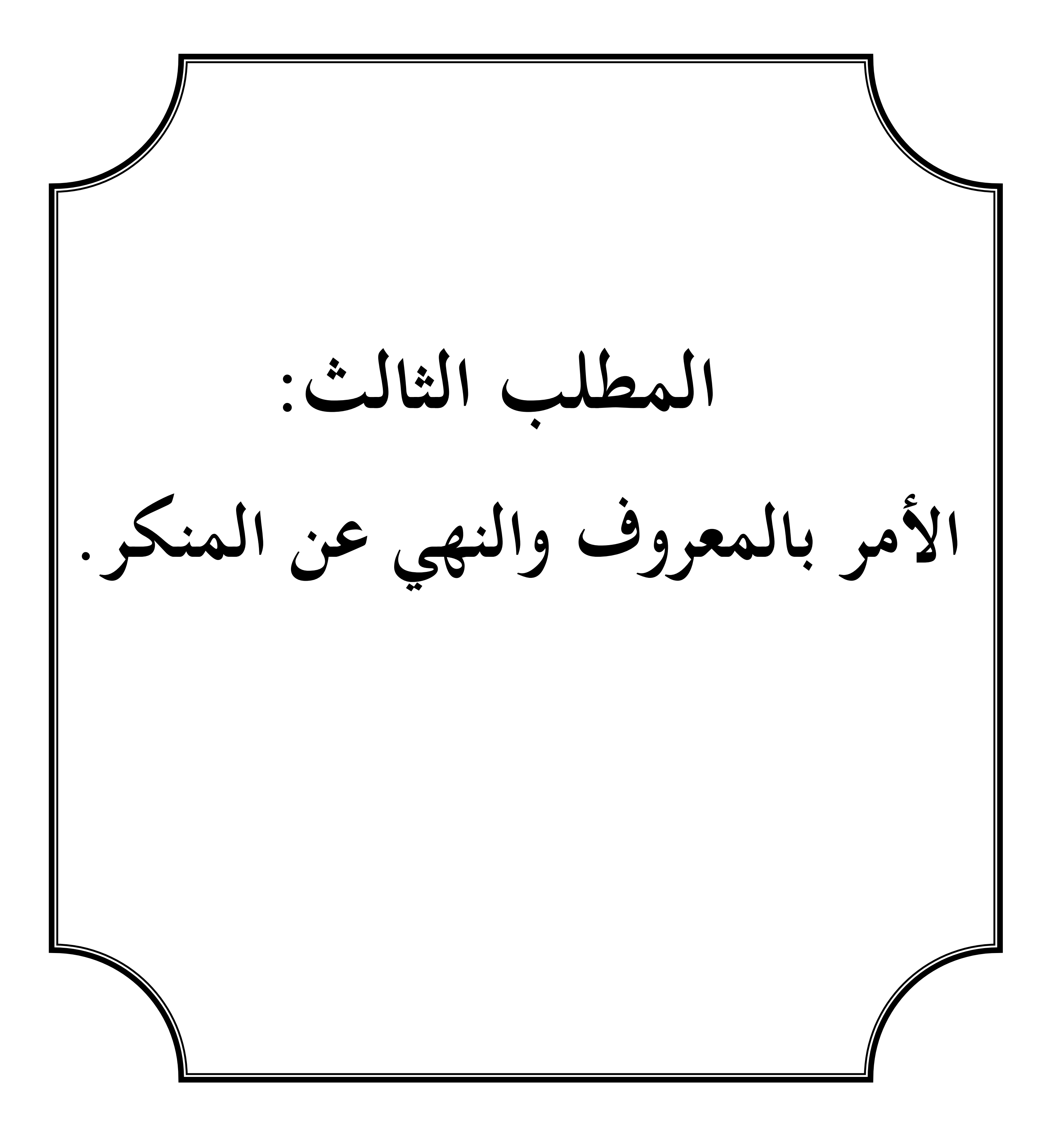
(4) مسند الإمام أحمد (375/11)، (ح: 6764)، وانظر: صحيح الجامع الصغير (431/1)، (ح: 2152).

الشِرَّةُ – بكسر الشين و تشديد الراء– : الحرص على الشيء والنشاط فيه والرغبة. والفَتْرة – بفتح الفاء وسكون التاء– : الوهن والضعف.

والمعنى: أنَّ لكل شيء من الأعمال الظاهرة، والأخلاق الباطنة طرفين: إفراطا وتفريطا، فالمحمود الاقتصاد بينهما، وسلوك الطريق المستقيم؛ لذلك أمر رسول الله ﷺ التمسك بالأعمال الصالحة بالقدر الذي يطيقه العباد، والمداومة على ذلك ولو قلت، فإنه خير من المبالغة في العبادة، التي تفضي إلى الرياء، أو الانقطاع بالكلية عن العمل الصالح.

انظر: شرح مشكل الآثار، للطحاوي (270/3– 271).

(5) من كلام ابن حبان في مقدمة صحيحه (102/1).



المطلب الثالث:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مدخل:

إنَّ من آمن بالله تعالى ربًّا، ورضي بالإسلام دينا، واتبع شريعة محمد ﷺ ؛ وجب عليه إكمال ما التزمه من الاتباع والاقتفاء، والتمسك بالشريعة بتنفيذ أمر النبي ﷺ ؛ امتثالا لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ **[الأعراف، الآية: 157].**

ويكون ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، فهذا كله من واجبات الإسلام، وهو ما شرطه الله تعالى لتكون هذه الأمة خير الأمم، بقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ **[آل عمران، الآية: 110].**

فمتى قامت بهذا الشرط وتحققت بهذا الوصف، نصرها الله تعالى ومكن لها في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ **[الحج، الآية: 41]، ومتى أخلت بهذا الشرط سُلِبَت هذه الخيرية، وأوشك أن ينزل بها العذاب، وفيما يأتي من الآيات والأحاديث يفيد وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان ما يترتب على تركه من عموم العقاب، وانتشار المنكرات، وتمكن العصاة، وكثرة الشرور، وذلك مما يبين أهمية هذا الواجب، ولزوم ه علىالأمة الإسلامية.**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

" **والدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول ﷺ وهم أمته وقد وصفهم الله بذلك؛ كقوله تعالى:** ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ **إلى قوله:** ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ **فهذه في حقه ﷺ ، وفي حقهم قوله:** ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ **الآية. وقوله:** ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ **الآية. وهذا الواجب، واجب على مجموع الأمة، وهو فرض كفاية يسقط عن البعض بالبعض، كقوله :**﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ " [1].

---

(1) مجموع الفتاوى (8/20).

– قال العلامة ابن عثيمين: " والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به من يكفي حصل المقصود، وإذا لم يقم به من يكفي وجب على جميع المسلمين". شرح رياض الصالحين (509/1).

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران، الآية: 104] (1).

مِنَ السمات المميزة للدين الإسلامي الانفتاح على الشعوب الأخرى، والتسامح مع الناس، ومحبة الخير لجميع البشر، وبذل الجهد لدفع الآفات ودرء الشرور عن الأمة المسلمة أولا، ثم غيرها من الأمم. ولأن الإسلام حريص على نقاوة المجتمعات من عوامل الدمار والانحطاط، فهو يدع إلى الحق والخير والسعادة للعالم أجمع، ويعمل على أن يكون المجتمع قويا ناضجا متماسكا، ليتفرغ لبناء الحضارة، وإرساء معالم المدنية الحقة القائمة على التقدم المادي والمعنوي.

لذلك أوجب الله تعالى على المسلمين تكوين أمة منظمة موحدة، لا ترهب أحدا، وتقول الحق، وترفع الظلم، ولا تخشى في الله لومة لائم، وتقع على عاتق هذه الأمة أو الجماعة مهمة الدعوة إلى الخير، بنشر الإسلام، وبثّ دعوة النّبي ﷺ ، ويتفرع عن ذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بحماية الدين، وحفظ الحقوق، وإقامة العدل، وأداء الأمانات.

ويجب أن تتميز هذه الجماعة الداعية إلى الخير بالعلم والمعرفة لأحكام الشريعة، والتقوى، والتخلق بأخلاق الأنبياء، وأن يكونوا المثل الأعلى في الخلق والفضيلة؛ لذلك فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم صفات المفلحين، والقائمون بذلك هم أهل الكمال والتمام في الفلاح.

وبهذا حدد القرآن الكريم معيار تفضيل الأمة الإسلامية على غيرها، وهو حرصها على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى وحده، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران، الآية: 110].

فبعد أن أمر اللّه سبحانه المؤمنين فيما سلف بتكميل أنفسهم وتزكيتها مما يشوبها من الأدناس والأرجاس؛ بالعمل بتقوى اللّه، والمحافظة على إخلاص الوجه له حتى الممات، والاعتصام بحبله المتين باتباع كتابه، والسير على سنة رسوله ﷺ ، إذا اختلفت الأهواء، وتضاربت الآراء؛ أمرهم بتكميل غيرهم من أفراد

(1) ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، أي: يأمرون الناس باتِّباعِ محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله . (661/6).
وهذا يوضح وجه المناسبة والإرتباط بين المطلب السابق: ((اتباع النبي ﷺ وطاعته))، وهذا المطلب: ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)).
فمن تمام اتباع النبي ﷺ ؛ القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل من هذين الأمرين يعتبران من صفات عباد الله المفلحين.

الأمة، وحثهم على اتباع أوامر الشريعة، وترك نواهيها، تثبيتا لهم جميعا على مراعاة ما فيها من الأحكام، والمحافظة على ما فيها من الشرائع والآداب، فيحرص أفرادها على حب الخير والندب إليه؛ ما يعود بالنفع والمصلحة لمجموع الأمة.

ويشمل ذلك الدعوة إلى الإسلام بعرضه على الأمم والشعوب، ودعوتهم إلى الدخول فيه؛ فإن الله تعالى هو الذي تفضل على هذه الأمة بتمام النعمة والهداية إلى الإيمان، وذلك بمحض مَنِّه وكرمه، وبَدَّل حالهم من الشقاء والشناعة إلى النعيم والكمال؛ لذلك كانوا أحرى الناس بأن يَسعَوْا بكل عزمهم إلى انتشال غيرهم من سُوء ما هم فيه من المعتقدات الباطلة والأخلاق المتدنية، إلى سماحة الإسلام، وحُسن ما فيه من عقيدة التوحيد الصافية والأخلاق الكريمة؛ حتَّى يكون النَّاس أمَّة واحدة [1].

تعريفات:

المعروف لغة:

المعروف ضد المنكر، ويطلق على ما يدور معناه غالبًا على ما تعارف عليه الناس وعلموه ولم ينكروه، وهو اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه [2]. وجاء في المعجم الوسيط: العُرْفُ، والمعروف، خلاف المنكر، وهو ما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم [3].

المعروف اصطلاحا:

اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع من المحسنات ونهى عنه من المقبحات[4].

قال ابن جرير: « وأصل المعروف كل ما كان معروفا فعله، جميلا مستحسنا، غير مستقبح في أهل الإيمان بالله، وإنما سميت طاعة الله معروفا؛ لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله » [5].

وقيل: « المعروف عبادة الله وتوحيده وكل ما أتبع ذلك، والمنكر: عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك» [6].

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للزحيلي (224/1– 225)، والتحرير والتنوير (36/4)، وأيسر التفاسير (357/1).

(2) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص 331)، ولسان العرب [مادة: عرف] (2900/4).

(3) المعجم الوسيط (ص 595).

(4) النهاية في غريب الأثر (216/3).

(5) تفسير الطبري (676/5– 677).

(6) تفسير القرطبي (298/10).

قال السعدي: ((وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة)) [1].

المنكر لغة:

المنكر ضد المعروف، والإنكار مصدر، ويطلق عند الاستفهام عمّا تنكره، ويراد به تغيير المنكر.
والنُّكر الاسم، ويطلق على الدهاء والفطنة. ويقال: أنكر الشيء ينكره إنكارًا فهو مُنكِر، و المنكر كالنكراء، وهو الأمر الشديد، والنَّكِرة خلاف المعرفة، يقال: نكِر الشيء، أي: جهله.
وتناكر القوم: إذا تجاهلوا وتعادوا، والإنكار: الجحود، قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل، الآية: 83] [2].

قال الراغب: ((الإنكار ضد العرفان، وأصله: أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود، الآية: 70]،
وقوله سبحانه: ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف، الآية: 58]، وقد يستعمل فيما ينكر باللسان)) [3].

المنكر اصطلاحا:

المنكر هو كل ما قبّحه الشرع وحرّمه وكرهه، فكل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه، فتحكم بقبحه الشريعة، فهو منكر. وإلى ذلك قصد بقوله تعالى:
﴿ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة، الآية: 112]، وقال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة، الآية: 79] [4].

---

(1) تفسير السعدي (ص 344).
(2) انظر: لسان العرب [مادة: نكر] (4539/6)، وتاج العروس (287/14).
(3) المفردات في غريب القرآن (ص 505).
(4) انظر: المصدر السابق (ص 505)، والنهاية في غريب الأثر (115/5).

– قال أبو البقاء الكفوي: ((المعروف كل ما سكنت إليه النفس، واستحسنته لحسنه عقلا، أو شرعا، أو عرفا، فهو معروف. والمنكر كل ما نفرت منه وكرهته)). الكليات (ص 804).

قال ابن جرير: «وأصل المنكر، ما أنكره الله، ورأوه قبيحًا فعلهُ، ولذلك سميت معصية الله – منكرًا–، لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون رُكوبها»[1].

وقال السعدي: «هو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة»[2].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اصطلاحا:

إذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر، فإنه يدخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، ولأنه لا يتم فعل الخير إلا بترك الشرّ، ومثال ذلك قول الله تعالى:
﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء، الآية: 114]، فإن الأمر بالمعروف يتضمن النهي عن المنكر.
وكذلك إذا أطلق النهي عن المنكر من غير أن يقرن بالأمر بالمعروف فإنه يدخل فيه الأمر بالمعروف، وذلك لأن ترك المعروف من المنكر، ولأنه لا يتم ترك الشر إلا بفعل الخير، ومثال ذلك قول الله تعالى:
﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ [الأعراف، الآية: 165]، فإنَّ نهيهم عن السوء يتضمن أمرهم بالخير. وأما عند اقتران أحدهما بالآخر فيفسر المعروف بفعل الأوامر، ويفسر المنكر بترك النواهي[3].

وقد ذكر الجرجاني عدة تعريفات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال:

«الأمر بالمعروف: الإرشاد إلى المراشد المنجية، والنهي عن المنكر: الزجر عما لا يلائم في الشريعة»، وقيل: «الأمر بالمعروف الدلالة على الخير، والنهي عن المنكر المنع عن الشر».
وقيل: «الأمر بالمعروف أمر بما يوافق الكتاب والسنة، والنهي عن المنكر نهي عما تميل إليه النفس والشهوة». وقيل: «الأمر بالمعروف: إشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أفعال العبد وأقواله، والنهي عن المنكر: تقبيح ما تنفر عنه الشريعة والعفة وهو ما لا يجوز في دين الله تعالى»[4].

---

(1) تفسير الطبري (677/5).
(2) تفسير السعدي (ص 344).
(3) انظر: نفس المصدر (ص 202)
(4) التعريفات (ص 54).

وذكر الطبري بسنده عن أبي العالية[1] أنه قال: «كل ما ذكره الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف دعاء من الشرك إلى الإسلام، والنهي عن المنكر النهي عن عبادة الأوثان والشياطين»[2].

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل عظيم من أصول الإسلام، حتى ألحقه بعض العلماء بالأركان التي لا يقوم بناء الدين إلا عليها، وما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب؛ إلا للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، وللنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله الشرك والعمل لغير الله، بل ما شرع الجهاد إلا لأجل ذلك، فلولاه ما قام الإسلام، ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته.

ولا شك أن صلاح المسلمين في معاشهم ومعادهم، متوقف على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ، وتمام الطاعة متوقف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه تقوم دولتهم ويكمل نظامها ويرتفع سنامها؛ ولهذا كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران، الآية: 110].

وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية هذا الأمر أهمية بالغة، ففيه تحقيق الولاية بين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة، الآية: 71].

وهو من أسباب النصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج، الآية: 40- 41].

---

(1) أبو العالية الرياحي، رفيع بن مهران البصري، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، من التابعين كان مولى لامرأة من بني رياح. أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ودخل عليه. سمع من أكابر الصحابة كعمر، وعلي، وابن عباس، وعائشة رضي الله عنهم أجمعين، قيل عنه: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية». توفي سنة 90هـ، وقيل 93هـ.

«انظر: سير أعلام النبلاء (4/207)، وطبقات المفسرين، للأدنهوي (ص9)».

(2) تفسير الطبري (11/557)، والكليات، للكفوي (ص 176)

وفيه الأمن من الهلاك، والمحافظة على صلاح المجتمعات، فعن النعمان بن بشير[1] ﷺ قال: قال النبي ﷺ : « مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »[2].

وهذا من سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك، حيث يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويوجد فيه من يستجيب لذلك، فيكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر[3].

وبه يدفع العذاب عن العباد، وتستجاب الدعوات. قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة، الآية: 78- 79].

وقال ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ »[4].

والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مكفرات الذنوب والخطايا، ففي الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان ﷺ ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ »[5].

---

(1) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة، ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثمان سنين، وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة. كان واليا على الكوفة لمعاوية، ثم على حمص، فخالفه أهل حمص وأخرجوه منها، وقتلوه غيلة سنة 64هـ، وقيل سنة 65هـ في أيام مروان بن الحكم.

« انظر: الاستيعاب (ص 723)، والإصابة (240/6)».

(2) أخرجه البخاري: كتاب الشركة / باب هل يقرع في القسمة ؟ والاستهام فيه (205/2)، (ح: 2493).

(3) انظر: تفسير الظلال (928/2).

(4) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن / باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (468/4)، (ح: 2169). وقال حديث حسن.

(5) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الفتن/ باب الفتنة التي تموج كموج البحر (320/4)، (ح: 7096)، ومسلم في كتاب الإيمان / باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا (128/1)، (ح: 144).

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ مقاصد الشريعة، وتحيا السنن وتموت البدع، ويضعف أهل الباطل والأهواء، وهو من أبرز صفات المؤمنين وسماتهم، ومن أعظم الوسائل لقوتهم وتماسكهم، والغفلة عنه أو التهاون فيه، أو تركه، يجر إلى المفاسد الكثيرة، والأضرار الجسيمة.

قال الإمام الغزالي[1]:

((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوي بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسدَّ هذه الثلمة. إما متكفلا بعملها، أو متقلدا لتنفيذها، مجددا لهذه السنة الداثرة ناهضا بأعبائها ومتشمرا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها))[2].

---

(1) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، ولد سنة 450هـ بخرسان. تفقه ببلده أولا، ثم تحول إلى نيسابور، فلازم إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ولازمه حتى توفي. اشتهر بالخوض في مسائل الفلسفة والمنطق، والتصوف؛ مما جرّ إليه انتقاد العلماء، وأنكر عليه بعضهم بشدة. من أشهر مصنفاته: ((إحياء علوم الدين))، و((المستصفى)) في أصول الفقه، و((الوجيز)) في الفقه. توفي سنة 505هـ.

((انظر: سير أعلام النبلاء (322/19)، ووفيات الأعيان (216/4)).

(2) إحياء علوم الدين (1186/2).

قلت: رحم الله الإمام الغزالي رحمة واسعة، يبكي واقع زمانه ويصف اندراس فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!! مع أنه كان في وقته أولوا بقية من العلماء الربانيين، والأمراء القائمين بالقسط. يحمون حياض الدين ويدافعون عن شريعة الإسلام !!

فكيف لو رأى واقع الأمة اليوم ؟ كيف تخلت عن دينها مصدر عزها !! وركنت إلى أعدائها، فنجم عنه التقليد الأعمى والتبعية للغرب الكافر في كل شيء، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا: يا رسول الله اليهودُ والنصارى ؟ قال : فَمَنْ ؟)). (متفق عليه) فقد ابتلينا في هذا العصر بشيوع المعاصي والمجاهرة بها، واستحلت المحرمات بتغيير مسمياتها، وانكب الناس على الشهوات، وماتت الغيرة لدى المسلمين !! فلا هيئات تأمر بمعروف وتنهى عن منكر، ولا جهات مسؤولة تحاسب المنحرفين ؟؟!! ولا يخفى خطورة هذا الوضع المتأزم الذي يستدعي استنهاض الهمم، وتكثيف الجهود؛ من أجل إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تسترجع أمة الإسلام أمجادها وريادتها، وخيريتها بين الأمم. ولن يتم هذا إلا بالرجوع إلى معين الكتاب والسنة، والاعتصام بهما. والله الموفق، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إنّ معرفة مراتب الإنكار من الأمور المهمة التي ينبغي أن يفقهها كل من تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى يصل إلى الغاية المنشودة، والأهداف المرجوة من القيام بهذه الفريضة العظيمة.

ودرجات الإنكار ثلاث: الإنكار باليد، والإنكار باللسان، والإنكار بالقلب.

فيجب على من رأى منكرًا أن ينكره، وأن يغيره بحسب الاستطاعة والقدرة من هذه الدرجات الثلاث، فيغيره بيده، فإن كان لا يستطيع غيره بلسانه، فإن كان لا يستطيع أنكره بقلبه، والأصل في ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » [1].

نقل النووي في شرح صحيح مسلم عن القاضي عياض قوله في حديث أبي سعيد المتقدم:

« هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولا كان، أو فعلا، فيكسر آلات الباطل، ويريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله، وينزع الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه، أو بأمره إذا أمكنه، ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخوف شره؛ إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى. ويغلظ على المتمادي في غيه، والمسرف في بطالته؛ إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكرا أشد مما غيره، لكون جانبه محميا عن سطوة الظالم، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد منه، من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده، اقتصر على القول باللسان، والوعظ والتخويف. فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك؛ غير بقلبه، وكان في سعة. وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى. وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان، ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب. وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره، أو يقتصر على تغييره بقلبه. هذا هو فقه المسألة، وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافا لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال وإن قُتل، ونيل منه كل أذى » [2].

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان / باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (69/1)، (ح: 49).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (25/2).

وفيما يلي بيان لتفصيل هذه المراتب [1].

المرتبة الأولى: الإنكار باليد.

وهي أقوى مراتب الإنكار، وأعلاها، وذلك كإراقة الخمر، وكسر الأصنام المعبودة من دون الله، وكإلزام الناس بالصلاة، وبحكم الله الواجب اتباعه، وكف يد الظالم من البطش والعدوان على الناس.

وهذه المرتبة لا تصلح لكل أحد وفي كل منكر، لأن ذلك يجر من المفاسد والإضرار الشيء الكثير وإنما يكون ذلك لولي الأمر أو من ينيبه، مثل رجال الهيئات والحسبة، الذين نصبهم الحاكم للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكالرجل في بيته يغير على أولاده، وعلى زوجته وعلى خدمه، فهؤلاء يغيرون بأيديهم بالطريقة الحكيمة المشروعة بحسب الوسع والطاقة.

المرتبة الثانية: الإنكار باللسان.

وإنما ينتقل إلى هذه المرتبة إذا عجز عن التغيير باليد، ومرتبة الإنكار باللسان لها خطوات، فأولها التعريف بالمنكر بلطف ولين، ويكون بتحري الألفاظ الطيبة والعبارات المناسبة، وهذه الخطوة تستعمل مع الجاهل بالحكم وغير المتعمد.

ثم ينتقل إلى النهي بالوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى، ويكون بذكر بعض النصوص من القرآن والسنة المشتملة على الترهيب والوعيد، وهذه الخطوة تتعلق غالبا مع مرتكب المنكر العارف بحكمه بخلاف الخطوة الأولى.

ويأتي بعد هذه الخطوة الغلظة بالقول، ويلجأ إليها المنكِر بعد عدم جدوى أسلوب اللطف واللين، فحينئذ يغلظ له القول، ويزجره مع مراعاة قواعد الشرع في ذلك؛ فلا ينطق إلا بالصدق، ولا يطيل لسانه بما لا يحتاج إليه بل على قدر الحاجة.

وآخر الخطوات في مرتبة الإنكار باللسان هي التهديد والتخويف، ويعقبها بعد ذلك إيقاع الفعل، كأن يقال لمرتكب المنكر: «إن لم تنته عن هذا الفعل لأفعلنَّ بك كذا وكذا، أو لأخبرن بك السُلطات لتسجنك وتعاقبك على فعلك». وينبغي أن يكون هذا التهديد والتخويف في حدود المعقول عقلاً وشرعا؛ حتى يعرف أن المنكِر صادق في تهديده، فلو هدده بأمور غير جائزة شرعا وغير معقولة عرف أنه غير جاد في كلامه.

---

(1) استفدت في تلخيص هذه المراتب من بحث منشور في مجلة أم القرى [المجلد 12/ العدد 20، ص:365] بعنوان: « قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء الكتاب والسنة »، للدكتور حمود بن أحمد الرحيلي. ورسالة «وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، للشيخ عبد الله بن باز. وكتاب: « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه »، للدكتور خالد السبت.

المرتبة الثالثة: الإنكار بالقلب.

هذه المرتبة هي أدنى المراتب، ولا رخصة لأحد في تركها البتة، بل يجب أن يكره المنكر في قلبه ويبغض أهله، وليس هناك شيء من التغيير ما هو أقل منه، كما في حديث أبي سعيد المتقدم: « وذلك أضعف الإيمان »[1]، وفي الحديث الآخر: « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[2].
أي: لم يبق بعد هذا من الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن ويثاب عليه، فالإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان.
بل قال بعض العلماء: « من لم يقدر على الإنكار باللسان، وقدر على إظهار دلائل الإنكار، مثل تعبيس الوجه، والنظر شذرًا، والتجهم، وإظهار الكراهية لفعله والازدراء به، وهجره في الله تعالى لزمه ذلك، ولا يكفيه العدول إلى الإنكار بالقلب مع إمكان دلائل الإنكار الظاهرة »[3].

آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الأعمال الصالحة التي يقوم بها المسلم، فهو باب من أبواب الجهاد، وهو قيام بأمانات الله وحفظ لحرمات المسلمين، ولذا يشترط للقيام به آداب ينبغي التحلي بها، وهنا أذكر بعضا منها على الإجمال، حتى يكون لهذا العمل قبول وأثر محمود في الواقع.

- العلم والبصيرة بحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن يكون الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر عالما بما يأمر به وبما ينهى عنه، فيعلم ما هو المنهي عنه شرعا حتى ينهى عنه، ويعلم ما هو المأمور به شرعا حتى يأمر الناس به، فإنه إن أمر ونهى بغير علم فقد يكون ضرره أكثر من نفعه، لأنه قد يأمر بما ليس بمشروع، وينهى عما كان مشروعا، وقد يحلل الحرام ويحرم الحلال وهو لا يعلم[4].

---

(1) سبق تخريجه في (ص 186).

(2) أصله في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ. ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ. فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ ».
كتاب الإيمان/ باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (69/1)، (ح: 50).

(3) انظر: القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للشيخ عبد الله بن عبد العزيز الراجحي (ص 148).

(4) انظر: رسالة زاد الداعية إلى الله، لابن عثيمين (ص 7- 8).

– الرفق واللطف بمن يأمره وينهاه.

من الصفات الكريمة والآداب الحميدة التي يجب أن يتحلى بها من يتصدى لدعوة الناس إلى الخير ونهيهم عن الشر، لين الجانب وحسن الخلق؛ ليكون التأثير أبلغ والاستجابة أقوى، وهذه الصفة من اللطف والرفق واللين هي من أميز ما يجب أن يظهر به الداعية في طريق الإصلاح والتبليغ والدعوة إلى الله، فقد قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ» [1]
وقال بعض السلف: « لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى» [2].
ومن الرفق أن يراعي القائم بهذه الفريضة حرمة الناس ومشاعرهم فلا يفضحهم، وإنما يأمرهم وينهاهم بالرفق واللين وبدون تشهير بهم، فمن وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه [3].

– معرفة أحوال الناس ومراعاة ظروفهم.

من الأمور اللازمة لنجاح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، معرفة أحوال الناس وظروف وطبيعة المجتمع وخصائص العصر؛ لكي يتمكن من مخاطبة الناس على قدر أحوالهم وطاقاتهم بحيث يكون أسلوبه طبقا لحال المخاطب، فيكون أسلوبه مع الأمي غير أسلوبه مع المتعلم، وطريقته مع العاقل غير طريقته مع السفيه.
ومن ذلك الموازنة بين المصالح والمفاسد، فينبغي أن يدرك الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أنَّ درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة؛ لذا عليه أن يفقه المصالح الحاصلة من أمره ونهيه والمفاسد الناتجة عنهما، فمتى علم أن نهيه يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر، فإنه يسقط وجوب الإنكار، بل لا يسوغ الإنكار والحال هذه [4].

---

(1) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب فضل الرفق (2004/4)، (ح: 2594).
(2) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأبي بكر الخلال (ص 24)، وجامع العلوم الحكم (ص 564).– والقائل هو: سفيان الثوري–.
(3) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (24/2). – وهو من كلام الإمام الشافعي–.
(4) انظر: مجموع الفتاوى (28/75– 76).

القدوة فيما يدعو إليه واجتناب ما ينهى عنه:

من الأمور اللازمة لنجاح الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر أن يفعل ما يأمر به، ويجتنب ما ينهى عنه، فالدعاة إلى الله ينبغي أن يكونوا قدوة حسنة للمجتمع الذي يعيشون فيه، تبدو في كل شأن من شئوهم آثار الرسالة التي يدعون إليها في أقوالهم وأفعالهم في حياتهم الخاصة والعامة؛ بأن يمتثلوا ما يدعون إليه من عبادات ومعاملات أو أخلاق وسلوك [1].

وقد أنكر الله – عز وجل– على أولئك الذين يعظون الناس ولا يتعظون، وينهوهم ولا ينتهون.

فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ **[البقرة، الآية: 44]، وقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ **[الصف، الآية: 2– 3].**

فكم من مذكر بالله ناس لله ... وكم من مخوف بالله جريء على الله ... وكم من مقرب إلى الله بعيد عن الله ... وكم من داع إلى الله فار من الله ... وكم من تال لكتاب الله منسلخ عن آيات الله.

وهذا الصنف متوعد بالتوبيخ المهين والعذاب الشديد في الآخرة، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال:

« يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ ! مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهُ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهُ » [2].

وقال عليه السلام: « لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ » [3].

فالله نسأل صلاح السرائر، والصدق في الأقوال والأفعال، وحسن الثواب وخير المآل.

---

(1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة، للشيخ سليمان بن عبد الرحمن الحقيل (ص **163**).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق/ باب صفة النار وأنها مخلوقة (**436/2**)، (ح: **3267**)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق / باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (**128/1**)، (ح: **2989**).

قال ابن حجر: « الأقتاب جمع قِتْب بكسر القاف وسكون المثناة بعدها موحدة. وهي الأمعاء، واندلاقها خروجها بسرعة يقال: اندلق السيف من غمده، إذا خرج من غير أن يسله أحد ». فتح الباري بشرح صحيح البخاري (**52/13**).

(3) مسند أحمد (**104/21**)، (ح: **13421**)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (**585/1**)، (ح: **291**).

المطلب الرابع: ثقل الموازين يوم القيامة.

مدخل:

إنّ تكرار ذكر الوزن والميزان مرات عديدة في القرآن الكريم، جاء ليؤكد الحقيقة الكبرى التي تحكم العالم العلوي والسفلي، والتي تدل على عظمة خالق هذا الكون ومدبر شؤونه، وما تفرد به سبحانه وتعالى من صفات الكمال والجلال والكبرياء والمجد، ويجمع ذلك كله صفة العدل التي اتفقت الشرائع جميعها على وصف الله به، بل الناس جميعا من أتباع الكتب السماوية يقرون بالعدل الإلهي.

قال ابن القيم: « والله سبحانه هو العدل الذي لا يجور ولا يظلم ولا يخاف عباده منه ظلما، فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبيٌّ بخلافه أصلا »[1]، فهو سبحانه المتصف بالعدل المطلق، عادل في أحكامه الدنيوية والأخروية، وعادل في حكمه الشرعي والقدري.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴾ [الشورى، الآية: 17]، وقال سبحانه: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [الحديد، الآية: 25]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الرحمن، الآيات: 7- 8- 9].

فالله أنزل الميزان مع كتابه وجعله قرينه، والمراد به العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض في أبلغ نظام وأتقن إحكام، والقسط الذي تضمنته شريعة المولى سبحانه وأمر الناس بإقامته بينهم، وفي أمور معاشهم[2].

وتسمية العدل بالميزان من باب تسمية الشيء باسم آلته، لأن الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس في معاملاتهم، وفي سائر شئونهم، إذ بدونه لا يستقيم لهم حال، ولا يصلح لهم بال، ولا يستقر لهم قرار، فكأنه جعل الميزان رمزا لإقامة العدل[3].

---

(1) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص 370- 371).

(2) انظر: روح المعاني، للألوسي (101/27).

(3) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (26/13)، (132/14)، والأخلاق الإسلامية وأسسها (622/1).

فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً راسخاً مستقراً ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال؛ وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع. ميزاناً لا يحابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

فكان هذا الميزان الذي أنزله الله هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات[1].

هذا ميزان الدنيا وهو العدل، وهو الميزان الذي يتحاكم به الناس في الدماء والفروج والأموال والأشياء والذوات والمبيعات والمكيلات والموزونات، فالله أقام الدنيا على العدل، وجعل السلطان بالعدل، وأنزل السيف بالعدل.

وهناك ميزان الآخرة، وذلك يوم الجزاء والحساب، قال سبحانه: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة، الآية: 4].

فلا حكم إلا لله، ولا ظلم لأحد، قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت، الآية: 46].

وهذا يأتي ضمن عرصات يوم القيامة وأهوالها، فإذا انقضى الحساب وتم تقرير الأعمال، يكون بعده وزنها لإظهار مقاديرها و بحسبها يكون الجزاء – وهو محل الدراسة في هذا المطلب – فإنَّ من صفات المفلحين ثقل موازينهم بالحسنات يوم العرض، وبذلك يصيرون إلى رضوان الله ونعيمه من الجنات والأنهار، وأما الذين خفت موازينهم من الكفرة والفجرة فمأواهم النار وبئس القرار[2].

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء، الآية: 47].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: « يُوضَعُ المِيزَانُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ لَوَسِعَتْ. فَتَقُولُ المَلائِكَةُ: يَا رَبِّ ! لِمَنْ يَزِنُ هَذَا ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي. فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْناكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا ؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْناكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ »[3].

---

(1) انظر: تفسير الظلال (3449/6– 3494).

(2) انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (715/2).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك/ كتاب الأهوال (49/5)، (ح: 8801). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (619/2)، (ح: 941).

وهذا الميزان من أمور الغيب التي أخبر بها القرآن والسنة، ويجب التصديق بذلك، والإيمان به إيمانا يقينيا جازما، مع إثباته على وجه الحقيقة، من دون تأويل ولا تحريف، وأورده الكثير من الأئمة في كتب العقائد[1].

حقيقة الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة:

قد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على ثبوت الميزان، ووردت الآثار عن جمهور أئمة أهل السنة والجماعة ما يفيد بأنّ ميزان الآخرة على الحقيقة وله كفتان ولسان، توزن فيه أعمال العباد فيرجح بمثقال ذرة من خير أو شر[2].

قال ابن عباس: ((توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان)) [3].

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن أبي إسحاق الزجاج[4] قوله: ((أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال، وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين)) [5].

---

(1) ذُكِر الميزان في أبواب الإيمان باليوم الآخر وما يتبعه من أهوال، ومن الأئمة الذين أثبتوه في كتب العقائد: الإمام الطحاوي (ت 321هـ)، في عقيدته وشرحها، للإمام ابن أبي العز الحنفي (ت 792هـ). وابن أبي زيد القيرواني المالكي (ت 386هـ) في مقدمة الرسالة وشروحها.
والإمام الصابوني (ت 449هـ) في عقيدة السلف وأصحاب الحديث، والإمام اللالكائي (ت 418هـ) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، والإمام موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي – صاحب المغني – (ت 620هـ)، في لمعة الاعتقاد وشروحها.
وسبب ذكر الميزان في كتب العقائد: أن بعض أهل البدع أنكروا الميزان، وقالوا: الميزان عبارة عن العدل، وليس هناك ميزان حقيقي.
وذلك أنهم ليس عندهم طريق مستقيم يسلكونه، وإنما ينظرون إلى آرائهم وعقولهم فيقيسون على الشيء الذي يروق لهم، وإلا فالموازين جاء ذكرها في كتاب الله واضحا وجليا، وكذلك في أحاديث الرسول ﷺ ، ولهذا السبب نص العلماء على ذكر الموازين في باب العقائد.

(2) وردت هذه الأحاديث والآثار في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (3/1243– 1245)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/325 وما بعدها). [والميزان: هو الآلة المعروفة لتقدير ثقل الأجسام، وهو أنواع. وأمّا المقصود باللسان: فهو المؤشر الذي يكون في الميزان، ويدل على جهة الثقل. انظر: تفسير التحرير والتنوير (17/81)].

(3) ذكره البيهقي قي شعب الإيمان (1/447).

(4) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي. الإمام النحوي، اللغوي، المفسر. كان من أهل العلم والأدب والدين. أخذ الأدب عن المبرد وثعلب، وكان يخرط الزجاج ثم تركه واشتغل بالأدب، فنسب إليه، واختص بصحبة الوزير عبيد الله بن سليمان، وعلم ولده القاسم الأدب، ولما استوزر القاسم أفاد بطريقه مالا جزيلا . من تصانيفه: ((معاني القرآن))، و ((الاشتقاق))، و ((خلق الإنسان))، و ((الأمالي)) . ولد سنة 241هـ، توفي سنة 311هـ.
((انظر: سير أعلام النبلاء (14/360)، ووفيات الأعيان (1/49))).

(5) فتح الباري (13/538).

وقد خالف في هذا المعتزلة [1]، وقلة قليلة من السلف، وقالوا إنّ الميزان بمعنى العدل والقضاء.
وعزا القرطبي في كتاب التذكرة [2] القول بذلك إلى: مجاهد[3] والضحاك[4] والأعمش[5].

ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ **[الرحمن، الآيات: 7– 8– 9]، فالميزان في هذه الآية العدل، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث، وأنه ميزان حقيقي، وهو ظاهر القرآن [6].**

وقد رد القرطبي على الذين أنكروا الميزان وأولوا النصوص الواردة فيه وحملوها على غير محملها قائلاً:
« قال علماؤنا ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه، لجاز حمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة،

---

(1) المعتزلة: فرقة من الفرق الضالة ظهرت في القرن الثاني للهجرة، وهم أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجالس الحسن البصري، فَسُمُّوا بذلك، وتبعه عمرو بن عبيد. ومذهبهم مبني على الأصول الخمسة، التي سموها: العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، للدكتور غالب عواجي (1162/3 وما بعدها).

– وقد ذكر إنكار المعتزلة للميزان: أبو الحسن الأشعري (ت 324هـ) في مقالات الإسلاميين (164/2– 165) ، وابن حزم (ت 456هـ) في الفصل في الملل والأهواء والنحل (114/4)، والقرطبي في التذكرة (722/2).

(2) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (723/2).

(3) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج مولى قيس بن السائب المخزومي، شيخ المفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس. قال : « قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات. أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت وكيف كانت ». كان ثقة فقيها ورعا عابدًا متقنا، واتهم بالتدليس في الراوية عن علي وغيره، وأجمعت الأمة على إمامته. ولد سنة 21هـ، توفي سنة 104هـ.

« انظر: سير أعلام النبلاء (449/4)، وتهذيب التهذيب (25/4) ».

(4) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد، وقيل أبو القاسم، صاحب التفسير. كان من أوعية العلم، وله باع كبير في التفسير والقصص. حدث عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاووس، وطائفة. وبعضهم يقول: لم يلق ابن عباس. وثقه أحمد بن حنبل، ويحي بن معين، وغيرهما. وحديثه في السنن لا في الصحيحين. وقد ضعفه يحي بن سعيد. وقيل: كان يدلس. قال عنه الذهبي: ليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه. توفي سنة 105هـ.

« انظر: سير أعلام النبلاء (598/4)، وتهذيب التهذيب (226/2) ».

(5) سليمان بن مهران، أبو محمد، الأسدي الكوفي الكاهلي. الملقب بالأعمش. تابعي، مشهور. روى عن أنس وعبد الله بن أبي أوفى، وطلحة بن نافع، وعامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، وعدي بن ثابت، وغيرهم. وغيرهم قال هشيم: ما رأيت بالكوفة أحدا أقرأ لكتاب الله منه، وقال ابن عيينة: سبق الأعمش أصحابه بأربع، كان أقرأهم للقرآن، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض، وذكر خصلة أخرى. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين. ولد سنة 61هـ، توفي سنة 148هـ.

« انظر: سير أعلام النبلاء (226/6)، وتهذيب التهذيب (109/2) ».

(6) انظر: اليوم الآخر– والقيامة الكبرى، ضمن سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، للدكتور عمر سليمان الأشقر (ص 249).

والملائكة على القوى المحمودة، وهذا كله فاسد، لأنه رد لما جاء به الصادق، وفي الصحيحين فيعطى صحيفة حسناته، وقوله: فيخرج له بطاقة، وذلك يدل على الميزان الحقيقي، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا وبالله التوفيق›› [1].

– قال الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف، الآية: 8– 9] ، : ‹‹ والوزن حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين، أو كليهما في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار، وإذ قد كان تساوي الجسمين الموزونين نادر الحصول تعيَّن جعل أجسام أخرى يُعرف بها مقدار التّفاوت، فلا بد من آلة توضع فيها الأشياء، وتسمّى الميزان ولها أشكال مختلفة شكلاً واتساعاً. والأجسام التي تجعل لتعيين المقادير تُسمّى مَوازين، وَاحِدُها ميزان أيضاً وتسمّى أوزاناً واحدها وَزْن، ويطلق الوزن على معرفة مقدار حال في فضل ونحوِه.

فالوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقادير مَا تستحقّه الأعمال من الثّواب والعقاب تعييناً لا إجحاف فيه، كتعيين الميزان على حسب ما عيّن الله من ثواب أو عقاب على الأعمال، وذلك ممّا يعلمه الله تعالى، ككون العمل الصّالح لله وكونِه ريَاء، وككون الجهاد لإعلاء كلمة الله، أو كونِه لمجرّد الطمع في الغنيمة، فيكون الجزاء على قدر العمل، فالوزن استعارة، ويجوز أن يراد به الحقيقة، فقد قيل توضع الصحائف التي كتبتها الملائكة للأعمال في شيء خلقه الله ليجعله الله يوم القيامة، ينطق أو يتكيّف بكيفيّةٍ فيدلّ على مقادير الأعمال لأربابها، وذلك ممكن ›› [2].

---

(1) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (2/724– 725).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى عن الميزان: هل هو عبارة عن العدل، أم له كفتان ؟

فأجاب رحمه الله: ‹‹ الميزان: هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل كما دل على ذلك الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف، الآية: 8– 9]. وقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء، الآية: 47]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ‹‹ كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم ››. وقال عن ساقي عبد اللّه بن مسعود: ‹‹ لَهُمَا في الميزان أثقل من أحُدٍ ››. وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة، وصححه الترمذي، والحاكم، وغيرهما: في الرجل الذي يؤتى به فينشر له تسعة وتسعون سِجِلًا، كل سجل منها مَدُّ البصر، فيوضع في كِفَّة، ويؤتى له ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا اللّه . قال النبي ﷺ: ‹‹ فطَاشَتِ السجلات ، وثَقُلَتِ البطاقة ››. وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو ما به تبين العدل. والمقصود بالوزن: العدل، كموازين الدنيا. وأمَّا كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب››.

مجموع الفتاوى (4/186).

(2) التحرير والتنوير (8/29)، باختصار.

وقال الإمام الشوكاني[1] في ردّه على من أَوَّلَ ميزان الأعمال في الآخرة بالعدل:

((وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال الكل ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، ويتحد قبولهم لها، بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم، يعرف هذا كل منصف، ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه. وقد ورد ذكر الوزن والموازين في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء، الآية: 47]، وقوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون، الآيات: 101– 102– 103]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء، الآية: 40]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة، الآية: 6 إلى 9]))[2].

الحكمة من نصب الموازين يوم القيامة:

قد يقول قائل: أليس الله يعلم مقادير الأعمال، فما الحكمة في وزنها ؟ فيجاب عليه:

بأنّه يجب الإيمان بالغيب كما أخبر القرآن والصادق ﷺ ، من غير زيادة ولا نقصان. ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة، لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال!! وما أحراه أن يكوم من الذين لا يقيم الله لهم وزنا يوم القيامة.

---

(1) محمد بن علي بن محمد الشوكاني فقيه مجتهد. ولد سنة 1173هـ بهجرة شوكان (من بلاد خولان باليمن) ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها سنة 1229هـ ومات حاكمًا بها. وكان يرى تحريم التقليد. وله 114 مؤلفًا، منها: ((نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار))، و((فتح القدير)) في التفسير، و((السيل الجرار)) في الفقه، و((إرشاد الفحول)) في الأصول. توفي سنة 1250هـ.

((انظر: البدر الطالع، للشوكاني (2/214)، والأعلام، للزركلي (6/298))).

(2) فتح القدير (ص 465).

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر منه من الله تعالى[1].

- وقد ذكر ابن الجوزي خمسة حكم في ذلك:

الأولى: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا.

الثانية: إظهار علامة السعادة والشقاوة في الأخرى.

الثالثة: تعريف العباد ما لهم من خير وشر.

الرابعة: إقامة الحجة عليهم.

الخامسة: الإعلام بأن الله عادل لا يظلم. ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب، واستنسخها من غير جواز النسيان عليه [2].

الموزونات يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء، الآية: 47].

الموازين جاءت في هذه الآية وغيرها مجموعة، وجاءت مفردة في بعض الأحاديث كما في قوله ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ » [3]؛ لذلك اختلف العلماء في الموازين، هل هي ميزان واحد أم أنها موازين متعددة ؟ فقال بعضهم: إن الموازين متعددة بحسب الأمم، أو الأفراد، أو الأعمال، فيكون لكل فرد أو عملٍ ميزان [4].

واختار أكثر أهل العلم: أن الميزان يوم القيامة واحد، وذكروا أنّ الجمع في الآية باعتبار تعدد الأوزان أو تعدد الأعمال الموزنة فيه، لأن الميزان يوزن فيه أشياء كثيرة، وقيل إنّ ذكرها بالجمع يراد به التعظيم، وهذا القول هو الأظهر، والله تعالى أعلم [5].

---

(1) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (ص 419).

(2) زاد المسير في علم التفسير (3/171).

(3) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة / باب فضل الوضوء (1/203)، (ح: 223).

(4) انظر: مفاتيح الغيب (14/29)، وأضواء البيان (4/730).

(5) انظر: تفسير ابن كثير (9/408)، وروح المعاني (17/54)، وفتح الباري (13/537- 538).

واختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال[1]:

الأول: أنَّ الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان، ويدل لذلك ما ثبت عنه ﷺ أنه قال: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » [2].

وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله أعلم بها، فمن ذلك مجيء القرآن شافعاً لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان تحاجّان عن أصحابهما. ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة [3] ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ » [4].

وهذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره[5].

الثاني: أنَّ الذي يوزن هو العامل نفسه، فقد دلَّت النصوص على أن العباد يوزنون يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن. ففي الصحيحين قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَءُوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف، الآية: 105] » [6].

---

(1) انظر: اليوم الآخر– والقيامة الكبرى، ضمن سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، للدكتور عمر سليمان الأشقر (ص 251، وما بعدها).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ (419/4)، (ح: 7563)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء / باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (2072/4)، (ح: 2694).

انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (226/3).

(3) أبو أمامة الباهلي: واسمه صدي بن عجلان بن رياح بن الحارث، وهو منسوب إلى باهلة، صحابي مشهور روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، سكن مصر، ثم حمص من الشام، ومات بها سنة 81هـ وقيل: 86هـ. قيل: إنه آخر من مات من الصحابة ﷺ بالشام.

« انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (15/3)، والاستيعاب، لابن عبد البر (ص 772) ».

(4) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (553/1)، (ح: 804).

(الغمامة والغياية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. والصواف: جمع صافة وهي الطيور الباسطة أجنحتها في الهواء . البطلة: المراد بهم السحرة). انظر: شرح النووي على مسلم (90/6).

(5) قال ابن حجر: « والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: " ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق" ». فتح الباري (539/13)

(6) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب التفسير (ح: 4729)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (ح: 2785).

ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، لإيمانه بالله تعالى وعظيم حرمته وقدره عند مولاه، فقد جاء في السنة أنّ ابن مسعود [1] ﷺ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنْ الْأَرَاكِ وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ فَجَعَلَتْ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فقال رسول الله ﷺ : « مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ » قالوا: « يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ». فقال: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ » [2].

الثالث: أنَّ الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال، والدليل على ذلك ما رواه الترمذي في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص[3] رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ ! فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ » [4].

وقد مال القرطبي إلى هذا القول، فقال:

« والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، ... قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال. وإذا ثبت هذا؛ فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار » [5].

---

(1) الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن، أسلم قديما، وشهد بدر والمشاهد كلها، وهو أول من جهر بالقرآن في مكة. أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة معلمًا ووزيرا، ثم رجع إلى المدينة وتوفي بها، ودفن بالبقيع سنة 32هـ.

« انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (381/3)، والإصابة، لابن حجر (129/4) ».

(2) مسند أحمد (98/7)، (ح: 3991)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (570/6)، (ح: 2750).

(3) الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، يكنى أبا محمد، وهو أحد المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ ، أسلم قبل أبيه وكان فاضلا عالما قارئا للقرآن، وقد استأذن النبي ﷺ في كتابة حديثه فأذن له. توفي سنة 63هـ، وقيل: غير ذلك.

« انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (345/3)، والإصابة، لابن حجر (2/5) ».

(4) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (24/5)، (ح: 2639)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (52/3).

(5) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (722/2).

والذي يظهر أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله، فقد دلت النصوص التي السابقة على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها [1].

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي[2] فقال : ((والذي أستظهر من النصوص – والله أعلم – أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد – رحمه الله تعالى – عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ : ((تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ فَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ فَتَمَايَلَ بِهِ الْمِيزَانُ، قَالَ فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ، إِذَا صَائِحٌ يَصِيحُ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: لاَ تَعْجَلُوا، لاَ تَعْجَلُوا، فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ، حَتَّى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ)) [3].

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة)) [4].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (6/261– 262).

(2) حافظ بن أحمد بن علي الحكمي: فقيه أديب، من علماء (جيزان) بين الحجاز واليمن. ولد سنة 1342هـ (1923 م) في قرية (السلام) التابعة لمدينة المضايا، جنوبي المملكة السعودية. ونشأ بدويا يرعى الغنم ثم قرأ القرآن. ولما بلغ السادسة عشرة بدأ بطلب العلم، ثم تفرغ للدراسة فظهر فضله، وألف كتبا طبع أكثرها على نفقة الملك سعود بن عبد العزيز. وتولى إدارة مدارس التعليم بسامطة بإشراف شيخه العلامة عبد الله القرعاوي، ثم عين مديرا للمعهد العلمي فيها (1374). واستمر إلى أن توفي بمكة سنة 1377هـ (1958 م). من كتبه المطبوعة: ((الجوهرة الفريدة في العقيدة))، و ((اللؤلؤ المكنون في أحوال السند والمتون)) و ((النور الفائض في علم الفرائض))، و((سلم الوصول إلى علم الأصول)) أرجوزة، و((معارج القبول)) شرح لها، و((أعلام السنة المنشورة)).

((انظر: الأعلام (2/159)، ومقدمة معارج القبول (ص 5– 11))).

(3) مسند أحمد (11/637)، (ح: 7066)، وحسّن إسناده شعيب الأرناؤوط – محقق المسند– .

(4) معارج القبول (ص 626).

– فائدة:

ذكر أهل العلم أنّ الميزان لا يكون في حق كل أحد، واستثني منه طائفتان:

الأولى: الكفار الذين ليس لهم حسنات، فإنهم يقعون في النار من غير حساب ولا ميزان، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف، الآية: 105].

الثانية: المؤمنون الذين لا سيئات لهم، ولهم حسنات كثيرة، فهم يدخلون الجنة بغير حساب كما في حديث السبعين ألفا، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح، ومن شاء الله أن يلحقه بهم.

ومن عدا هاتين الطائفتين من الكفار والمؤمنين يحاسبون وتعرض أعمالهم على الموازين.

انظر تفصيل ذلك في: فتح الباري (13/538)، والتذكرة، للقرطبي (2/719، 720، 721).

الأعمال الموجبة لثقل الميزان:

إن العاقل الفطن هو الذي يأتي يوم القيامة وقد استكثر من الحسنات وأثقل موازينه بالأعمال الصالحة، وقلل ما استطاع من السيئات والمنكرات.

ومن الأعمال التي تُثقل الميزان يوم القيامة [1]:

- التَوْحِيدُ الخَالِصُ للهِ تَعَالَى:

قال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ ! فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ » [2].

وفي الحديث الذي رواه أحمد أنّ النبي ﷺ قال: « إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِـ« لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ » فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ». « وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ »، فَإِنَّهَا صَلاَةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ » [3].

---

(1) قال ابن القيم: « إن ثقل الميزان هناك بحسب تحمل ثقل عمل الحق في هذه الدار، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل، كما قال الصديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما: " واعلم أن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق، وثقل ذلك عليهم في دار الدنيا، وحقّ لميزان يوضع فيه الحقّ أن يكون ثقيلا، وإنّما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة، باتباعهم الباطل في دار الدنيا، وخفته عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا... " ». اجتماع الجيوش الإسلامية (ص 41– 42).

(2) تقدم تخريجه في (ص 200).

(3) مسند أحمد (150/11)، (ح: 6583)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (259/1)، (ح: 134).

– قال ابن القيم:

((فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتَّصَف قلبه بها، وانْصَبَغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا؛ فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت؛ فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [الكهف، الآية: 105] ؛ فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت. والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا متصفا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت))[1].

– حُسْنُ الخُلُقْ:

فعن أبي الدرداء[2] أن النبي ﷺ قال: ((مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ))[3].

---

(1) إعلام الموقعين (2/299– 300).

(2) هو الصحابي الجليل عويمر بن عامر بن مالك الخزرجي الأنصاري، اختلف في اسمه واسم أبيه، وهو مشهور بكنيته، تأخر إسلامه قليلا، فلم يشهد بدرا، وشهد أحد وما بعدها، وهو من أفاضل الصحابة وفقهائهم وحكمائهم، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي، توفي سنة 33هـ.

((انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (4/306)، والإصابة، لابن حجر (5/46))).

(3) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في حسن الخلق (4/362)، (ح: 2002)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (2/378).

- ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تُثَقِّلُ كِفَّةَ الحَسَنَاتِ:

ففي الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » [1].

وقال ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» [2].

والمقصود أن يكون الذكر باللسان، مع تصديق الجنان، حتى يظهر أثره على الجوارح والأركان.

- بَذْلُ الأَسْبَابِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِنُصْرَةِ دِينِهِ:

ففي الصحيح من حديث أبي هريرة [3] رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِيمَانًا بِاللَّهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [4].

- احْتِسَابُ الوَلَدِ، وَالصَّبْرُ عَلَى فِرَاقِهِ:

قال رسول الله ﷺ : « بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَا هُ» [5].

- الحِرْصُ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ، دُبُرَ الصَّلَوَاتِ وَعِنْدَ النَّوْمِ:

لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: « خَلَّتَانِ لاَ يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ؛ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلاَ وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ

---

(1) تقدم تخريجه في (ص 199).

(2) تقدم تخريجه في (ص 198).

(3) هو الصحابي الجليل أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر بن عامر الدوسي، وقد اختلف في اسمه اختلافا كثيرا، وهو مشهور بكنيته، أسلم عام خيبر وشهدها، وهو أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله ﷺ ؛ وذلك لملازمته ومواظبته عليه، توفي بالعقيق سنة 57هـ ، وحمل إلى المدينة.
« انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (313/6)، والاستيعاب، لابن عبد البر (ص 862) ».

(4) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد/ باب من احتبس فرسا في سبيل الله (319/2)، (ح: 2853).

(5) مسند أحمد (430/24)، (ح: 15662)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (202/3)، (ح: 1204).
(بخٍ بخٍ): كلمة تقال عند الرضاء والإعجاب بالشيء، أو الفخر والمدح. انظر: فتح الباري (397/5).

صَلاَةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا »، قَالَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ، قَالَ: « فَتِلْكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ؛ تُسَبِّحُهُ، وَتُكَبِّرُهُ، وَتَحْمَدُهُ مِائَةً، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ سَيِّئَةٍ ؟! »، قَالُوا: وَكَيْفَ لاَ يُحْصِيهَا؟! قَالَ: « يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلاَتِهِ فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا؛ حَتَّى يَنْفَتِلَ؛ فَلَعَلَّهُ لاَ يَفْعَلُ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ، فَلاَ يَزَالُ يُنَوِّمُهُ؛ حَتَّى يَنَامَ » (1).

ثقل ميزان الحسنات عنوان النجاة والفلاح:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف، الآية: 8– 9]

ذكر الله سبحانه في هذه الآية صنفين من الناس:

الذين ثقلت موازين حسناتهم بما قدموه من الصالحات وأعمال الخير، فأولئك هم المفلحون الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم، والسعادة الدائمة.
وأمّا من خفت موازينهم ورجحت سيئاتهم ، فقد خسروا أنفسهم بالهلاك والخلود في النار، وتلك غاية الخسارة لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية؛ إذ فاتهم النعيم المقيم في جوار الرب الكريم، وحصل لهم العذاب الأليم بسبب كفرهم بآيات الله (2).

ونظير هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

[المؤمنون، الآيات: 101– 104].

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات/ باب ما جاء في التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام (478/5)، (ح: 3410)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (400/3).
(2) انظر: تفسير السعدي (ص 284)، و (ص 559).

وهكذا يصور القرآن بأسلوبه البديع المؤثر، أحوال السعداء الذين رجحت موزونات أخلاقهم وأعمالهم فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب، والحائزون لكل مرغوب.

وأمّا الأشقياء الذين ثقلت سيئاتهم على حسناتهم، فأولئك الذين خابوا وآبوا بالصفقة الخاسرة، إذ دسّوا أنفسهم باسترسالهم في الشهوات، وفعل الموبقات؛ فقد أعدَّ الله تعالى لهم عذابا ترتجف له القلوب، وهتز منه النفوس، وتقشعر من هوله الأبدان، ويرهبه كل امرئ مهما كان؛ لأن مثل هذا العذاب لا يضارعه أي عذاب في الدنيا مهما اشتد وقسا، ومهما عظم وامتد.

فقال في وصف حال النار وحالهم فيها: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾.

واللفح: الإحراق الشديد، والكلوح: هو أن تتقلص الشفتان، وتتكشف الأسنان، لأن النار قد أحرقت الشفتين، كما يشاهد – والعياذ بالله – رأس الشاة بعد شويها.

أي: تحرق النار وجوه هؤلاء الأشقياء، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان، من أثر ذلك الإحراق واللفح. وإنما خص الوجوه من بين باقي الأعضاء؛ لأنها أشرفها، فَذِكْرُ ما ينوبها من ألم، ويلحقها من أذى، يكون أزجر عن المعاصي التي تصل بهم إلى النار [1].

وقد جاء في بعض المواضع ما يدل على أن المراد بالفلاح هنا كونه في عيشة راضية في الجنة، وأن المراد بالخسران هنا كونه في الهاوية من النار، وذلك في قوله: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة، الآيات: 6– 11].

أي: فأما من ثقلت موازين حسناته، ورجحت أعماله الصالحة على غيرها، فهو في عيشة مرضية. أو في عيشة ذات رضا من صاحبها، لأنها عيشة هنية كريمة، فهي جامعة لرغد الجنة وأسباب النعيم، راضية، طائعة، لينة، لأصحاب الجنة، فتفجر لهم الأنهار طواعية، وتدنو الثمار طواعية.

وأمّا خفت موازين حسناته، وثقلت موازين سيئاته، فمرجعه ومأواه الذي يأوي إليه، نار سحيقة يهوى إليها بدون رحمة أو شفقة، بسبب كفره وفسوقه؛ فيكون مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية،

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (10/65– 66)، وتفسير المراغي (18/59).

– جاء في سنن الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾، قال: "تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا، حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى، حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ". صفة جهنم/ باب صفة طعام أهل النار (4/708)، (ح: 2587)، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص 263).

تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان، الآية:65].
وقيل: إن معنى ذلك، فأم دماغه هاوية في النار، أي: يلقى في النار على رأسه.
﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أي: شديدة الحرارة والاستعار، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا. نستجير بالله منها [1].

---

(1) انظر: أضواء البيان وتتمته (345/2)، (461/9)، وتفسير القرطبي (447,446,445/22)، وتفسير السعدي (ص 933).

موعظة:

روى الترمذي في السنن عن النضر بن أنس بن مالك عن أبيه قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ؟ فقال: « أَنَا فَاعِلٌ »، قال: قلت: يا رسول الله ! فأين أطلبك ؟ قال: « اطْلُبْنِي– أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي– عَلَى الصِّرَاطِ »، قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال: « فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ »، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال: « فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ؛ فَإِنِّي لاَ أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلاَثَ الْمَوَاطِنَ ».
كتاب صفة القيامة/ باب ما جاء في شأن الصراط (621/4)، (ح: 2433)، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (578/2).

قال الإمام الغزالي:

« قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة، الآيات: 6– 11]. واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، وخطراته ولحظاته، كما قال عمر ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه، ويده وسوء ظنه بقلبه، ويطيب قلوبهم، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة ... ».
إحياء علوم الدين (2968/4– 2969).

المطلب الخامس: الإيثار والسخاء.

مدخل:

إنَّ الإيثار طبع كريم، وخلق عظيم، لا يسكن إلا في النفوس المطمئنة بالإيمان، ولا يرسخ إلا في القلوب العامرة بالتقوى والعرفان، فهو من صفات المفلحين ومن شيم المؤمنين، وقد تحلى به الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فآثروا رضا ربهم سبحانه وتعالى على كل أحد، وتجردوا للدعوة إلى الفرد الصمد، واحتملوا عداوة البعيد والقريب في الله، ولم تأخذهم في ذلك لومة لائم؛ حتى ظهر دينهم على كل دين، وعلت راياتهم فوق كل راية، وقامت حُجتهم على العالمين.

والمسلم في إيثاره وحبه الخير لإخوانه يكون على منهاج الصالحين السابقين، وضارب في درب الأولين الفائزين الذين قال الله تعالى في الثناء عليهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر، الآية:9]، فقد سجل التاريخ أروع الأمثلة، وأصدق الشواهد، وأخلص العبر من حياة الرعيل الأول من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، الذين تبوّءوا بأوسمة الحب والإيثار، وسموا بهذا الخلق الإسلامي الأصيل في مراتب العزّ والوقار، وصوّروا بذلك أروع مشاهد الأخوة الصادقة والمحبة الفائقة، فإنَّ الدنيا لَمْ تر إيثاراً ارتفع عن الشهوة، ولا حبّاً تعالَى عن المنفعة؛ كالإيثار الذي عاشه الصحابة الكرام، والحبِّ الذي تبادلوه بينهم، فهاهم أولاء المهاجرون الأولون يخرجون من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله، فيستبشر إخوانهم الأنصار بقدومهم ويستقبلونهم بحفاوة مخلصة ومحبَّة صادقة بلغت حَدَّ التنافس بينهم في نيل شرف استضافة إخوتهم في الدِّين، ورفقاء خاتَم الأنبياء وإمام المرسلين.

فحينما آخى النبي ﷺ بين الأنصار والمهاجرين، أدرك الصحابة ﷺ ما تعنيه حقيقة الأخوة الإيمانية، فقامت هذه الرابطة الوطيدة ولأول مرة في تاريخ العرب مقام أخوة الدم والنسب[1]، وقام الحب والإيثار فيهم مقام العصبية القبلية والحمية الجاهلية، فذابت عصبيات الجاهلية، وسقطت فوارق اللون والدم والوطن، ولَمْ يبقَ إلا حمية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال، الآية:63].

---

(1) كان الأنصار والمهاجرون ﷺ في أول الهجرة يتوارثون دون أرحامهم، قياما بحق الأخوة التي رفع لواءها فيهم رسول الله ﷺ ، يشهد لذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس، قال: « كان المهاجرون لَمَّا قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾. قال: نسختها ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء، الآية: 32]. فنُسِخ الميراث، وبقيت النصرة والرفادة والإيثار والمواساة. انظر: البخاري مع الفتح – كتاب الفرائض/ باب ميراث ذوي الأرحام (29/12).

وإنَّ المجتمع الذي يسود فيه الإيثار والسخاء، ويتعامل بأخلاق الأخيار الأبرار؛ لحقيق أن ينال الرفعة والسؤدد، وأن يحقق السعادة والمجد، فهو مجتمع يجمع معاني الإنسانية بعد الركائز الإيمانية، ويستعلي على الأثرة والأنانية، ويربأ بنفسه عن الحياة المادية، التي تفضل فيها المصلحة على المبدأ، وتقدم فيها الرغبة الشخصية على الْمُثُل الشرعية، فأكرم بمجتمع يعطف فيه الكبير على الصغير، ويوقر فيه الصغير الكبير، ويرأف غنيه بالفقير، ويُؤثر المرء فيه أخاه الضعيف الكسير، فالمسلم متى رأى محلا للإيثار آثر غيره على نفسه، وفضله عليها، فقد يجوع ليشبع غيره، ويعطش ليروي غيره، بل قد يموت في سبيل حياة آخرين، وما ذلك ببعيد ولا غريب على مسلم تشبعت روحه بمعاني الكمال وانطبعت نفسه بطابع الخير وحب الفضيلة في مجتمع لُحْمَتُهُ الإيمان وسِيمَتُه الإيثار... تلك هي صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟! [1]

فلا يشك عاقل أنَّ مجتمعا كهذا سيبلغ من الإيمان ذروته، ومن اليقين قمته، ومن الحب غايته، وسيجتمع على مائدة الإيمان، ويصدر عن طاعة الملك الديان، وبهذه الأخلاق المباركة، والقيم العليا تنعقد أقوى الوشائج بين أفراده مهما اختلفت أجناسهم، وتباعدت ديارهم، وتنوعت مصالحهم، وتفاوتتْ لغاتهم؛ ليمثل المجتمع الإسلامي الفاضل في أرقى صوره، وأسمى معانيه، الذي استنار بهدي القرآن الكريم، وارتوى من منهل سنة خير المرسلين ﷺ [2].

---

(1) انظر: منهاج المسلم، لأبي بكر لجزائري (ص 122)، و(ص 135).

(2) انظر: شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة (ص 153)، و(ص 162).

تعريفات لغوية ومفاهيم شرعية:

الإيثار لغة:

الإيثار مصدر الفعل آثر، يقال: آثره عليه يؤثره إيثارا بمعنى: فضَّلَهُ وقدَّمَهُ، وهو مأخوذ من مادة (أ ث ر) التي تدل على تقديم الشيء[1]، ومن ذلك قولهم: الأثير وهو الكريمُ عليك الذي تؤثره بفضلك وصِلَتِك، وجمع الأثير أثراء، والمآثر ما يروى من مكارم الإنسان، ويستعار الأثر للفضل، والإيثار للتفضل، وفي التنزيل: ﴿ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف، الآية:91]. آثرك: فضّلك وكرّمك.

ويقال: آثر أن يفعل كذا، أي: فضّل وقدم. وآثرتك إيثاراً، أي: فضّلتك، وضدّه الأثرة من قولهم: استأثر بالشيء انفرد به، أو اختص به نفسه، وفي الحديث: « إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ مِنْ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا؛ حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ »[2]. أي: يستأثر عليكم فيفضل عليكم غيركم في الفيء.

والإستئثار: الانفراد بالشيء. والْمَأْثَرَةُ بفتح الثاء وضمها: المكرُمَةُ، وآثرت فلانا على نفسي من الإيثار، وهو الاختيار والتفضل[3].

الإيثار اصطلاحا:

قال الإمام القرطبي في تعريف الإيثار: « هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية، رغبة في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة »[4].

وعرفه الجرجاني بقوله: « الإيثار أن يقدم غيره على نفسه في النفع له، والدفع عنه. وهو النهاية في الأخوة »[5].

---

(1) لهذه المادة معنيان آخران هما : رسم الشيء الباقي، وذكر الشيء. وقد ذكر أمثلتهما ابن فارس في مقاييس اللغة (53/1 وما بعدها)، وابن منظور في لسان العرب (25/1).

(2) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قول النبي ﷺ للأنصار (اصبروا حتى تلقوني على الحوض) (41/3)، (ح: 3792).

(3) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص 9)، وعمدة الحفاظ (59/1)، والمعجم المفصل في تفسير غريب القرآن (ص 20).

(4) تفسير القرطبي (365/20).

(5) التعريفات (ص 59).

السخاء لغة:

السخاء مصدر الفعل سخا يسخو ويسخى، وهو مأخوذ من مادة (س خ ي) التي تدل على اتساع الشيء وانفراج فيه.
والسخواء: الأرض السهلة الواسعة الأطراف. وقيل: السخاوة والسخاء: الجود والكرم، والسخي: الجواد الكريم والجمع أسخياء، يقال: سخيتُ نفسي عنه: تركته ولم تنازعني نفسي إليه [1].

السخاء اصطلاحا:

قال الماوردي[2]: «حَدُّ السَّخَاء بَذْلُ مَا يُحْتَاجُ إليه عند الحاجة، وأن يُوصَل إلى مُسْتَحِقِّهِ بقدر الطاقة» [3].
وقال ابن حجر: « السخاء هو: بمعنى الجود، وهو بذل ما يقتنى بغير عوض » [4].
وقيل: «السخاء بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق، وهو فعل مستحسن ما لن ينتهي إلى السَّرف والتبذير » [5].

– ذَكَرَ العلماء مِنْ أئمة الأخلاق والسلوك أنَّ للعطاء والبذل والكرم مراتب:

أولها: السخاء، وثانيها: الجود، وثالثها: الإيثار وهو أعلاها مرتبة.

فالسخي من يعطي البعض ويبقي البعض. وأمّا الجواد من يبذل الأكثر ويبقي القليل. والمؤثر من يبذل العطاء لغيره، وهو محتاج إليه وهذه درجة الكمال للأخلاق، وهو أن يفضل الإنسان غيره، ويقدم حاجة أخيه على حاجته، وأن يحسن إلى من لا يحسن إليه [6].

قال ابن القيم: « منزلة الجود والسخاء والإحسان، سُمِّيَتْ بِمقام الإيثار؛ لأنه أعلى مراتبه فإنَّ المراتب ثلاثة، إحداها: أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه فهو منزلة السخاء. الثانية: أن يعطي الأكثر ويبقي له شيئا أو يبقي مثل ما أعطى فهو الجود. الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه وهي مرتبة الإيثار

---

(1) انظر: مقاييس اللغة (**146/3**)، ولسان العرب (**25/4**)، ومختار الصحاح (ص **123**)، وتاج العروس (**251/38**).

(2) علي بن حبيب أبو الحسن الماوردي، نسبته إلى بيع ماء الورد، ولد بالبصرة سنة **364هـ**، من العلماء الباحثين، صاحب التصانيف الكثيرة النافعة، ولي القضاء في بلدان كثيرة وحظي بالمكانة والرفعة عند الخلفاء، من كتبه: « أدب الدنيا والدين »، و« الأحكام السلطانية ». توفي ببغداد سنة **450هـ**. « انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (**64/18**)، والأعلام، للزركلي (**327/4**) ».

(3) أدب الدنيا والدين (ص **198**)، والوابل الصيب (ص **76**).

(4) فتح الباري (**457/10**).

(5) موسوعة نضرة النعيم (**2252/6**).

(6) انظر: سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (**547/1**)، (**91/7**).

وعكسها الأثرة، وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار ﷺ: " إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا؛ حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ". والأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر، الآية:9]، فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفا »[1].

وقال الإمام الغزالي: « أرفع درجة السخاء الإيثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة؛ وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج، أو لغير محتاج؛ والبذل مع الحاجة أشد ..... وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة في آية الحشر، وكان ذلك من أدب الوسول ﷺ ؛ حتى سماه الله تعالى عظيما، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم، الآية:4] »[2].

ومن الأقوال المأثورة في هذا الباب عن عبد الله بن المبارك قوله:

« سخاء النفس عمَّا في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل »[3].

قال ابن القيم: « السخاء نوعان: فأشرفهما: سخاؤك عما بيد غيرك، والثاني: سخاؤك ببذل ما في يدك، فقد يكون الرجل من أسخى الناس، وهو لا يعطيهم شيئا؛ لأنه سخا عمَّا في أيديهم، وهذا معنى قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك مُتَبَرِّعًا، وعن مال غيرك متورِّعًا »[4].

فللأخلاق ثلاثة:

خلق الإيثار: وهو خلق الفضل.

وخلق التسوية: وهو خلق العدل.

وخلق الاستئثار والاستبداد: وهو خلق الظلم.

فصاحب الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها. وصاحب الاستئثار تنفر منه النفوس، وهي أقرب إلى أذاه

---

(1) مدارج السالكين (43/2).

(2) إحياء علوم الدين (1797/3– 1798)، باختصار.

(3) مدارج السالكين (42/2– 43).

(4) الوابل الصيب (ص 77).

والتسلط عليه، وما أزال الممالك وقلعها من جذورها إلا الظلم والاستئثار والاستبداد، فإنَّ أصعب شيء على النفوس هذه الصفات، لأنها مركبة فيها بالغريزة؛ فالنفس البشرية ميّالة إلى الطغيان والاستبداد، وحب الرياسة والتسلط على الناس، إلاّ من سعى في تهذيب نفسه، وترويضها بالعلم والإيمان، ومحبة الله تعالى والإنابة إليه وإيثار طاعته ومرضاته على شهوات الدنيا الفانية وملذّاتها الزائفة [1].

أقسام الإيثار:

الإيثار ينقسم بحسب تعلقه إلى مرتبتين، وهما: إيثار مع الخلق، وإيثار مع الخالق.

الأول: الإيثار مع الخلق [2].

إذا تعلق الإيثار بالخلق فكماله أن يؤثرهم على نفسه بما لا يضيع على الإنسان وقتاً، ولا يفسد عليه حالاً، ولا يهضم له ديناً، ولا يسد عليه طريقاً، ولا يمنع له وِرداً؛ فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسهعليهم أولى، فالمؤمن حقاً من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان.

فإنَّ الإيثار المحمود الذي أثنى الله على أهله الإيثار في الحظوظ الدنيوية من طعام ومال، ومسكن ومركب ونحو ذلك، لا بالوقت والدين، وما يعود بصلاح القلب. كما وصف الله تعالى الأنصار بذلك ومدحهم به بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر، الآية:9].

والله عزَّ وجلَّ أمر المسلمين بالمسابقة في أعمال البر والخير، والمسارعة إليها، والمنافسة فيها، والقرعة عند التزاحم عليها، فلم يجعل الله الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة، فلا يستحب الإيثار بالقربات؛ لأن الإيثار بها قد يشعر بالزهد فيها، والاستغناء عنها، وعدم الحاجة إليها[3].

---

(1) طريق الهجرتين (2/652)، بتصرف يسير.

(2) انظر: طريق الهجرتين (2/648- 649)، ومدارج السالكين (2/47- 48).

(3) ذكر أهل العلم أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه كالطعام والشراب، واللباس والمركب، والمجلس ونحو ذلك. أما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشتركت الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة كالصلاة والصوم لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم، ووسعتهم كلهم، فالمقصود رغبة العبد في التقرب إلى الله، والمنافسة في محابه، والإيثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه، وعدم المنافسة فيه، وهذا غير مناسب. – قال الإمام النووي في شرح مسلم: « أجمع العلماء على فضيلة الإيثار بالطعام ونحوه من أمور الدنيا وحظوظ النفوس، أما القربات فالأفضل أن لا يؤثر بها؛ لأن الحق فيها لله تعالى ». (14/12)

وقد تكلم الفقهاء على هذا في باب القواعد الفقهية: – الإيثار بالقُرَبْ–. انظر: موسوعة القواعد الفقهية (2/336).

الثاني: الإيثار مع الخالق.

هذه المرتبة أجلّ وأفضل، وه ي إيثار حب الله على حب غيره، وإيثار رضاه على رضا غيره، وإيثار خوفه على خوف غيره، وإيثار رجائه على رجاء غيره، وإيثار الذل له سبحانه، والخضوع له، والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره، وإيثار الطلب منه، والسؤال له، وإنزال الفاقات به وحده دون غيره. فلأول آثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له، وهذا آثر الله تعالى على نفسه وغيره من البشر، وترك محبوبه لمحبوب الله عزَّ وجلَّ، ومؤنة هذا الإيثار شديدة؛ لغلبة أعوان الشر على أعوان الخير، وقوة داعي العادة والطبع؛ فلا تتم سعادة العبد وفلاحه إلا به.

وقد جرت سنة الله التي لا تتبدل أن من آثر مرضاة الله على مرضاة الخلق فلا بدَّ أن يعاديه أراذل العا لم وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديُه طريقتهم، ولكنه يفوز برضى الله عنه، ويرضى عنه الخلق، فتنقلب مخاوفه أماناً، وتعبه راحة، وبليته نعمة.

ومن آثر مرضاة الخلق على مرضاة ربه فإنَّ الله يسخط عليه، ويسخط عليه الناس، ورضا الخلق لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور؛ فهو مستحيل. فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك، أحسن لك من أن يرضوا عنك، والله غير راض عنك.

وعلامة هذا الإيثار شيئان: الأول: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه.

والثاني: ترك ما يكرهه الله إذا كانت النفس تحبه وتهواه. فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار مع الخالق سبحانه [1].

الأسباب المعينة على الإيثار:

قد تقدم في هذا المطلب أنّ النفس مجبولة على الأثرة؛ فالإيثار مطلب عال لا تستطيع ه إلا النفس اللطيفة المشرقة بنور الإيمان، والذي يسهل عليها هذا الإيثار أمور منها:

تعظيم الحقوق:

ومنها الحقوق التي جعلها الله لبعض المسلمين على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف على حده، بل لا بدَّ من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره، ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا، وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه من البركة، وفيضان الخير عليه.

---

(1) انظر: طريق الهجرتين (653/2)، ومدارج السالكين (49/2).

رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها:

فإنَّ من أفضل أخلاق الإنسان وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، وبحسب همة المؤمن ورغبته في هذا الخلق الكريم؛ يكون إيثاره شاملا لعموم حاجيات إخوانه.

النفرة من خلق اللئام:

و منه مقت الشح وكراه ة البخل، فإنه لا سبيل للخلاص من هاته الطوية الخبيثة إلاّ بالإيثار.

ويجمع ذلك كله:

أن تكون سَجِيَّةُ العبد لينة منقادة سَلِسَة ليست بجافية، ولا قاسية بل تنقاد معه بسهولة، مع إيمان صادق ويقين راسخ، بالإضافة إلى قوة صبره وثباته؛ فبهذه الأمور الثلاثة ينهض إلى هذا مقام الإيثار ويسهل عليه إدراكه، وجَبْرِ النَّقص والتخلف الذي طبعت عليه النفس البشرية.
ولَمَّا كانت هذه القرائح والطبائع ثابتة للصحابة ﷺ ، وكَمَّلها الله لهم بنور الإسلام وقوة اليقين ومباشرة الإيمان لقلوبهم؛ كانوا أفضل العالمين بعد الأنبياء والمرسلين، وحازوا قصب السبق في محاسن الأخلاق، وارتقوا في درجات السعادة [1].

– ثمرات الإيثار، وصُوَّر مشرقة من سيرة الصحابة الكرام ﷺ:

إنَّ خُلُق الإيثار والجود من الشمائل الكريمة التي حثت عليها الشريعة الغراء، ورغبت أهل الإيمان في التخلق بها؛ لذلك كان الإيثار شعار الصالحين، ومن أبرز صفات المفلحين الفائزين بكل ما رجو ه و الظافرين بم ابتغوه في دينهم ودنياه م، ولقد ضرب أصحاب رسول الله ﷺ – رضي الله عنهم – أروع الأمثال وأسماها في هذا المضمار، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً

(1) انظر: طريق الهجرتين (2/651, 652, 653)، ومدارج السالكين (2/48, 49, 51).

مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر، الآية:8– 9].

سبب نزول الآية الكريمة:

أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ : أنَّ رجلا أتى النبي ﷺ ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلاَّ الماء، فقال رسول الله ﷺ : " مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟ ". فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ . فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هَيِّئِي طعامَكِ، وأَصْبِحِي سراجِكِ، ونَوِّمي صبيانك إذا أرادوا عَشَاءً . فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصلِح سراجها فأطفأته، فجعلا يُرِيانِه أنهما يأكلان، فباتا طاويين. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: " ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ – أَوْ عَجِبَ – مِنْ فَعَالِكُمَا . فأنزل الله:
﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر، الآية: 9] " [1].

وهذه الصورة الوضيئة الصادقة تبرز أهم الملامح المميزة للمهاجرين الذين أخرجوا مكرهين مضطهدين من ديارهم وأموالهم. لا لذنب إلا أنهم قالوا ربنا الله؛ واعتمدوا على ربهم في فضله ورضوانه. لا ملجأ لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حماه.

فاستقبلهم إخوانهم الأنصار بصدور منشرحة، وقلوب منفتحة، وقاسموهم المال والأهل؛ فلم يعرف تاريخ البشرية كله موقفا فريدا في التآزر والتلاحم، مثل احتضان الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، والبذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء، واحتمال الأعباء؛ حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة؛ لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين! في صورة نادرة بلغت إلى الآفاق، ولولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلاماً طائرة، ورؤى مجنحة، ومُثُلاً عليا قد صاغها خيال محلق!!! [2]

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار / باب قول الله عزّ وجل: ﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ﴾ (42/3)، (ح: 3798)، ومسلم في كتاب الأشربة / باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (1624/3)، (ح: 2054).
انظر: أسباب النزول، للواحدي (ص 660).

(2) انظر: تفسير الظلال (3526/6).

قال الإمام السعدي:

« ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم: الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعا، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزِق الإيثار فقد وُقِي شح نفسه، ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقِي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعا منقادا، منشرحا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوبا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان الصنفان، الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين »[1].

– وفي قصة عبد الرحمن بن عوف[2] وسعد بن الربيع[3] تجلى الإيثار في أسمى صوره وأرقى معانيه، وبانت شيم العفاف والطهر في أصدق أحوالها، وأخلص مضمونها.

فقد ثبت في السيرة النبوية:

أنَّه لَمّا قدم عبد الرحمن بن عوف مهاجرا، آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، فقال له سعد: لي مال، فنصفه لك، ولِيَّ امرأتان، فأنظر أَحَبَّهُما إليك حتى أطلقها، فإذا انقضت عدتها تزوجها. فقال له عبد الرحمن: بارك الله لَكَ في أهلك، ومالك، دُلُّوني على السوق. قال: فما رجع يومئذ حتى رجع

---

(1) تفسير السعدي (ص 851).

(2) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة القرشي. ولد بعد الفيل بعشر سنين، جمع بين الهجرتين إلى الحبشة والمدينة، وهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين جعل عمر الشورى فيهم، وأخبر أنّ الرسول ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ. وقد صلى الرسول ﷺ خلفه في إحدى سفراته، وكان تاجرا رابحا. توفي بالمدينة سنة 31هـ، وهو ابن خمس وسبعين سنة، صلى عليه عثمان، ودفن بالبقيع.

« انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (475/3)، والاستيعاب، لابن عبد البر (ص 442) ».

(3) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير الأنصاري، الخزرجي، أحد نقباء الأنصار، شهد العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرا، وقتل شهيدا يوم أُحُد. « انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (432/2)، والاستيعاب، لابن عبد البر (ص 279) ».

بشيء قد أصابه من السوق. قال: وفقده رسول الله ﷺ أياما، ثم أتاه وعليه وَضَرُ صفرة، فقال له رسول الله ﷺ : « مَهْيَمْ؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار. قال: « مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟ » قال: نواة من ذهب - أو قال: وزن نواة من ذهب - قال: فقال رسول الله ﷺ : « أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ » [1].

قال ابن حجر: « في الحديث أيضا منقبة لسعد بن الربيع في إيثاره على نفسه بما ذكر، ولعبد الرحمن بن عوف في تنزهه عن شيء يستلزم الحياء والمروءة اجتنابه ولو كان محتاجا إليه. وفيه استحباب المؤاخاة وحسن الإيثار من الغني للفقير حتى بإحدى زوجتيه، واستحباب رد مثل ذلك على من آثر به لما يغلب في العادة من تكلف مثل ذلك، فلو تحقق أنه لم يتكلف جاز. وفيه أن من ترك ذلك بقصد صحيح عوضه الله خيرا منه وفيه استحباب التكسب، وأنه لا نقص على من يتعاطى من ذلك ما يليق بمروءة مثله، وكراهة قبول ما يتوقع منه الذل من هبة وغيرها، وأن العيش من عمل المرء بتجارة أو حرفة أولى لنزاهة الأخلاق من العيش بالهبة ونحوها » [2].

الترغيب في الإيثار بالنهي عن ضده:

ونجد أنَّ الله تعالى كما حض على الإيثار، ورغب فيه؛ فإنه حذر مما يضاده من البخل والشح، فقال عزَّ وجل: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن، الآية: 16].

وشُحُّ النفس: هو كثرةَ طَمَعِهَا. وضبطها على المال، والرغبةُ فيه، وامتدادُ الأمل؛ هذا جماع شُحِّ النفس. وهو داعية كُلِّ خلق سوء.

وذكر بعض المفسرين أَنَّ الفرق بين الشُّحِّ والبخل هو أَنَّ البخل نفس المنع، والشُّحُّ هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المَنْعَ [3].

قال ابن القيم: « الفرق بين الشح والبخل أنَّ الشح: هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه. والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحُبِّهِ وإمساكه.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار / باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار (38/3)، (ح: 3780)، وأحمد في المسند (384/20)، (ح: 13123)، واللفظ لأحمد. «مَهْيَمْ»: كلمة استفهام، ومعناه: ما شأنك أو ما هذا ؟

(2) فتح الباري (235/9).

(3) انظر: الجواهر الحسان (410/5)، ومفاتيح الغيب (288/29- 289).

فالشحيح: حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء؛ شح عليه وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ؛ أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا »[1]. والشح يؤدي إلى المهالك، وهو كامن في النفس؛ لذلك حذّر منه النبي ﷺ ، فقال: «اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »[2]. فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شُحَّهُ، وَوُقِيَ شَرَّهُ، وذلك هو المفلح »[3].

فالبخل آفة مجبولة عليه أكثر النفوس، فهي تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة؛ فيمتنع كثيرًا من الناس، من النفقة المأمور بها. ومن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قِبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفسًا سمحة، مطمئنة، منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاة، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مُرْضٍ لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز[4].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة / باب في الشح (221/2)، (ح: 1698)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (470/1).

(2) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب / باب تحريم الظلم (1996/4)، (ح: 2578).

(3) انظر: مدارج السالكين (42/2)، والوابل الصيب (ص 75).

(4) انظر: تفسير السعدي (ص 868).

علاج البخل:

ذكر أبو حامد الغزالي أنَّ علاج البخل يكون بالقناعة باليسير، وبالصبر، وبكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم. ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل والبخلاء، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم، ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له؛ فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس، مثل سائر البخلاء في قلبه. ويتذكر مدح السخاء، وفضله. ومن الأدوية النافعة التفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق، ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه، والباقي يدخره لنفسه في الآخرة، بأن يحصل له ثواب بذله. فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم؛ فإذا عرف بنور البصيرة، أنَّ البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة؛ هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلا، فإن تحركت الشهوة، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر، ويخوفه، ويصده عنه.

انظر: إحياء علوم الدين (1805/3– 1806) باختصار.

وفيما يلي ذكر شيء من ثمرات الإيثار وفضائله:

– الإيثار دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو من شيم الصالحين ومن صفات المفلحين. فمن تخلق به فقد تشبه بالصحابة الكرام ﷺ الذين فازوا بأعلى الدرجات؛ وفي هذا تسلية للمؤمن السالك طريق السلف، إذا آثر إخوانه على نفسه، ووجد فيهم أثرة عليه.

فقد قال النبي ﷺ للأنصار: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي، وَمَوْعِدُكُمُ الْحَوْضُ»[1].

– قال ابن القيم: «فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير سبحانه استئثار الناس على الأنصار بالدنيا – وهم أهل الإيثار– ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس؛ فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك – مع كونك من أهل الإيثار– فاعلم أنه لخير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

– الإيثار طريق موصل إلى محبة الله ورضوانه.

– الإيثار من أسباب حصول الألفة والمحبة بين الناس.

– الإيثار دليل سخاء النفس وارتقائها.

– الإيثار مظهر من مظاهر حسن الظن بالله.

– الإيثار علامة على حسن الخاتمة.

– الإيثار دليل علو الهمة والبعد عن صفة الأثرة الذميمة.

– الإيثار يجلب البركة وينمي الخير.

– الإيثار من علامات الرحمة التي توجب لصاحبها الجنة والعتق من النار.

– الإيثار طريق موصل إلى الفلاح لأنه يقي الإنسان من الشح[3].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار / باب قول النبي ﷺ للأنصار «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» (41/3)، (ح: 3793).

(2) مدارج السالكين (43/2).

(3) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ (640/3).



المطلب السادس:

موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ.

مدخل:

إنَّ قيمة الأفراد والمجتمعات ومكانة الأمم والحضارات؛ تكمن في ولائها لمبادئها، وانتمائها لأصولها وثوابتها، ولذلك وجب على المسلمين أن يكون انتماؤهم وولاؤهم لدينهم وعقيدتهم، ولكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

فكان من خصائص المجتمع المسلم أنه يقوم على عقيدة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من كل من حادّ الله ورسوله واتبع غير سبيل المؤمنين من الكفار والملحدين.

وموالاة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين من أهم صفات المفلحين التي تميز بها أفراد المجتمع المسلم الذي تسوده روابط المحبة والنصرة، وتحفظه من التحلل والذوبان في الهويات والمجتمعات الأخرى، بل تجعل منه وحدة متماسكة تسعى لدعوة الناس إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ لتحقيق رسالة الإسلام في الأرض .

والمتأمل في القرآن الكريم يقف على آيات كثيرة في بيان هذا المعنى وتأكيده،

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة، من الآية: 55 إلى 57].

وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [المجادلة، الآية: 22]. إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين.

مفهوم الموالاة:

- لغة:

الموالاة مصدر الفعل والى يوالي، وهو مأخوذ من مادة (وَ لَ ي) التي تدل على القرب.

يقال: تباعد بعد وَلْيٍ، أي قُرْبٍ، وجلس ممّا يليني، أي: يقاربني.

ومن هذا الباب المُعْتِقُ والمُعْتَق، والصَّاحب، والحليف، وابن العَمّ، والنَّاصر، والجار؛ كلُّ هؤلاءِ من الوَلْيِ وهو القُرْب، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخرَ فهو وليُّه. وفلانٌ أولى بكذا، أي: أحرى به وأجدر[1].

والوَلْيُ: القُرْبُ والدُّنُوُّ، والوَلِيُّ ضِدُّ العَدُو، والموالاة ضد المعاداة.

والموالاة تطلق في كلام العرب على وجوه [2]:

الأول: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوًى؛ فيواليه أو يحابيه.

الثاني: المحبة، فكل من أحببته وأعطيته ابتداء من غير مكافأة فقد أوليته، وواليته، والمعنى: أدنيته إلى نفسك.

الثالث: التَّمَيُّزُ. قال الأزهري: «سمعت العرب تقول: وَالُوا حواشي نَعَمِكُم عن جِلَّتِها. أي: اعزلوا صغارها عن كبارها، يقال وَالَيْنَاهَا فتَوَالَتْ إذا تميَّزت».

وقال ابن منظور: «الوِلايةُ على الإيمان واجبة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ... والمولى: الحليف، وهو من انضم إليك فعزَّ بعِزِّك، وامتنع بمَنَعَتِك» [3].

ولفظ الموالاة أعم من التولي، فالموالاة المحبة. أمّا التولي: فهو تقديم كامل المحبة والنصرة للمُتَوَلَّى.

قال الراغب:

«الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب: من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة، والاعتقاد. والوِلايَةُ (بالكسر) النُّصرَةُ، والوَلايَةُ (بالفتح) توَّلي الأمر. والوَلِيُّ والْمَوْلَى يستعملان معا في معنى الفَاعِلِ. أي: الْمُوَالِي، وفي معنى المفعول. أي: الْمُوَالَى، فيقال للمؤمن: هو وَلِيُّ الله، ولا يقال في ذلك: مَوْلَى،

---

(1) معجم مقاييس اللغة (141/6).

(2) انظر: الصحاح (2528/6)، والنهاية في غريب الحديث (228/5- 229)، وتهذيب اللغة (447/15 وما بعدها).

(3) انظر: لسان العرب (4921/6).

وقد يقال: الله تعالى ولي المؤمنين ومولاهم، فمن الأول: قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة، الآية: 257] ، ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج، الآية: 78]. ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية، فقال عزّ وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة، الآية: 51]... والموالاة بين الشيئين: المتابعة »[1].

– اصطلاحا:

قد تقدم أنَّ لفظ الموالاة مشتق من الولاء، وهو الدنو والقرب، وأصلها من الوَلاية، وهي ضد العداوة، والولي عكس العدو؛ فالولاية تشمل المحبة والنصرة والمتابعة والموافقة.

قال جل جلاله: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف، الآية: 44]، يعني: هنالك المحبة والمودة والنُّصرة لله الحق، فحقيقة الموالاة: المحبة والمودة؛ ولهذا كان أصل الموالاة في القلب ثم يتبع أثر ذلك على القول والعمل وما ينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح[2].

والمؤمنون أولياء الرحمن؛ لقربهم من الله بطاعته وعبادته. والكافرون أولياء الشيطان؛ لقربهم من الشيطان باتباع غوايته وضلاله، وبعدهم عن الله بعصيانه ومخالفة أمره.

وقد ورد تعريف الموالاة بمفهومها العام في اصطلاح الشريعة بأنها:

التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا، لمن يتخذه الإنسان وليا، فإن كان هذا التقرب والودُّ مقصودا به الله ورسوله والمؤمنون، فهي الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم، وإن كان المقصود هم الكفار والمنافقين، على اختلاف أجناسهم، فهي موالاة كفر ورِدَّة عن الإسلام.

وأمّا موالاة المؤمنين، وهي ما يعبر عنه بالولاء في أبواب العقيدة، فهي: الولاية بمعنى محبة المؤمنين لأجل إيمانهم، ونصرتهم والنصح لهم، وإعانتهم، وتأيدهم، ورحمتهم، وما يلحق ذلك من حقوق المؤمنين كالإكرام والاحترام[3].

---

(1) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص 533– 534).

(2) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (325/2).

(3) انظر: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية (28/1)، والولاء والبراء في الإسلام، للقحطاني (ص 89– 90).

والذي يستخلص من هذه التعريفات أنَّ معنى الموالاة يشمل في الغالب: المحبة، والنصرة، والتأييد، والمودة، والمتابعة، القرابة.

وكل من هذه المعاني السامية، حرص الإسلام على تحقيقها في واقع المسلمين، وقد تجلى هذا المراد في حديث رسول الله ﷺ في أصدق صورة، وأسمى عبارة، فقد ورد في السنة المطهرة قوله عليه السلام:

«تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» [1].

أقسام الموالاة ومظاهرها:

ذكر علماء العقائد ومقارنة الأديان أنَّ الموالاة تتفرع إلى قسمين بحسب قصد العبد وتعلق المحبة القلبية.

فإن كانت في حق الله تعالى ورسوله ﷺ وأهل الإيمان، فهي:

– الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم، وهي من مستلزمات الإيمان التي لا يتم إيمان المرء إلا بها، مع الإتيان بما تقتضيه من البراءة من الشرك وعداوة أهله؛ فإنه لا يستقيم للإنسان إسلام – ولو وحد الله وترك الشرك – إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء.

فالولاية: ضد العداوة. وأصل الولاية المحبة والتقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديا له. كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة، الآية:1]، فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه[2].

ومما دلت عليه كلمة لا إله إلا الله: إخلاص الحب في الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأدب / باب رحمة الناس والبهائم (93/4)، (ح: 6011).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (92/11).

كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة، الآية: 165 إلى 167]، فأوجب لهم بشركهم في المحبة أن خلدوا في النار، فإخلاص الموحد المحبة يقتضي الحب في الله والبغض فيه، والمعاداة والموالاة فيه، لأن العبد إذا أخلص له المحبة أحب طاعته وأهل طاعته، وأبغض معصيته ومن يعصيه؛ وعلى قدر المحبة تكون الموالاة بين الموحدين، والمعاداة للمشركين الجاحدين لتوحيد رب العالمين؛ والأدلة على هذا في الكتاب والسنة كثير[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

« فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين؛ فإن المؤمنين أولياء الله، وبعضهم أولياء بعض، والكفار أعداء الله، وأعداء المؤمنين. وقد أوجب الموالاة بين المؤمنين، وبين أن ذلك من لوازم الإيمان، ونهى عن موالاة الكفار، وبين أن ذلك منتف في حق المؤمنين».

وقال رحمه الله: « فإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتًا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، لقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة، الآية: 22]، ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة، الآية: 81]، فهذا التلازم أمر ضروري»[2].

من مظاهر الموالاة المشروعة:

- محبة جميع المؤمنين في جميع الأماكن والأزمان ومن أي جنسية كانوا؛ لأجل إيمانهم وطاعتهم لله تعالى، وهذه المحبة واجبة على كل مسلم، وهي من أوثق عرى الإيمان التي تشد أواصر الأخوة الإسلامية،
قال ﷺ: « أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْمُوَالاَةُ فِي اللهِ، والمُعَادَاةُ فِي اللهِ، والْحُبُّ فِي اللهِ، والْبُغْضُ فِي اللهِ »[3].
وقال عليه السلام: « لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ »[4].

---

(1) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (12/413)، (14/136- 137).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (28/108)، (14/392- 393).

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (12/76)، (ح: 9068). قال الألباني: الحديث بمجموع الطرق لا ينزل عن مرتبة الحسن على الأقل. انظر: السلسلة الصحيحة (2/698)، (ح: 998).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان / باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان (1/74)، (ح: 54).

وينبغي للمسلم الحذر من معاداة أحد من المؤمنين من أجل دنيا أو تعصب قبلي أو مذهبي أو من أجل مشاجرة حصلت بينهما، فإنَّ معاداة المؤمن الذي هو من أولياء الله تعالى حرب لله تعالى، فقد جاء في الحديث القدسي أنَّ الله تعالى قال: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ »[1].

– نصرة المسلم لأخيه المسلم إذا ظلم أو اعتدي عليه في أي مكان، وتكون نصرته باليد، وبالمال، وبالقلم، وباللسان بحسب الظروف والاستطاعة، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « اُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا » فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قال: « تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرَهُ »[2]، فيجب على المسلم أن ينصر إخوانه المسلمين في جميع الأحوال، فإذا اعتدى الكفار على بلد من بلاد المسلمين وعجز أهلها عن صد عدوانهم وجب على من يليهم من المسلمين نجدتهم والدفاع عنهم بالأموال والأنفس، وكذلك يجب على المسلم أن يعين أخاه على أخذ حقه ممن ظلمه، وأن يذب عن عرض أخيه المسلم إذا اغتيب أو قدح فيه وهو يسمع، كما يجب على المسلم أن يسعى بالنصيحة لإخوانه ويُرْجِعُ الضال منهم إلى طريق الصواب، ويدله على الخير، ويُبَيِّنُ له مسالك النجاة والهداية، ويحذره من مزالق الضلالة والغواية بالأسلوب اللَّينِ والموعظة الحسنة.

– التألم لما يصيبهم من المصائب والأذى، والسرور بنصرهم، وجميع ما فيه خير لهم، والرحمة لهم، وسلامة الصدر نحوهم، قال الله تعالى في وصف أصحاب النبي ﷺ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح، الآية: 29]، وقال النبي ﷺ : «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[3].

هذا، وهناك صور أخرى تدخل في الموالاة الشرعية يطول الكلام بذكرها، تشمل حقوق الأخوة في الدين منها ما هو فرض عين على المسلم، ومنها ما هو فرض كفاية، كرد السلام، وتجهيز الميت، والصلاة عليه، ودفنه، والقيام بما يحتاج إليه المسلمون في أمور دينهم من طلب للعلم، ومن تعليم ه ومن دعوتهم إلى الله تعالى وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، ومن القيام بما يحتاجون إليه في أمور معيشتهم، وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم في شؤون دينهم ودنياهم[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق / باب التواضع (4/192)، (ح: 6502).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الإكراه / باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (4/287)، (ح: 6952).

(3) سبق تخريجه في (ص 67).

(4) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية (ص 168– 169).

- الموالاة المحرمة: (أقسامها، وصورها).

وأمّا الموالاة إذا كانت لحزب الشيطان من الكفرة والمشركين فهي الموالاة المحرمة، وقد تصل بصاحبها إلى الكفر والشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

((ومسمى الموالاة لأعداء الله: يقع على شعب متفاوتة، منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات)) [1].

ضبط العلماء الموالاة المحرمة، وقالوا بأنها تنقسم إلى قسمين[2]:

1- الموالاة العامة الكفرية (التولي): وهو الدفاع عن الكفار، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، وهو كفر صريح مخرج من الملة الإسلامية، وهذا مرادف لمعنى التولي، الذي يشمل محبة الكفر وأهله أو نصرة الكفار على أهل الإيمان، بقصد ظهور الكفر على الإسلام، وهذا من الكفر الأكبر الذي إذا فعله مسلم؛ صار رِدَّة في حقه والعياذ بالله.

- من مظاهر الموالاة الكفرية:

الإقامة في بلاد الكفار اختيارا لصحبتهم مع الرضى بما هم عليه من الدين، أو مع القيام بمدح دينهم، وإرضائهم بعيب المسلمين، والخروج معهم للقتال ونحو ذلك، من التجنس بجنسية الدول الكافرة التي تلزم قوانينها التجنيد الإجباري لمحاربة المسلمين. ومن مظاهرها أيضا التشبه المطلق بالكفار، في أعمالهم، ولباسهم، وحضور أعيادهم في كنائسهم، وتقليدهم باتباع نظمهم، وتطبيق قوانينهم التي تبيح ما حرم الله، من ربا وزنا، أو تحريم ما أحله الله من نسل، أو تزاوج أو إرث[3].

2- الموالاة الخاصة المحرّمة: وهي من كبائر الذنوب، وتشمل المصانعة والمداهنة للكفار، لغرض دنيوي، مع عدم إضمار الكفر والردة عن الإسلام، من جنس محبة المشركين والكفار، لأجل دنياهم، أو لأجل قراباتهم، أو لنحو ذلك، وضابطه أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا، ولا يكون معها نصرة.

---

(1) انظر: موسوعة نضرة النعيم (8/3687).

(2) انظر: الدرر السنية (8/422)، (15/479)، ومختصر تسهيل العقيدة الإسلامية (ص 169- 172).

(3) انظر: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية (1/35).

من مظاهر هذه الموالاة المحرمة:

محبة الكفار والأنس بهم والانبساط والتلطف معهم بغير نية دعوتهم إلى الإسلام، واتخاذهم أصدقاء، واستشارتهم واستعمالهم في أمور المسلمين في أي أمر كان، إمارة أو عمالة، أو كتابة، أو غير ذلك.
التشبه بهم فيما هو خاص بهم مما يتميز به الكفار عن المسلمين، كاللباس أو هيئة الأكل أو الشرب، أو طريقة تسريح أو حلق شعر الرأس، ويشمل ذلك أيضا تهنئتهم في أعياد ومناسباتهم، والاستيطان الدائم في بلاد الكفر والسفر إليها في غير ما دعت إليه الحاجة (1).

صفات أولياء الله، وثمرات هذه الولاية (2):

لقد بينت النصوص القرآنية صفات أولياء الله الذين يواليهم الحق تبارك وتعالى، ويشمل برعايته، ويحفظهم، ويؤيدهم بنصرهم ضد كل من يعاديهم.

قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ **[يونس، من الآية: 62 إلى 64].**

فأولياء الله في هذه الآية وصفهم بالإيمان، والتقوى.

فهم الذين آمنوا إيمانا صادقا راسخا ثابتا بكل ما يجب الإيمان به في الإسلام، وكانوا من المتقين الذين استقاموا على فعل الطاعات والابتعاد عن المنكرات. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، وكل مؤمن تقي هو ولي لله، ومن كان وليا لله فهو ولي لرسوله ﷺ، ومن تولى الله ورسوله؛ كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهرا وباطنا، وأخلصوا للمعبود.

---

(1) انظر: الدرر السنية (8/154– 155)، ومجلة البحوث الإسلامية (العدد 79. ص 187).

(2) قال الشيخ ابن عثيمين: " الولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة. وهي تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[البقرة، الآية: 257]، ومن الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المائدة، الآية: 56]. والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة: هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام، الآية: 62]. والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعناية وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [البقرة، الآية: 257]. وقال: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس، الآية: 62] ".
فتح المجيد مع القول المفيد في شرح كتاب التوحيد (ص 597– 598)، وانظر: كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية.

ثمرات الولاية:

– الثمرة الأولى: أنهم لا خوف عليهم؛ لأنهم في آمان الله، فهم محرسون بحفظه، مصنون بصونه؛ فهم موعودون بالخلود في الجنات والتمتع بما فيها من الملذات؛ فقلوبهم مطمئنة لا قلق فيها ولا اضطراب.

– الثمرة الثانية: أنهم لا يحزنون، فلا يمس الحزن قلوبهم على ما فات؛ لأنهم راضون، ومؤمنون بما قضاه الله لهم فيما سبق، وفيما يأتي من المستقبل؛ لأنهم يرون أنهم كوفئوا على إيمانهم وتقواهم بثواب عظيم جليل ونعيم مقيم، لم يخطر على قلوبهم، ولم تتصوره عقولهم قط.

– الثمرة الثالثة: أنَّ لهم البشرى في الحياة الدنيا بما ظفروا به من الخيرات العظيمة وطيب العيش، من التأييد والنصر والتمكين في الأرض، والسعادة التي لا ينالها سوى المؤمنون. وفي الآخرة تمام البشرى بالفوز برضوان الله ودخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

وقد فسرت البشرى بالرؤيا الصالحة، وبشارة الملائكة عند الموت بالمغفرة والجنة، والثناء الحسن[1].

ومن ثمرات هذه الولاية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة، الآية: **56]**.

والمعنى: بأنهمن يطيع الله ويتوكل عليه، ويتول رسوله ﷺ بتتبعه والتأسي به، ويتول المؤمنين بمناصرتهم ومؤازرتهم والتعاون معهم على البر والتقوى؛ فلا شك في حسن عاقبته وظفره بالفلاح والنصر؛ فإنَّ حزب الله هم الغالبون، وهذه إضافة عبودية وولاية تنويها بذكرهم، وتعظيما لشأنهم، وتشريفا لهم بهذا الاسم، وتعريضا لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان[2].

و فيه بشارة عظيمة، لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، بأن له الغلبة، وإن ابتلي بالهزيمة في بعض الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى، فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلا.
فكل من رضي بموالاة الله ورسوله والمؤمنين هو مفلح في الدنيا والآخرة، وهو منصور في الدنيا والآخرة، لأنه يكون في حزب الله، وحزب الله هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة،
كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات، الآية: **173]، ولا يُغْلَب من يتولاهم الله [3].**

(1) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (2/297– 298)، وتفسير السعدي (ص 55).

(2) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (4/202).

(3) انظر: تفسير السعدي (ص 236)، وتفسير ابن كثير (5/268).

ومقابل ذلك جاءت آواخر سورة المجادلة بالنهي عن موالاة الكفار، ولو كانوا من ذوي الرحم والقربى.

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة، الآية: 22] [1].

قال السعدي: ((فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.
وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرسا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك. وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.
وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية)) [2].

وقال ابن كثير: ((في قوله تعالى: ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله؛ عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ أي: هؤلاء حزبُ الله، أي: عباد الله،

---

(1) تعددت الروايات في أسباب نزول هذه الآية، ومنها ما نقلهالواحدي عن ابن جريج: أن أبا قحافة سبّ النبيّ ﷺ فصكه أبو بكر صكة شديدة سقط منها، ثم ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: ((أو فعلته؟)) قال: نعم، قال: ((فلا تعد إليه))، فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريبًا مني لقتلته، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية. وروي عن ابن مسعود أنه قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال: يا رسول الله دعني أكن في الرحلة الأولى، فقال له رسول الله ﷺ: ((متعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري)). وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أُحد، وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي علي وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر، وذلك قوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾. انظر: أسباب نزول القرآن، للواحدي (ص 653).

(2) تفسير السعدي (ص 848).

وأهل كرامته. وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ **تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان. ثم قال:** ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ » [1].

فنهت هذه الآية المؤمنين نهيا شديدا عن موالاة أعداء الله، لأن موالاتهم قد تجر إلى الارتداد عن الدين الحق، ومن يرتد عن الدين الحق فلن يضر الله شيئاً، لأنه سبحانه قادر على أن يأتي بقوم آخرين صادقين في إيمانهم بدل أولئك الذين ارتدوا على أعقابهم، كما نراها قد أرشدت المؤمنين إلى من تجب موالاتهم، وبشرتهم بالفلاح والنصر متى جعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة والدين.

(1) تفسير ابن كثير (469/13).

المبحث الثاني: ثمرات الفلاح

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السعادة في الدنيا.

المطلب الثاني: النجاة والفوز في الآخرة.



المطلب الأول: السعادة في الدنيا

إنَّ السعادة في الحياة من أهم ثمرات الفلاح التي يجنيها المفلحون، ويهنأ بها الفائزون؛ فهي الغاية المنشودة للأفراد والمجتمعات، فالكل يحرص على تحصيلها ويسعى في تحقيقها على حسب تصوره لمفهوم السعادة؛ فإنَّ عقول البشر ومداركهم لا تتفق على رأي واحد لحقيقة السعادة وماهيتها.

ففي الوقت الذي يرى البعض أنّ السعادة تكمن في وفرة المال وتيسر الأسباب المادية، يراها البعض الآخر في التقدم التكنولوجي الباهر وما حققه من رغد العيش الذي بلغته المجتمعات الغربية، بالرغم من الانحطاط الأخلاقي والإفلاس التربوي الذي آلت إليه حضارة الغرب الزائفة.

على العكس من ذلك فإنَّ شريعة الإسلام الربانية تحدد وبوضوح مفهوم السعادة الدنيوية القائمة على الموازنة بين متطلبات العقل والنفس، ورغبات الجسد والروح في رؤية شاملة متكاملة بحيث
لا يطغى جانب عن الآخر؛ لذلك نجد أن مرتكزات السعادة بالمنظور الإسلامي تقوم على أسس الاطمئنان والآمان والشعور بالرضى التام في الحياة، مع راحة البال وسكينة النفس وانشراح الصدر.

فحقيقة السعادة الدنيوية هي الحياة الطيبة كما صور ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل، الآية:97]. وقد اختلفت عبارات السلف في الدلالات الحسية والمعنوية لمعاني الحياة الطيبة الواردة في الآية السابقة، فمن الأقوال التي نقلها المفسرون أنَّ المراد بالحياة الطيبة: الرزق الحلال، وقيل: القناعة، ومنهم من فسرها بالسعادة [1].

قال ابن كثير: « والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله فهي جامعة لوجوه الراحة من أي جهة كانت » [2].

وقال الطاهر بن عاشور: « وهذا وعد بخيرات الدنيَا. وأعظمها الرضى بما قسم لهم وحسن أملهم بالعاقبة والصحّة والعافية وعزّة الإسلام في نفوسهم. وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عبادهُ المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم. ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا » [3].

---

(1) انظر: تفسير الطبري (14/350 وما بعدها).
(2) تفسير ابن كثير (8/352).
(3) التحرير والتنوير (14/273).

ومن خلال التأمل في السنة النبوية يتبين أنَّ السعادة الدنيوية تقوم على ثلاثة ركائز متينة، وهي: الأمن، والعافية، والكفاف. وقد وردت الإشارة إليها في قوله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »[1]. فمن تيسرت له هذه الأمور الثلاثة بلغ الغاية في الظفر بالسعادة.

مرتكزات السعادة في الدنيا:

– أولا: نعمة الأمن.

الأمن نعمة كبرى ومنّة عظمى، وهو مطلب شرعي وعقلي؛ فالأمن طمأنينة القلب وسكينته وراحته وهدوؤه، فلا يخاف الإنسان مع الأمن على الدين، ولا على النفس، ولا على العرض،
ولا على المال، ولا على الحقوق؛ فهو أصل من أصول الحياة البشرية، لا تزدهر الحياة ولا تنمو،
ولا تحلو بغير الأمن، وبانعدامه يتعطل البناء الحضاري للأمة وتضيع مصالح الناس، وتنتشر الفتن التي تجلب الشقاء وتصد المرء عن دينه، وتحرمه من استغلال دنياه؛ لذلك كانت سعادة الفرد والمجتمعات في اجتناب الفتن والنجاة من أضرارها، فقد قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ؛ وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا »[2]. وفي هذا التكرار تنبيه لخطورة الفتن وشؤمها، وبيان لسعادة من اجتنبها وتوقاها، وتحلى بالصبر لتجاوزها.

فإذا اختلت نعمة الأمن فسدت الحياة، وشقيت الأمم، وساءت الأحوال، وتغيرت النعم بأضدادها، فصار الخوف بدل الأمن، والجوع بدل رغد العيش، والفوضى بدل اجتماع الكلمة، والظلم والعدوان بدل العدل والرحمة. فلا سبيل للهناء والاستقرار والسعادة في هذه الدار إلا بالأمن، وفي كنفه تصلح الحياة وتزدهِر، وتنبسط معه الآمال، وتتيسَّر معه الأرزاقُ، وتزيد معه التجارات، وتتقدَّم معه التنمية، وينتشر فيه العلمُ والتّعليم، ويعزّ فيه الدين والعدل، ويظهَر فيه الأخيارُ على الأشرار، وتوظَّف فيه الأموال في كلِّ مشروعٍ نافعٍ للفرد والمجتمع، وفي ظلال الأمن تحقَن الدّماء وتصَان الأموال والأعراض، فلا يطيب العيش إلا باستتبابِه، ولذلك جعَله الله من نَعيم أهلِ الجنّة الدائم، قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر، الآية:46].

---

(1) صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب في الكفاف والقناعة (730/2)، (ح: 1054).

(2) أخرجه أبو داود: كتاب الفتن والملاحم / باب في النهي عن السعي في الفتن (297/4)، (ح: 4263)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (13/3).

– ثانيا: نعمة الصحة والعافية.

إنَّ صحة البدن والأعضاء من أهم الأسباب الجالبة للسعادة، فكم من مبتلى بالأسقام والأمراض المزمنة حُرِم من التنعم بطيبات الحياة؛ لذلك قال ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَةُ، وَالفَرَاغُ »[1]، وقال ﷺ لرجل وهو يَعِظُهُ: « اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »[2].

والكثير من الناس لا يستشعر نعمة الصحة والعافية حتى إذا افتقدها عرف قيمتها وراح يتحسر على ما فاته أيام الرخاء؛ فإنَّ صحة الجسم وقوته من الأمور المعينة على العبادة، فالجهاد والحج والصوم وغيرها من القربات لا يقدر عليها المرضى؛ لتدني قدرتهم أو انعدامها، بخلاف الأصحاء فهم قادرون على الاجتهاد في الطاعات والمسابقة إلى الخيرات، والمحروم من أعطي صحة الجسم وسعة الرزق؛ فلم يستغلها لمرضاة الله تعالى، وأنهك قوته وماله في المعاصي والمحرمات – نعوذ بالله من الخذلان –

وفي الحديث القدسي أنَّ رسول الله ﷺ قال: « قَالَ الله إِنَّ عَبْداً صَحَّحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ يَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لاَ يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ »[3].

فالبسط في الجسم والعافية في البدن من النعم التي فضل الله بها بعض الخلق دون من سواهم، جاء في التنزيل قول المولى الجليل: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء، الآية:95]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ [البقرة، الآية:247]، وفي سورة القصص: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الآية:26].

وإذا تمت صحة العبد سعى في مصالحه وحاجيات دنياه، بكل أشواقه وكامل طاقاته بنفس مطمئنة وصدر منشرح، ممّا يورث له السعادة والسرور في حياته.

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق/ باب ما جاء في الرقاق، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (175/4)، (ح: 6412).

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الرقاق (447/4)، (ح: 7927). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (311/3)، (ح: 3355).

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب الحج / باب فضل الحج والعمرة (16/9)، (ح: 3703)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

وقد وردت بعض الآثار في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر، الآية: 8] أنَّ المقصود بالنعيم: الأمن وصحة الأبدان والأسماع والأبصار[1].

فخير ما يعطى العبد في الدنيا العافية التامة الشاملة في البلد والجسد والولد مصداقا لقوله ﷺ: « سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ –بَعْدَ الْيَقِينِ – خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ »[2]، فإنَّ الصحة والعافية من نعيم الدنيا، ولا تعادلها كثرة الأموال؛ فهي من أسباب سعادة المرء في هذه الدار التي تمكنه من تحقيق آمانيه؛ فتطيب نفسه وينشرح صدره ويطمئن قلبه، وقد ورد في السنة الشريفة أنَّ الصحابة كانوا في مجلس، فجاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقال له بعضهم: نراك اليوم طيب النفس، فقال: « أَجَلْ، وَالْحَمْدُ لِلَّه ». ثم أفاض القوم في ذكر الغنى، فقال: « لاَ بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنْ اتَّقَى، وَالصِّحَةُ لِمَنْ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الغِنَى، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ »[3].

ومن نال العافية في الدنيا فقد تحققت له سبل السعادة والهناء، وارتقى في درجات الفلاح في العاجل والآجل؛ ففي الحديث أنَّ رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! أي الدعاء أفضل ؟ قال: « سَلْ رَبَّكَ الْعَافِيَةَ، وَالْمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ »، ثم أتاه في اليوم الثاني، فقال: يا رسول الله ! أي الدعاء أفضل ؟ فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال له مثل ذلك، قال: « فَإِذَا أُعْطِيتَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا، وَأُعْطِيتَهَا فِي الآخِرَةِ، فَقَدْ أَفْلَحْتَ »[4].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (449/14).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات/ باب في دعاء النبي ﷺ (557/5)، (ح: 3558)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (464/3).

(3) أخرجه ابن ماجة: كتاب التجارات/ باب الحث على المكاسب (724/2)، (ح: 2141)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (207/2).

(4) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات/ باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ (533/5)، (ح: 3512)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص 385).

- ثالثا: نعمة الرزق والكفاف.

من النعم التي يطيب بها عيش المرء وتكون سببا في سعادته؛ أن يكون مكتفيا بماله لا يتطلع إلى الآخرين أعطوه أم منعوه، ولا يتسول صدقات الأغنياء الذين يرمقونه بنظرات الإشفاق، وربما مَنُّوا عليه نفقاتهم؛ ما يكون سببا في شعوره بالضيق والحرج، وقد جاء في حديث جبريل أنَّ: « شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ »[1]، وقال ﷺ : « لأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ »[2]؛ فالكفاف من الرزق هو الذي يكفي العبد، فيكف قلبه ولسانه عن التشوف وسؤال الخلق، ويجعله مغتبطا برزق الله مثنيا على الله بما أعطاه من ميسور الرزق؛ ولذلك فالمال الحلال الذي يجنيه العبد بجهده وعرق جبينه، ولو قلَّ فإنه يحفظ للإنسان كرامته، واستقلاليته في تدبير شؤون حياته، ولا شك أنَّ مصالح الخلق ورغباتهم يتيسر قضاؤها بوجود المال؛ فصاحب العيال ينفق على أهل بيته ويسد حاجتهم، وطالب العفاف يحصن نفسه ويستطيع دفع تكاليف الزواج، وقاصد بيت الله الحرام يلزمه ما يكفيه من المال لإتمام سفره وإكمال المناسك، وطالب العلم محتاج إلى المال ليوفر ما يحتاجه من شراء الكتب وتحصيل العلوم، وحتى الأمة الإسلامية يتحتم عليها أن تكتفي بمواردها المالية لتأمين ظروف العيش الكريم لمن هم تحت سلطتها، وتسعى لبناء الدولة القوية التي تستطيع الدفاع عن شعبها وأراضيها ضد كل من يتربص بها من الأعداء، وتحرص على نشر تعاليم الإسلام السمحة في أقطار الأرض.

والمتأمل للتوجيه القرآني والنبوي فيما يخص نظرة الإسلام للمال وتنميته يرى أنَّ تعاليم الشريعة ذمت الحرص الشديد على كنز المال وتجميعه كما هو حال المفتونين بزخرف الدنيا ، فهؤلاء يصدق عليهم قول رسول الله ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى »[3]، فيجب على المسلم أن يكون قانعا راضيا بما قسم له مولاه من الرزق حامدا لربه مستحضرا نعم الله الجليلة التي يتقلب فيها مع تقصيره عن أداء شكرها؛ فإنَّ فلاح العبد وسعادته يكمن في الزهد عن الدار الفانية

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (469/4)، (ح: 8002)، وحسنه بمجموع طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة (485/2)، (ح: 831).

(2) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة/ باب كراهة المسألة للناس (721/2)، (ح: 1042).

(3) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة/ باب أنَّ اليد العليا خير من اليد السفلى (717/2)، (ح: 1035).

والتعلق بالدار الآخرة؛ قال رسول الله ﷺ: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » [1] فجعل ﷺ هذه الثلاث عنوان الفلاح، وبها يحصل الخير والنجاح، فإن من جمع الله له هذه الثلاث فقد جمع له خير الدنيا والآخرة، وتمت عليه النعم الباطنة والظاهرة، وبها الحياة الطيبة في هذه الدار، والسعادة الأبدية في دار القرار.

وقد بين الرسول الكريم أنّه من تعلق قلبه بحطام الدنيا زاده الله غما وهما، ومن تعلق فؤاده بالآخرة أورثه الله سعادة النفس وانشراح الصدر، قال ﷺ: « مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ » [2].

وحقيقة الغنى في شريعة الإسلام ليس بكثرة الدور والقصور، وإنّما بسلامة القلب وامتلائه بتعظيم الخلاق ورضى النفس بما أنعم الرزاق؛ قال ﷺ : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ » [3]. وفي حديث آخر قال ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَرَى كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الغِنىَ » ؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: « فَتَرَى قِلَّةَ الْمَالِ هُوَ الفَقْرَ » ؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: « إِنَّمَا الغِنَى غِنَى القَلْبِ، وَالفَقْرُ فَقْرُ القَلْبِ » [4].

ومن مكملات سعادة الإنسان التي ذكرها النبي ﷺ صلاح الزوجة والجار و سعة المسكن، ومهنأ المركب قال ﷺ : « أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الوَاسِعُ، والْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ: الْجَارُ السُّوءُ، وَالْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضَيِّقُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ » [5].

وفي رواية الحاكم: « ثَلاَثٌ مِنَ السَّعَادَةِ، وَثلاَثٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ، فَمِنَ السَّعَادَةِ الْمَرْأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ فَتَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمَالِكَ، وَالدَّابَةُ تَكُونُ وَطِيَّةً فَتُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً

---

(1) صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب في الكفاف والقناعة (730/2)، (ح: 1054).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (642/4)، (ح: 2465)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (593/2).

(3) صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب ليس الغنى عن كثرة العرض (726/2)، (ح: 1051).

(4) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب الرقائق / باب الفقر والزهد والقناعة (461/2)، (ح: 685)، بإسناد صحيح.

(5) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب النكاح / باب ذكر الإخبار عن الأشياء التي هي من سعادة المرء في الدنيا (340/9)، (ح: 4032)، بإسناد صحيح.

كَثِيرَةَ الْمَرَافِقِ. وَمِنَ الشَّقَاوَةِ الْمَرْأَةُ تَرَاهَا فَتَسُوءُكَ، وَتَحْمِلُ لِسَانَهَا عَلَيْكَ، وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمالِكَ، والدَّابَةُ تَكُونُ قَطُوفًا، فَإِنْ ضَرَبْتَهَا أَتْعَبَتْكَ، وَإِنْ تَرَكْتَهَا لَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ ضَيِّقَةً قَلِيلَةَ الْمَرَافِقِ » [1].

والمناسبة واضحة بين ثمرات الفلاح وهذه الأمور التي تجعل المرء سعيدا، فإنَّ المفلحين لَمَّا اجتهدوا في تحقيق أسباب الفوز والنجاح؛ نالوا ما تمنوه وظفروا بما رغبوا فيه، والجزاء من جنس العمل؛ فمن أطاع الله وسعى في مرضاته، أكرمه سبحانه بما يَسُرُّهُ ويُسْعِدُه في حياته.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (2/192)، (ح: 2741). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2/403– 404)، (ح: 1915).



المطلب الثاني: النجاة والفوز في الآخرة.

- أولا: النجاة من النار.

لا شك أنَّ النجاة من النار والفوز بالجنة هما أغلى ثمرات الفلاح وأسمى مراتب النجاح، فالموفق والسعيد من سلك سبيل المفلحين، ودخل جنات النعيم غاية المطالب وأشرفها، ونجا من جحيم النار أسوء المنازل وأرداها.

وفي هذا المقام يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

[آل عمران، الآية: 185]

- قال الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية: « وإنّما جُمع بين ﴿ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ ﴾**، مع أنّ في الثاني غنية عن الأوّل، للدلالة على أنّ دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من النار، ونعيم الجنّة »** [1].

والمتدبر لما احتوت عليه هذه الآية الكريمة من المعاني الجليلة يقف على فائدة عظيمة، وهي أنَّ الفوز بالجنة متضمن لمعنى النجاة من النار، وهذا المغزى قد يغيب استيعابه وإدراك حقيقة مدلولاته عند الكثير من الناس؛ لأنَّ المتبادر إلى الأذهان عند ذكر الفوز في الآخرة هو الظفر بالجنة والتمتع بنعيمها؛ لذلك أحببت التنبيه على فضل النجاة من النار وعظيم شأنها في هذا المبحث الخاص بثمرات الفلاح في الآخرة.

وقد ورد التعبير عن النجاة من النار في هذه الآية بقوله ﴿ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾**، والزحزحة عن النار: هي التنحية عنها، وعدم الاقتراب منها. والفعل زحزح مضاعف الفعل (زح)، تقول زح ه عن المكان: إذا جذبه وأبعده عنه بعجلة وسرعة** [2].

قال الإمام الشعراوي:

« كأن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان، ومجرد الزحزحة عن النار، حتى وإن وقف بينهما لا في النار ولا في الجنة فهذا حسن، فما بالك إنْ زُحزِح عن النار وأُدخل الجنة ؟

---

(1) التحرير والتنوير (4/188- 189).

(2) التفسير الوسيط، للطنطاوي (2/361).

لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً. وهذه حاجة حسنة، وهذا هو السبب في أن النار مضروب على متنها الصراط الذي سنمر عليه، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار، وهو ماشٍ على الصراط التي لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها، فيقول: الحمد لله الذي نجاني من تلك النار. وقوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾؛ فللفوز هو النجاة مما تكره، ولقاء ما تحب، مجرد النجاة مما تكره نعمة، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة، فهذا فوز.

ونلحظ في قوله: ﴿ زُحۡزِحَ ﴾ أن أحداً غيره قد زحزحه. نعم لأنّ الله تكرّم عليه أولاً في حياته بفيض الإيمان، وهو الذي زحزحه عن النار أيضا »[1].

وفيما ذكره الإمام الشعراوي رحمه الله عن جاذبية النار للناس أمر واقع وتشهد الآثار النبوية بذلك، والمقصود من انجذاب العباد إلى النار هو ظلمهم لأنفسهم بالمعاصي وإيقاعها في المطبات التي تكون سببا في حتفهم وهلاكهم، وقد صوّر الرسول هذا المعنى بأسوب بديع يحمل الكثير من العبر والحِكم، فقال عليه السلام: « مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا. وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا »[2].

ومقصود الحديث أنه ﷺ شبه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله[3].

فالنجاة من النار وحدها نعمة جليلة حُرمها الكثير من الخلق الذين آثروا اتباع الشهوات وانغمسوا في المحرمات، وأهملوا مجاهدة النفس الأمارة بالسوء؛ ومن أراد الوقوف على قدر ثمرة النجاة من النار وأهمية ذلك فليتفكر في قوله عليه السلام: « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ؛ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَهَا، وَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَوَ عِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا،

---

(1) تفسير القرآن الكريم، للشعراوي (ص 1927).

(2) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (1789/4)، (ح: 2284).

(3) شرح النووي على صحيح مسلم (50/15).

فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا؛ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ؛ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ، فَيَدْخُلُهَا، فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا »[1].

وخلاصة الأمر: أنَّ هناك جنة ونارا، وإن من الناس من يلقى في هذه ومنهم من يلقى في تلك، وإنَّ هول النار عظيم، وعَبَّرَ عن النجاة عنها بالزحزحة، كأن كل شخص كان مشرفا على السقوط فيها؛ لأن أعمالهم سائقة لهم إلى النار، فلا يدخل الجنة أحد إلا إذا زحزح، فالزحزحة عنها فوز عظيم، وأولئك المزحزحون هم الذين غلبت صفاتهم الروحية على الصفات الحيوانية فأخلصوا في إيمانهم، وجاهدوا في اللّه حق جهاده، ولم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير اللّه معه في عمل من أعمالهم[2].

وحقيقة النجاة من النار في نصوص الكتاب والسنة تتضمن أسرار دقيقة ومعاني عميقة يتكشف لمن تأملها عِظم هذه النعمة وأثرها الإيجابي على العباد، فإنه ما من عبد إلا كتب مقعده من النار إذا أعرض عن دين الله تعالى واتبع هواه وما يغويه به الشيطان؛ فإذا أراد الله به خيرا وفقه للطاعات والمسارعة في الخيرات ليكون ذلك فكاكه من النار ونجاة له من عذابها، ومتى استعشر العبد هذه المعاني في نفسه عرف قدر آلاء ربه عليه ورحمته به؛ فيشكر ربه ويسعى جاهدا للعمل على ما يجنبه النار ويبعده عنها، وهذا قد بينه الرسول الكريم ﷺ بقوله: « لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً »[3].

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة/ باب حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات (4/693)، (ح: 2560)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (3/20).

(2) انظر: تفسير المراغي (3/154).

(3) صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار (4/203)، (ح: 6569).

ومن الآيات التي جاء فيها بيان نجاة أهل الفلاح والسعادة من النار وفوزهم بالجنة:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ **[الأنبياء، الآيات:101– 102– 103].**

فمن كتبت لهم السعادة والنجاة من النار بسبب إيمانهم الخالص وعملهم الصالح، وقولهم الطيب؛ فأولئك لا يسمعون صوت لهيب النار المفزع فضلا على معاناة عذابها، وفي هذا تأكيد لبعدهم عن النار غاية البعد، وبيان لنجاتهم وأمنهم من كل ما يفزعهم ويدخل القلق على نفوسهم.

بل هم في نعيم دائم فيما تتمناه أنفسهم، وتشتهيه أفئدتهم، وتنشرح له صدورهم من المآكل، والمشارب، والمناكح، والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر خالدين في ذلك خلوداً أبديا لا ينغصه حزن أو انقطاع، وتستقبلهم الملائكة بفرح واستبشار مهنئين لهم قائلين هذا يومكم الذي كنتم توعدون في الدنيا؛ فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم، بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره [1].

(1) انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي (9/254– 255)، وتفسير السعدي (ص 531).

- ثانيا: الفوز بالجنة.

بعد ذكر نعمة نجاة أهل الصلاح والفلاح من أعظم مرهوب، وهي النار ذات الوقود؛ يأتي الكلام على الظفر بأعظم وأجل مطلوب، وهو الفوز بجنة الخلود، أعلى وأغلى ثمرات الفلاح، دار الأولياء، وموطن الأتقياء، ومنازل السعداء.

والحديث عن الجنة وما أعده الله تعالى لأهلها من النعيم المقيم، والسرور القلبي والروحي والبدني يسمو بالأرواح إلى عالم الملكوت، ويرتقي بالقلوب إلى درجات الإخبات والقنوت، ويطرب النفوس ويسليها، ويرغب العباد في اتباع سبيل المفلحين والتحلي بمآثرهم الحميدة، ويدعوهم إلى التشمير عن سواعد الجد للفوز بسعادة الأبد.

وليكن في الحسبان أنه مهما اجتهد الواصف للجنة واختار أصدق الكلمات والعبارات، ما استطاع بيان حقيقتها، فنعيمها لا يخطر على بال، ووصفها فوق كل تصور أو خيال؛ كيف لا، وقد جاء في الحديث القدسي أن رسول الله ﷺ قال: « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة، الآية: 17] »[1].

وحسبي بيان بعض التلميحات والإشارات المنتخبة من ألطف العبارات؛ كي تُشحذ الهمم للمسارعة إلى جنة عرضها كعرض الأرض والسماوات، فكيف يُقَدَّرُ قَدْرُ دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرا لأحبابه، وملأها من رحمته وكراماته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص.

فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة لا من الحطب والخشب، وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلى من العسل،

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (2/432)، (ح: 3244)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (4/2174)، (ح: 2824)، واللفظ لمسلم.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير، وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام، وإن سألت عن خيامها وقبابها فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلا من تلك الخيام، وإن سألت عن علاليها وقصورها فهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار، وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فرشها فبطائنها من استبرق مفروشة في أعلى الرتب، وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة مزررة بأزرار الذهب، وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر، وإن سألت عن حليهم وشارتهم، فأساور الذهب واللؤلؤ، على الرؤوس ملابس التيجان، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب، اللاتي لو اطلعت إحداهن على الدنيا، لطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم [1].

- ثالثا: أعلى النعيم في الجنة:

رضوان الله تعالى على أهلها، وإكرامهم بالنظر إلى وجهه سبحانه

فوق ذلك كله ينال المفلحون الفائزون بالجنة الرضوان من الرحمن، وهو غاية أرب المحبين، ومنتهى أمنية الراغبين، وهو أعلى العطاء وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة، الآية:72].

---

(1) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص 597 وما بعدها).

ذكر أهل التفسير أنَّ الرضوان أكبر من النعيم؛ لأنّ رضاه سبحانه وتعالى سبب كل فوز وسعادة، وبرضاه عنهم ينال أهل الجنة تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأنَّ العبد إذا علم أنَّ مولاه راض عنه، فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة وإن عظمت؛ وسرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب؛ وهذا برهان قاطع على أن السعادات الروحانية أشرف وأعلى من السعادات الجسمانية [1].

فالجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم، ومصداق ذلك ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » [2].

ويتضمن ذلك النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فكل ما في القرآن من التعميم لجميع أصناف النعيم، فإنَّ أعظم ما يدخل فيه رؤيةُ وجه ربنا ذو الجلال والإكرام الذي هو أعلى من كلِّ نعيم، قال سبحانه: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس، الآية:26]؛

حتى إنَّ أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم الذي لا يوصف، والسرور والأفراح واللذات التي لا يقدر قدرها؛ إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله، نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودُّوا أن لو تدوم لهم هذه الحال التي هي أعلى نعيم ولذة، واكتسوا من جماله جمالاً إلى ما هم فيه من الجمال، وكانت قلوبهم دائمًا في شوق عظيم ونزوع شديد إلى رؤية ربهم، حتى إنهم ليفرحوا بيوم المزيد[3]،

---

(1) انظر: تفسير الكشاف (67/3)، ومفاتح الغيب (136/16– 137).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار (200/4)، (ح: 6549)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا (2176/4)، (ح: 2829).

(3) ورد في السنة أنَّ جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وأخبره بأنَّ يوم الجمعة يسمى في الآخرة بيوم المزيد، وهو اليوم الذي يتجلى فيه الحق تبارك وتعالى لعباده؛ حتى يكرمهم بالنظر إلى وجهه الكريم، ويفيض عليهم من رحماته وبركاته.

ففي الحديث: قال رسول الله ﷺ: « أَتَانِي جِبْرِيلُ عليه السلام وَفِي يَدِهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ، فِيهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا ولِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، تَكُونُ أَنْتَ الأَوَّل وَتَكُونُ لليَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: مَا لَنَا فِيهَا ؟ قَالَ: فِيهَا خَيْرٌ لَكُمْ، فِيهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا رَبَّهُ فِيهَا بِخَيْرٍ هُوَ لَهُ قِسْمٌ إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، أَوْ لَيْسَ لَهُ بِقِسْمٍ إلاَّ ادَّخَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمَ =

فرحًا تكاد تطير له القلوب [1]؛ ومصداق ذلك قول رسول الله ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ. فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ » [2].

أسأل الله الكريم المنان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يرزقنا الفلاح في الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا من ورثة جنة النعيم، ويكرمنا بحلاوة النظر إلى وجهه الكريم لي ولوالدي ولجميع مشايخنا، ولكل من اطلع على هذا البحث، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

= مِنْهُ، أَوْ يَتَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ شَرٍّ هُوَ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ؛ إِلاَّ أَعَاذَهُ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ. قُلْتُ: مَا هَذِهِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ فِيهَا ؟ قَالَ: هِيَ السَّاعَةُ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ الأَيَّامِ عِنْدَنَا وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ. قَالَ: قُلْتُ: لِمَ تَدْعُونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ؟ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ فِي الجنَّةِ وَادِيًا أَفْيَحَ مِنْ مِسْكٍ أَبْيَضَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الجمُعَةِ نَزَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، ثُمَّ حَفَّ الكُرْسِيَ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ وَجَاءَ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ حَفَّ الْمَنَابِرَ بِكَرَاسِيَّ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ جَاءَ الصِّدِيقُونَ وَالشُهَدَاءُ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الجنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الكَثِيبِ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَتَّى يُنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا الذِي صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، هَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي؛ فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: رِضَايَ أَحَلَّكُمْ دَارِي، وَأَنَالَكُمْ كَرامَتِي، فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِي رَغْبَتُهُمْ. فَيَفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ إِلَى مِقْدَارِ مُنْصَرَفِ النَّاسِ يَوْمِ الجمُعَةِ، ثُمَّ يَصْعَدُ الرَّبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ، فَيَصْعَدُ مَعَهُ الشُهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ – أحسبه قال: – وَيَرْجِعُ أَهْلُ الغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ لاَ فَصْمَ فِيهَا، وَلاَ وَصْمَ، أَوْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، أَوْ زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاءَ، مِنْهَا غُرَفُهَا وَأَبْوَابُهَا، مُطَّرِدَةٌ فِيهَا أَنْهَارُهَا، مُتَدَلِّيَةٍ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا، فَلَيْسُوا إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الجمُعَةِ لِيَزْدَادُوا فِيهِ كَرَامَةً، وَلِيَزْدَادُوا فِيهِ نَظَرًا إِلَى وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ ».

رواه الطبراني في الأوسط، والبزار واللفظ له. انظر: كشف الأستار عن زوائد البزار (**195/4**)، (ح: **3519**).

والحديث حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (**525/3**)، (ح: **3761**).

(1) انظر: فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، للسعدي (ص **45– 46**)، (ص **69– 70**).

(2) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (**163/1**)، (ح: **181**).

الفصل الثالث:

مَنْ نُفِيَ عَنْهُمْ الفَلاَحُ

في القرآن الكريم.

وفيه أربعة مباحث:

تمهيد:

دلالات ومعاني نفي الفلاح في القرآن الكريم:

بعد بيان معاني الفلاح في القرآن الكريم وتفصيل أسبابه، وعرض صفات المفلحين؛ يأتي في هذا الفصل ذكر الأفعال المنافية لفلاح العباد في العاجل والآجل، والموجبة للخسارة والخذلان، والخلود في النيران، والحرمان من الجنان؛ لذلك كان حريا بالعباد معرفة الموبقات التي نص القرآن على كونها سببا في نفي الفلاح عمن اقترفها، أو كانت من الصفات السالبة للفلاح، أو أنّ فاعلها لا يفلح [1].

وعلى العموم فإن دلالة نفي الفلاح في الكتاب والسنة تتنوع بحسب إطلاقات لفظ الفلاح ومقيداته؛ وأيضا باختلاف سياق النصوص، وتباين الأحوال والظروف؛ فقد يكون المراد بذلك:
إما نفي الفلاح المطلق، أو مطلق الفلاح[2] على التفصيل الآتي:
فأمَّا نفي الفلاح المطلق، فهو بمعنى: تحريم دخول الجنة، والخلود الأبدي في النار؛ لأنه يكون سببا في إحباط الأعمال، كالأفعال الشركية، والأقوال الكفرية المنافية لأصل الإيمان.
وأمَّا نفي مطلق الفلاح، أو نفي نوع منه، أو درجة من درجاته، فهذا يندرج ضمن المعاصي والسيئات التي تكون سببا في نقص الإيمان، ولكنها لا تنفيه بالكلية.

وقد تقرر عند أهل التفسير أنَّ نفي الفلاح في القرآن يفيد المبالغة في التحريم والزجر والوعيد، فقد عرف باستقراء القرآن أن تقدير المعنى في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون، الآية: 117]، وغيرها من الآيات التي بنفس هذا السياق، أنَّ المراد بها نفي الفلاح المطلق في الحال وفيما يستقبل؛

---

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن (11/2).

(2) مطلق الشيء، والشيء المطلق: مصطلحان يكثر ورودهما في كتب أهل العلم، وفي كتاب التوحيد خاصة، فتجدهم يقولون– مثلا–: التوحيد المطلق ومطلق التوحيد، والإسلام المطلق ومطلق الإسلام، والإيمان المطلق ومطلق الإيمان، والشرك المطلق ومطلق الشرك، والفلاح المطلق ومطلق الفلاح. ومن المهم معرفة أنَّ الشيء المطلق هو: الكامل، فالإيمان المطلق هو: الإيمان الكامل، والإسلام المطلق هو: الإسلام الكامل، والتوحيد المطلق هو: التوحيد الكامل، والفلاح المطلق هو: الفلاح الكامل.
وأما مطلق الشيء، فهو: أقل درجاته، أو درجة من درجاته، فمطلق الإيمان هو: أقل درجاته؛ فنقول مثلا: هذا ينافي الإيمان المطلق، يعني: ينافي الإيمان، أو نقول: هذا ينافي مطلق الإيمان، يعني ينافي أقل درجات الإيمان.
انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح آل الشيخ (ص 100– 101).
– وقد ذكر ابن القيم بإسهاب الفروق بين إطلاقات هذه الألفاظ. انظر: بدائع الفوائد (1323/4 وما بعدها).

لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيا عاما إلا عمن لا خير فيه، وهذا يشمل الكافر وجميع من يدخل في حكمه [1].

كما أنَّ استعمال أداة النفي " لا " في سياق نفي الفلاح له دلالة لغوية قوية ولمسة بيانية فريدة لمن تأمل معاني اللام النافية للفعل المضارع، وقد وردت كذلك في جميع المواضع التي انتفى فيها الفلاح، سوى في موضع واحد، ورد النفي بأداة " لن " في قوله تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف، الآية:20].

قال عبد القاهر الجرجاني[2]:

" فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون، الآية:117]، يفيدُ من القوة في نفيِ الفَلاحِ عنِ الكافرين، ما لو قيل: " إنَّ الكافرين لا يُفلحون "، لم يُفِدْ ذلك. ولم يكن ذلكَ كذلك إلاّ لأنك تُعْلِمُه إياهُ من بعدِ تقدمةٍ وتنبيهٍ، أنتَ به في حُكم مَنْ بدأ وأعادَ ووطَّد، ثم بيَّنَ ولوَّح ثم صرَّح. ولا يَخْفى مكانُ المزيَّة فيما طريقُه هذا الطريق " [3].

ويتضح وجه الإعجاز فيما سبق؛ لامتداد معنى النفيبـ " لا " في الحال والاستقبال[4]؛ لذلك كان نفي فعل الإفلاحبـ " لا " مطلقا وشاملا كما هو ظاهر من نصوص الآي الكريمة، وهو ما قرره أئمة اللغة والتفسير بأن نفي الفلاح يشمل الحياة الدنيا والآخرة معا.

وقد ورد أنّ السبب في كون حرف " لا " ينفي جنس ما بعدها نفيًا شاملاً مستغرقًا لكل جزء من أجزاء الزمن في الحال والمستقبل، مع طول النفي وامتداده؛ إلى بنية الحرف و تركيب وطريق مخرجه.

قال ابن القيم:

" وقد قدمنا أن الألفاظ مشاكلة للمعاني التي أرواحها، يتفرس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسه، كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح في الأجساد من قوالبها بفطنته ....

---

(1) انظر: أضواء البيان (4/551– 552).

(2) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني نسبة لجرجان – بين طبرستان وخراسان– ، المشهور بأبي بكر النحوي، كان من كبار أئمة العربية والبيان، واضع أصول البلاغة. من كتبه: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الاعجاز"، و"إعجاز القرآن". توفي سنة 471هـ.

" انظر: إنباه الرواة، للقفطي (2/188)، وبغية الوعاة، للسيوطي (2/106) ".

(3) دلائل الإعجاز (ص 133).

(4) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني (ص 296– 297).

وقلت يوما لشيخنا أبي العباس بن تيمية – قدس الله روحه–: قال ابن جني[1]: " مكثت برهة إذا ورد علي لفظ آخذ معناه من نفس حروفه وصفاتها وجرسه وكيفية تركيبه ثم أكشفه فإذا هو كما ظننته أو قريبا منه". فقال لي رحمه الله: "وهذا كثيرا ما يقع لي".

وتأمل حرف «لا» كيف تجدها: لاما بعدها ألف، يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها، فتأمله فإنه معنى بديع »[2].

وقد نبه الإمام الزرقاني[3] على أسرار تناسق حروف القرآن وتناغمها؛ بحيث أنها تثير الأسماع، وتستهوي القلوب، وهذا من أعظم دلائل إعجاز القرآن الكريم التي تحدى بها بلغاء العرب وأفصحهم، من خلال أبسط مكونات الكلم، وهي حروفه المركبة له.

فقال رحمه الله:

« ونريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم. وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات هذا ينقر وذاك يصفر. وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد. ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة، بِرِقَّة الحضارة من غير مُيوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة. ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، بحيث لو داخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتلَّ مذاقه في أفواه قارئيه، واختلَّ نظامه في آذان سامعيه.

---

(1) عثمان بن جني أبو الفتح الموصلي النحوي، اللغوي المشهور صاحب التصانيف البديعة في علم الأدب، واشتهر بنبوغه في علم التصريف، من مؤلفاته: «الخصائص»، و«سر صناعة الإعراب»، و«المذكر والمؤنث». توفي سنة 392هـ.

« انظر: إنباه الرواة، للقفطي (335/2)، وبغية الوعاة، للسيوطي (132/2) ».

(2) بدائع الفوائد (166/1)، بتصرف.

(3) محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة سنة 1367هـ/1948م. من أشهر كتبه «مناهل العرفان في علوم القرآن».

« انظر: الأعلام، للزركلي (210/6)».

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذاك النظام الصوتي، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى. وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي، أن يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم. وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ **[**الحجر، الآية:**9]** »[1].

(1) مناهل العرفان (2/246).



المبحث الأول: الكافرون.

- **الكفر لغة:**

مصدر الفعل كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْرًا، وهو مأخوذ من مادة (ك ف ر) التي تدل على الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بالثوب: قد كفر درعه. ويقال للزّارع كافر، لأنه يغطي الحب بتراب الأرض. ومنه الكُفْر الذي هو ضد الإيمان؛ لأن فيه تغطية للحق. وكذلك كُفْران النِّعمة: جُحودها وسَترُها. وقيل: سمي الكافر " كافراً "؛ لأنه قد غطى قلبه بالكفر[1].

قال الراغب: « الكفر في اللغة ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزراع لستره البذر في الأرض قال تعالى: ﴿ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِ ﴾ [الأنبياء، الآية: 94]. وأعظم الكفر جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الدين أكثر والكفور فيهما جميعا. قال تعالى: ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، وقال أيضا: ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء، الآيتين: 89– 99]. ويقال منهما: كَفَرَ، فهو كَافِرٌ »[2].

- **الكفر اصطلاحا:**

تنوعت عبارات العلماء في تعريفهم للكفر بحسب زاوية النظر وجهة التخصص، فمنهم من اعتمد الأصل اللغوي لكلمة: «كفر»، ومنهم اعتبر ما يضادّ الإيمان ونواقضه في تعريفه.

فقد عرفه الجرجاني بقوله: « الكفران ستر نعمة المنعم بالجحود، أو بعمل هو كالجحود في مخالفة المنعم »[3].

وتوسع المناوي في تعريفه، فقال: « الكفر: تغطية ما حقه الإظهار. والكفران: ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحود الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعا. والكفارة: ما يغطي الإثم، وقيل: الكفارة لغة: من الكفر الستر، وشرعا: ما وجب على الجاني جبرا لما منه وقع وزجرا عن مثله »[4].

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة (5/191)، ولسان العرب [مادة: كفر] (5/3897).

(2) المفردات في غريب القرآن (ص 433– 434).

(3) التعريفات (ص 237).

(4) التوقيف على مهمات التعاريف (ص 606).

وجاء تعريفه في باب العقائد وأصول الدين بأنه:

« ضِدُّ الإيمان وما يناقضه من اعتقاد، أو قول، أو عمل. فيشمل عدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى أو بما جاء به رسوله ﷺ من التشريع، أو إنكار شيء من ذلك، أو الإيمان ببعضه دون بعض؛ سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب؛ بل مجرد شك وريب، أو توقف، أو إعراض، أو حسد، أو كبر، أو بغض الدين، أو بغض الرسول ﷺ أو سبه، أو عداوته، أو اتباع لبعض الأهواء الصادة عن اتباع حكم الله سبحانه وتعالى »[1].

وقال ابن حزم[2] بعد ذكره لتعريف الكفر لغة: « ثم نقل الله – تعالى– اسم الكفر في الشريعة إلى جحد الربوبية وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله ﷺ مما صحّ عند جاحده بنقل الكافة، أو عمل شيئاً قام البرهان بأن العمل به كفر »[3].

من معاني كلمة « الكفر » في القرآن الكريم:

ذكر أهل التفسير أنَّ الكفر في القرآن على خمسة أوجه[4]:

– **أحدها: الكفر بالتوحيد؛ ومنه قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ **[البقرة، الآية: 6]، وقوله عز وجل:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ **[الحج، الآية: 25]. والمراد به إنكار توحيد الله، وهو الأعم في القرآن.**

– **الثاني: الجحود؛ كما في قوله تعالى:** ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ **[البقرة، الآية: 89]،**

---

(1) انظر: الإيمان حقيقته وخوارمه ونواقضه (ص 242– 243).

(2) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، ولد بقرطبة سنة 384هـ، نشأ في تنعم ورفاهية، وولي الوزارة وتدبير المملكة، ثم انصرف عنها إلى التأليف والعلم، فبرع في الفقه والأصول والحديث على طريقة أهل الظاهر، وانتقد العلماء بلسان حاد مما دعاهم إلى تضليله والتحذير منه؛ فمزقت بعض كتبه لأجل ذلك، وطارده الملوك حتى توفي سنة 456هـ بالأندلس، من مؤلفاته: « المحلى بالآثار » في الفقه، و« الإحكام في أصول الأحكام » في أصول الفقه، و« طوق الحمامة » في الأدب. وغيرها من المصنفات.

« انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (184/18)، والأعلام، للزركلي (254/4) ».

(3) الفصل في الملل والأهواء والنحل (253/3).

(4) انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (ص 515– 516)، والوجوه والنواظر، للدامغاني (ص 402– 403).

– وقد أوصلها الإمام النيسابوري إلى تسعة أوجه في كتابه: وجوه القرآن الكريم (ص 274– 275).

وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران، الآية: 97]. يعني: من كفر بالحج وجحد فريضته من أهل الكتاب والأديان.

– الثالث: كفر النعمة؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة، الآية: 152]. يعني: لا تكفروا النعمة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل، الآية: 40].

– الرابع: البراءة؛ وهذا في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم، الآية: 22]، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت، الآية: 25]، أي: يتبرأ بعضكم من بعض.

– الخامس: التغطية؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد، الآية: 20]، يريد الزراع الذين يغطون الحب.

أقسام الكفر وأحكامه:

من المقرر عند علماء العقائد أنَّ الكفر ذو أصول وشعب متفاوتة: منها ما يوجب الخروج من ملة الإسلام، ومنها ما هو دون ذلك.

وبناءا على ما تقدم، فإنَّ الكفر في الشرع نوعان لكل واحد منهما حكمه الخاص، ويندرج ضمن كل واحد منهما أقسام متعددة، وفيما يلي بيانها باختصار:

أولا: الكفر الأكبر.

وهو الكفر الاعتقادي المناقض للإيمان، والذي يخرج صاحبه من الإسلام، ويوجب الخلود في النار، ولا تناله شفاعة الشافعين، ويكون بالاعتقاد، وبالقول، وبالفعل، وبالشك والريب، وبالترك، وبالإعراض، وبالاستكبار. ويندرج تحت هذا الكفر خمسة أقسام، من لقي الله تعالى بواحد منها؛ لا يغفر له، ولا تنفعه الشفاعة يوم القيامة، وهي[1]:

1 – كفر التكذيب: وهو اعتقاد كذب الرسل عليهم السلام، فمن كذبهم فيما جاؤوا به ظاهرا أو باطنا فقد كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت، الآية: 68].

(1) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية (ص 90).

2 – كفر الإباء والاستكبار: وذلك بأن يكون عالما بصدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، لكن لا ينقاد لحكمه ولا يذعن لأمره، استكبارا وعنادا، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ **[البقرة، الآية: 34].**

3 – كفر الشك: وهو التردد، وعدم الجزم بصدق الرسل، ويقال له كفر الظن، وهو ضد الجزم واليقين. والدليل قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ **[الكهف، الآيات: من 35 إلى 38].**

4 – كفر الإعراض: والمراد الإعراض الكلي عن الدين، بأن يعرض بسمعه وقلبه وعلمه عما جاء به الرسول ﷺ، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ **[الأحقاف، الآية: 3].**

5 – كفر النفاق: والمراد النفاق الاعتقادي بأن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ **[المنافقون، الآية: 3] (1).**

ثانيا: الكفر الأصغر.

وهو الكفر العملي الذي لا يناقض أصل الإيمان؛ بل ينقصه ويضعفه، ولا يسلب صاحبه صفة الإسلام وحصانته، وهو المشهور عند العلماء بقولهم: "كفر دون كفر" ويكون صاحبه على خطر عظيم من غضب الله عز وجل إذا لم يتب منه؛ وقد أطلقه الشارع على بعض المعاصي والذنوب على سبيل الزجر والتهديد؛ لأنها من خصال الكفر، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، فكل معصية تناولها اسم الكفر مع بقاء أصل الإيمان على فاعلها تندرج ضمن الكفر الأصغر، وما كان من هذا النوع؛ فهو من كبائر الذنوب، وهو مقتض لاستحقاق الوعيد والعذاب دون الخلود في النار، وصاحب هذا الكفر ممن تناهم شفاعة الشافعين، ولهذا النوع من الكفر أقسام كثيرة، منها (2):

---

(1) انظر: مدارج السالكين (1/284– 285).

(2) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية (ص 148– 149)، وأعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (ص 92).

1- كفر النعمة: وذلك بنسبتها إلى غير الله تعالى بلسانه دون اعتقاده كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ **[النحل، الآية: 112].**

2- كفران العشير والإحسان: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: « أُرِيتُ النَّارَ، فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ » قيل: أيكفرن بالله ؟ قال: « يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحَسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ »[1].

3- الحلف بغير الله تعالى: لقوله ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ – أَوْ أَشْرَكَ – »[2].
وقد بيّن شراح الحديث أنَّ الكفر المقصود هنا هو الكفر الأصغر الذي لا يخرج صاحبه من الإسلام، ما لم يعظم المخلوق به في قلب الحالف كعظمة الله تعالى، والتعبير بقوله فقد كفر أو أشرك للمبالغة في الزجر والتغليظ في ذلك[3].

4- قتال المسلم: لقوله ﷺ: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »[4]. وقوله ﷺ: « لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »[5]. فهذا النوع من الكفر غير مخرج من الملة باتفاق الأئمة؛ لأنهم لم يفقدوا صفات الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾ **[الحجرات، الآية: 9].**

5- الطعن في النسب، والنياحة على الميت: قال النبي ﷺ: « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ »[6].

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان/ باب كفران العشير، وكفر دون كفر (26/1)، (ح: 29).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب الأيمان والنذور/ باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (110/4)، (ح: 1535)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (175/2).

(3) انظر: تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي (135/5).

(4) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان/ باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر (32/1)، (ح: 48).

(5) أخرجه البخاري: كتاب الفتن/ باب قول النبي ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (316/4)، (ح: 7077).

(6) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (82/1)، (ح: 121).

انتفاء الفلاح عن الكافرين:

لَمّا كان الكفر أقبح ذنب يقترفه العبد في حق مولاه الذي خلقه وسوّاه؛ فقد ترتب عنه نفي الفلاح الذي يدل على هلاك صاحبه وخلوده في النار.

وجاءت الآيات القرآنية صريحة بذلك في مواضع متنوعة، وبسياقات مختلفة؛ لتبين خطورة هذا الفعل الشنيع، والجرم الخطير.

– ففي سورة المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الآية: 117].

وردت هذه الآية في سياق التحذير والتهديد من دعاء الآلهة الباطلة من دون الله العلي الحق، بلا برهان ولا حجة على هذه العبادة، ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا: ﴿ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِ ﴾ لا مفهوم مخالفة له، فلا يصح لأحد أن يقول: أما من عبد معه إلهاً آخر له برهان به، فلا مانع من ذلك؛ لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه، بل البراهين القطعية المتواترة، دالة على أنه هو المعبود وحده جل وعلا، ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره البتة.

فليس لهذه الجملة الكريمة مفهوم مخالفة، بل هي صفة مطابقة للواقع، لأن كل عابد لغير الله، لا دليل له على هذه العبادة إطلاقاً، إذ العبادة لا تكون إلا لله تعالى وحده، وذكر هذه الجملة لإقرار الواقع وتأكيده، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق[1].

وقوله تعالى:﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، فيه تهديد شديد لمن يدعو مع الله إلها آخر، ومن يفعل ذلك فسيلقى الحساب الشديد، والجزاء الرادع، من عند ربه عز وجل؛ لأنَّ عدالته قد اقتضت أن الكافرين به لا ينالون الفلاح، وإنما ينالون الخزي والخسران [2].

---

(1) قال العلامة الشنقيطي: « قد تقرر في فن الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة، كون تخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع، فيرد النص ذاكراً الوصف الموافق للواقع ليطبق عليه الحكم، فتخصيصه بالذكر إذاً ليس لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق، بل لتخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع ».

انظر: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (5/910– 911).

(2) التفسير الوسيط، للطنطاوي (10/69).

– **وقال تعالى:** ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ **[القصص، الآية: 82]**.

وردت هذه الآية الكريمة من سورة القصص بعدما جاء في مطالعها ذكر قصة موسى وفرعون، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم، وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم، والكفران بالله، والبعد عن هداه. والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق. وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد[1].

وفي هذا هذا تحذير لنا أيما تحذير، وعبرة لمن اعتبر؛ لترك التعالي والتغالي في الزينة، لئلا يخسف اللّه بنا وبمالنا الأرض. فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالي ليس وبالهما في الآخرة فحسب، بل يحصل شؤمهما في الدنيا قبل الآخرة، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم. وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من المال فأنفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة، فضاعت دورهم وأموالهم، وأصبحت ملكا لغيرهم، وهذا هو الخسف العظيم، وما خسف قارون بشيء إذا قيس بهذا، فإنَّ الخسف الآن خسف الأمم، لا خسف الأفراد، فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيدا له وضحية مطامعه، وخسف أمة أدهى من خسف فرد، فليخسف الفرد، ولتبق الأمة، وهكذا دخلت البلاد تباعا في ملك الغاصب، واحدة إثر أخرى، ولم يبق منها إلا ما رحم اللّه، وما ذاك إلا بجهلها لدينها، وعدم اتباعها أحكامه، وغفلتها عن مقاصده، فكيف يكون للأمة الغافلة عن أوامر دينها، الجاهلة بمقاصد شريعتها في إنفاق الأموال أن تجد مناصا من خراب الديار، وإضاعة المجد الطارف والتالد، ولا بد أن تقع فريسة للغاصبين، الذين يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة، وقد كان ذلك جزاء وفاقا، لجهلها وسوء تصرفها وظلمها لأنفسها، ولا يظلم ربك أحدا، وهكذا حال من تصرّف في ماله تصرف السفهاء، وركب رأسه، وصار يبعثره يمنة ويسرة، فإنه سيندم ولات ساعة مندم [2].

---

(1) تفسير الظلال (**2710/5**).

(2) انظر: تفسير المراغي (**98/20– 99**)، بتصرف.

قال ابن كثير في تفسيره:

« ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه؛ فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة. وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الإِيمَانَ إِلاَّ مَنْ أَحَبَّ " [1]. ولا يفلح الكافر عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة » [2].

كما ورد انتفاء الفلاح في موضعين آخرين من القرآن الكريم في سياق الزجر والتحذير من افتراء الكذب على الله تعالى.

وقد جاء في كتاب الكبائر عن طائفة من العلماء: « أن الكذب على الله وعلى رسوله كفر ينقل عن الملة، ولا ريب أن الكذب على الله وعلى رسوله في تحليل حرام و تحريم حلال كفر محض » [3].

- **قال تعالى:** ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ **[يونس، الآيتين: 69– 70].**

وقال جلّ جلاله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ **[النحل، الآية: 116].**

قال الإمام الرازي: « واعلم أن قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ **يدخل فيه هذه الصورة، ولكنه لا يختص بها فقط، بل كل من قال في ذات الله تعالى وفي صفاته قولاً بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلاً في هذا الوعيد، ومعنى أنه لا يفلح هو: أنه لا ينجح في سعيه، ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر، ومن الناس من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة، ظن أنه قد فاز بالمقصد الأقصى، والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال: إن ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا، ثم لا بد من الموت، وعند الموت لا بد من الرجوع إلى الله، وعند هذا الرجوع لا بد من أن يذيقه العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم، وهذا كلام في غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة، والله أعلم» [4].**

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك/ كتاب الإيمان (80/1)، (ح: 94). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (482/6)، (ح: 2714).

(2) تفسير ابن كثير (487/10)، باختصار.

(3) الكبائر، للذهبي (ص 61).

(4) مفاتيح الغيب (140/17– 141)، باختصار.

ومن المواضع التي ورد فيها انتفاء الفلاح عن الكافرين ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف، الآية: 20].

فحذرت هذه الآية الكريمة المؤمنين من الارتداد عن دينهم، فيصيروا كفارا بعبادة الأوثان؛ ما يكون سببا في خسرانهم في الدنيا، وعدم فلاحهم في الآخرة؛ فإنَّ الموت على الشرك والكفر مانع من الفلاح يوم القيامة أبداً[1].

قال الطاهر بن عاشور: « وأكد التحذير من الإرجاع إلى ملتهم بأنها يترتب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل، لما دلت عليه حرف (إذاً) من الجزائية. و(أبدًا) ظرف للمستقبل كله. وهو تأكيد لما دل عليه النفي بـ (لن) من التأبيد أو ما يقاربه »[2].

---

(1) انظر: تفسير الطبري (215/15)، وأيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري (247/3– 248).

(2) التحرير والتنوير (287/15).



المبحث الثاني: الظالمون.

– الظلم لغة:

اسم من الفعل ظلم، يقال: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظَلْماً وظُلماً، فالظَّلْم: مصدر حقيقي، والظُّلْمُ: الاسم يقوم مقام المصدر. وأصل الظُّلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيل: أصله الجور ومجاوزة الحد.

والظَّلَمةُ: المانعون أهل الحقوق حقوقهم.

والظُّلْمَة والظُّلُمَة بضم اللام: ذهاب النور، وهي خلاف النور. وجمعُ الظُّلْمةِ: ظُلَمٌ وظُلُماتٌ وظُلَماتٌ وظُلْمات. يقال: أَظْلَم القومُ دخلوا في الظَّلام، وليلة ظَلْماءُ ويوم مُظْلِمٌ: شديد الشَّرِّ.

وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس، الآية: 37]. وقوله عزَّ وجل: ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة، الآية: 257]، أَي: يخرجهم من ظُلُمات الضَّلالة إلى نور الهُدَى؛ لأَن أَمر الضَّلالة مُظْلِمٌ غير بَيِّنٍ [1].

وأصل مادة (ظ ل م) يرجع إلى معنيين اثنين، يقول ابن فارس: ((الظاء واللام والميم أصلانِ صحيحانِ، أحدهما: خلافُ الضِّياء والنور، والآخر: وَضْع الشَّيءِ غيرَ موضعه تعدِّياً.

فالأوَّل: الظُّلْمة، والجمع ظُلُمَات، والظَّلاَمُ: اسم الظُّلْمَةِ؛ وقد أظْلَمَ المكان إظلاماً.

والأصل الآخر: ظلمه يظلمه ظلما. والأصل فيه: وضع الشيء في غير موضعه، ويقال: ظَلَّمْتُ فلانا، نسبته إلى الظلم، وظَلَمْتُ فلانا، فاظَّلَمَ، وانْظَلَمَ، إذا احتمل الظُّلْمَ)) [2].

– الظلم اصطلاحا:

قال الجرجاني: ((الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور. وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد)) [3].

وقيل: ((وضع الشيء بغير محله بنقص أو زيادة أو عدول عن زمنه)) [4].

---

(1) انظر: تهذيب اللغة (14/382– 383)، ولسان العرب [مادة: ظلم] (4/2756).

(2) معجم مقاييس اللغة (3/468).

(3) التعريفات (ص 186).

(4) التوقيف على مهمات التعاريف (ص 231).

وقيل: « الظُّلْمُ هو الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور، والسَّرف والتقصير وأخذ الأموال من غير وجهها، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الأشياء في غير مواضيعها ولا أوقاتها، ولا على القدر الذي يَجِبُ ولا على الوجه الذي يُحَبُّ »[1].

وفي ضوء هذه التعريفات يتبين لنا أن كل ذنب عُصي الله به، سواء كان ذلك الذنب شركاً بالله، أو دون ذلك من سائر المعاصي ومظالم العباد، داخل في مسمى الظلم؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه الذي يرضاه الله عز وجل. مع التفريق بين مراتب الظلم، فبعضها يصل إلى الكفر والبعض دون ذلك كما سيأتي بيانه.

تحريم الظلم في الكتاب والسنة:

لقد تواترت النصوص القرآنية والنبوية في تحريم الظلم وبيان سوء عاقبته، فهو منبع الرذائل، ومصدر الشرور، في غياهبه تزل الأقدام، وتضل به الأفهام، ويظهر الفساد، وتمحق البركة.

وهو انحراف عن العدالة، ومتى فشا وشاع في أمةٍ أهلكها، وإذا حل في قريةٍ أو مدينة دمّرها.

والظلم والفساد قرينان، بهما تخرب الديار، وتزول الأمصار، وتقل البركات، ويحل الغش محلّها.

لأجل ذلك عُدَّ الظلم من الكبائر، فهو من أشد الأمور حرمةً، وأسرعها عقوبة وأعجلها مقتًا عند الله تعالى وعند المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء، الآيتين: 168- 169].

وقال جل جلاله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ مُهْطِعِينَ ﴿٤٢﴾ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم، الآيتين: 42- 43]

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر، الآية: 52].

---

(1) موسوعة نضرة النعيم (4872/10).

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَالَمُوا... »[1]. وقال ﷺ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.. »[2].

قال ابن الجوزي: « اعلم أن الظلم يشتمل على معصيتين: إحداهما: أخذ مال الغير بغير حق. والثانية: مبارزة الأمر بالعدل بالمخالفة، وهذه المعصية فيه أدهى؛ لأنه لا يكاد يقع الظلم إلا على الضعيف الذي لا يقدر على الانتصار إلا بالله عز وجل. وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، ولو استنار بنور الهدى لنظر في العواقب، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي اكتسبوه في الدنيا من التقوى ظهرت ظلمات الظالم فاكتنفته »[3].

معاني الظلم في القرآن الكريم:

ذكر أهل التفسير أن الظلم في القرآن على عشرة أوجه[4]:

– أحدها: الضرر، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة، الآية: 135].

وقوله تعالى: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام، الآية: 52].

– الثاني: النقصان، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل، الآية: 33].

– الثالث: المعصية من غير شرك، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق، الآية: 1].

– الرابع: وضع الشيء في غير موضعه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [يونس، الآية: 44].

– الخامس: الشرك، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام، الآية: 82].

– السادس: السرقة، كقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يوسف، الآية: 75].

– السابع: الجحود، كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء، الآية: 59].

---

(1) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم (1994/4)، (ح: 2577).

(2) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم (1996/4)، (ح: 2578).

(3) كشف المشكل من حديث الصحيحين (559/2– 560).

(4) وجوه القرآن الكريم، للنيسابوري (ص 221).

– **الثامن: التكذيب، كقوله تعالى:** ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ **[النساء، الآية: 153].**

– **التاسع: الغلو والكفر، كقوله تعالى:** ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ **[النمل، الآية: 14].**

– **العاشر: الظلم على الناس، كقوله تعالى:** ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ **[الشورى، الآية: 42].**

أقسام الظلم:

ذهب الكثير من أهل العلم إلى تقسيم الظلم إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، فأي ظلمٍ أعظم من عبادة غير الله ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وتعلق قلبه بغير الله، محبةً وخوفاً ورجاءً؛ ولذلك ورد في التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ **[لقمان، الآية: 13]، وإياه قصد بقوله:** ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **[هود، الآية: 18].**

فالشرك أعظم الظلم وأكبره وأشدُّه، فهو محبط لجميع الأعمال، ولا يقبل الله من مشرك عملاً مطلقًا، بل كلّ أعماله مهما عظمت فإنّها لا تنفعه يوم الحساب، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ **[الفرقان، الآية: 23].**

الثاني: ظلم بينه وبين الناس، ويشمل جميع صور ظلم الناس في دمائهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم. وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ **[الشورى، الآيات: 40-41-42].**

ويقول النبي ﷺ مرشدًا المسلم إلى التخلص من ظلمِ العباد في الدنيا: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » (1).

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب المظالم/ باب من كانت له مظلمة عند الرجل (192/2)، (ح: 2449).

ومن حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ ». قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع». فقال: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »[1].

الثالث: ظلم بينه وبين نفسه، ويكون بتضييع الفرائض، وارتكاب المناهي فكل ذنب وخطيئة يقترفها العبد؛ فإنَّ ذلك ظلمٌ لنفسه،وبغي عليها. وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر، الآية: 32]، وقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [القصص، الآية: 16]، فما من مذنب وعاصٍ فإنما يجني على نفسه، ويعرضها لعذاب الله الأليم، وعقابه الشديد؛ لأن الواجب على العبد طاعةُ مولاه، وتزكية نفسه بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس، الآيتين: 9– 10]. وفي الحديث: « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا »[2]، وكان مما قاله ﷺ في حجة الوداع: « أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ »[3].

وقد وردت السُنَّة الشريفة بإشارات واضحة في تقسيم الظلم إلى ثلاثة أقسام، ومن ذلك حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّهِ ﷺ : « الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللَّهِ عز وجل ثَلاَثَةٌ: دِيوَانٌ لاَ يَعْبَأُ الله بِهِ شَيْئاً، وَدِيوَانٌ لاَ يَتْرُكُ الله منه شَيْئاً، وَدِيوَانٌ لاَ يَغْفِرُهُ الله، فَأَمَّا الدِّيوَانُ الذي لاَ يَغْفِرُهُ الله فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [المائدة، الآية: 72] وَأَمَّا الدِّيوَانُ الذي لاَ يَعْبَأُ الله بِهِ شَيْئاً: فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ من صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أو صَلاَةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يَغْفِرُ ذلك وَيَتَجَاوَزُ إن شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الذي لاَ يَتْرُكُ الله منه شَيْئاً: فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، الْقِصَاصُ لاَ مَحَالَةَ »[4].

---

(1) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم (1997/4)، (ح: 2581).

(2) صحيح مسلم: كتاب الطهارة/ باب فضل الوضوء (203/1)، (ح: 223).

(3) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن/ باب ما جاء في دماؤكم وأموالكم عليكم حرام (461/4)، (ح: 2159)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (454/2).

(4) مسند أحمد (155/43)، (ح: 26031). بسند ضعيف يحتمل التحسين.

وقد حسنه الألباني بشواهده. انظر: السلسلة الصحيحة (560/4)، (ح: 1927).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « فالظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه. وظلم الناس بعضهم بعضا لابد فيه من إعطاء المظلوم حقه، لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم، كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة. فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع،

وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقا، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه، وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصه لله، فبه صار من أهل الشفاعة »[1].

وقال ابن القيم: « والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئا، وهو الشرك به؛ فإنَّ الله لا يغفر أن يشرك به.

وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضا؛ فإنَّ الله يستوفيه كله.

وديوان لا يعبأ الله به شيئا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل؛ فإنَّ هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة، ونحو ذلك. بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد. وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها، واستحلالهم منها.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل، حرَّم الجنة على أهله؛ فلا تدخل الجنةَ نفسٌ مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد، فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به »[2].

وقال رحمه الله تعالى : « وأما حديث الدواوين فإنما فيه أن حق الرب تعالى لا يؤوده أن يهبه ويسقطه. ولا يحتفل به ويعتني به كحقوق عباده. وليس معناه: أنه لا يؤاخذ به البتة، أو أنه كله صغائر. وإنما معناه: أنه يقع فيه من المسامحة والمساهلة والإسقاط والهبة، ما لا يقع مثله في حقوق الآدميين »[3].

---

(1) مجموع الفتاوى (54/7).

(2) الوابل الصيب (ص 40– 41).

(3) مدارج السالكين (276/1).

انتفاء الفلاح عن الظالمين:

ورد انتفاء الفلاح عن الظالمين في أربعة مواضع من القرآن الكريم، موضعين في سورة الأنعام، والباقيين في سورة يوسف والقصص.

– **قال الله تعالى:** ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ **[الأنعام، الآية: 21].**

الظلم هنا كناية عن الشرك في صورة التفظيع له والتقبيح، وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك؛ وذلك لبيان خطورة الشرك والتنفير منه، فإنَّ الشرك ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس. وهو اعتداء على حق الله سبحانه في أن يوحد ويعبد بلا شريك، واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار، واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء (1).

فلا أحد أشدُّ اعتداءً، وأخطأ فعلا وقولا ممن افترى على الله كذبًا، كمن اختلق على الله تعالى القول الباطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه، كما قاله المشركون من عبدة الأوثان، أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً، كما قالته النصارى.
ويشمل ذلك أيضا من كذَّب بآيات الله وأعلامه وبراهينه التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم.
ونفي فلاحهم يعمّ كلّ فلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الفلاح المعتدّ به في نظر الدين في الدنيا هو الإيمان والعمل، وهو سبب الفلاح والنجاة في الآخرة (2).

– **وقال سبحانه:** ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ **[الأنعام، الآية: 135].**

في هذه الآية الكريمة أمر للنبي ﷺ بمواجهة الكفار بتشديد التهديد والمبالغة في الوعيد؛ في سبيل زجرهم عمّا هم عليه من الكفر، فكأنه قال: أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر إن رضيتم لأنفسكم بالعذاب،

---

(1) انظر: ظلال القرآن (2/1063).
(2) انظر: تفسير الطبري (9/188)، والتحرير والتنوير (7/172).

فهو كقوله تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت، الآية: 40]، ففيه تفويض أمر العمل إليهم على سبيل الزجر والتهديد، وليس فيه إطلاق لهم في عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصي؛ فيكون معناه: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة. فإني ثابت على الإسلام والمصابرة، فسوف تعلمون أيّنا تكون له العاقبة المحمودة [1].

وبعدها تأتي القاعدة التي لا تتخلف: إنه لا يفلح الظالمون، الذين يتخذون من دون الله أولياء، والذين يتبعون أهواء النفس والشيطان؛ فليس لهم من دون الله ولي ولا نصير، وليس أمامهم إلا الضلال البعيد والخسران المبين؛ فلا يفوزون بفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما يفوز به أهل الحق والعدل الذين يؤدون حقوق اللّه وحقوق الناس، ولا يسعون في الأرض بظلم أو فساد، ولا يكون هذا إلا في حق الرسل ومن تبعهم من المؤمنين؛ فهم أولى الناس بالنصر والتأييد في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة [2].

– وقال الله جل جلاله في سياق قصة النبي الكريم يوسف عليه السلام: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف، الآية: 23].

وردت هذه الآية في سياق قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، فكانت هذه المحنة العظيمة أشد على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعا أو كارها؛ وذلك أن يوسف عليه السلام بقي مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء؛ ما كان سببا في أن راودته امرأة العزيز عن نفسه وهو غلامها، وتحت تدبيرها، ويجمعهما المسكن واحد، تيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر، وزادت المصيبة؛ بأن هيأت كل ظروف الفاحشة بتغليق الأبواب وصار المحل خاليا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، وقد دعته إلى نفسها وقالت: هيت لك، أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته، إن لم يفعل

---

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (2/58– 59)، وروح المعاني (8/30– 31).

(2) انظر: ظلال القرآن (3/1211)، وتفسير المنار، لرشيد رضا (8/120).

ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم. فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد همَّ فيها همًّا تركه لله، وقدَّم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه، وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله؛ ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، والتجأ إلى الله واستعاذ به من الإقدام على هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيده الذي أكرمه.

فلا يليق به أن يقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنَّ الله تعالى عصمه من هذا الفعل، بتقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، من امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه [1].

– وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [القصص، الآية: 37].

لقد أتت هذه الآية الكريمة في سياق دعوة النبي موسى عليه السلام للطاغية فرعون الذي تجبر على خلق الله وادّعى لنفسه الربوبية، وملإه الذين أجابوه وأطاعوا أمره، فأنكروا صدق رسالة موسى عليه السلام رغم المعجزات والبراهين التي أيده الله بها، وزعموا أنه سحر افتراه من عنده وانتحله كذبا وبهتانا، وما سمعوا بهذا الذي يدعوهم إليه من توحيد العبادة لله رب العالمين في أسلافهم وآبائهم الذين مضوا من قبلهم. وهذا تحكيم منهم لعادة التقليد التي أضلّت كثيرا من الناس، وأردتهم إلى المهالك.

فأجابهم موسى عليه السلام بأنَّ ربي الذي خلقني وخلقكم، أعلم منّي ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده، وسيحكم بيني وبينكم بحكمه العادل. فلم يرد عليهم بالقسوة التي سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللّبِق، وبهذا الإيحاء، وفي هذا من أدب الخطاب في الحجاج والمناظرة ما لا يخفى، فهو لم يؤكد أن خصمه في ضلال كما لم ينسبه إلى نفسه، بل ردده بينهما وهو يعلم أنه لأيهما، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبي ﷺ للمشركين كما حكاه القرآن،

---

(1) انظر: تفسير السعدي (ص 396).

في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ **[سبأ، الآية: 24].**

وختمت الآية ببيان سنة من سننه تعالى التي اقتضت أنَّ الظالمين لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور؛ بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة والخاتمة الحسنة هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، المتبعون لهدي أنبيائهم، وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة لما نالوه من الفوز والفلاح، وكانت نهاية فرعون وملَإِه وضيعة لما أصابهم من سوء العاقبة، والخسران والهلاك [1].

وقد شمل نفي الفلاح في هذه الآيات جميع صور الظلم ابتداء بالظلم الذي يكون في حق الخالق من الإشراك به وافتراء الكذب عليه سبحانه، ثم ظلم الناس من الاعتداء على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم بالباطل، انتهاءا بظلم النفس بالإسراف في المعاصي وتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه.

---

(1) انظر: تفسير المراغي (20/58)، ومحاسن التأويل، للقاسمي (ص 4706– 4707).



المبحث الثالث: المجرمون.

- **الإجرام لغة:**

مصدر أَجْرَمَ يُجْرِمُ، وهو مأخوذ من مادة (ج ر م) التي تدل على القطع، ومن ذلك: الجِرَامُ لصِرامِ النَّخْل، والجُرَامَةُ: ما سقط من التَّمْر إذا جُرِم. والجُرْمُ والجريمة: بمعنى الذَّنْبِ من ذلك؛ لأنه كَسْبٌ، والكَسْبُ اقْتِطَاعٌ، ويقال للجسد جِرْمٌ لأنَّ له قَدْرًا وتَقْطِيعًا [1].

وجاء في مفردات القرآن للراغب: ((أنَّ أصل الجَرْمِ: قطع الثمرة عن الشجر، وقولهم: صار ذا جَرْمٍ نحو: أَثْمَرَ وأَتْمَرَ، أي: صار ذا ثَمرٍ وتَمْرٍ، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال ذلك للمحمود. فلا ينصرف الذهن إذا أُطْلِق لفظ الجُرْمِ إلا على كبائر الذنوب والمعاصي. واجترم بمعنى اكتسب، والجريمة: ما يكتسبه الإنسان من الشر. والجِرْمُ في الأصل: اسم للشيء المجروم، أي: المقطوع، ثُمَّ أُطْلِقَ على كل جسم. كما يطلق الجِرْمُ ويراد به: الجسد، أو اللون، أو الصوت)) [2].

وقال ابن منظور: ((الجُرْمُ: التَّعدِّي والذَّنب، والجمع أَجْرامٌ وجُرُومٌ. وهو: الجَرِيمَةُ وقد جَرَمَ يَجْرِمُ جَرْماً، واجْتَرَمَ وأَجْرَم فهو: مُجْرِم وجَرِيمٌ. وفي الحديث:"إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ" [3]. والجُرْم: الذنب، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف، الآية: 40]. والجُرْم: مصدر الجارِمِ الذي يَجْرِمُ نَفْسَه وقومه شَرّاً، وفلان له جَرِيمةٌ إِليَّ، أَي: جُرْم. والجارِمُ: الجاني، والمجْرِم: المذنب)) [4].

قال العلامة الشنقيطي[5]: ((ولم يأت الإجرام في القرآن إلا من " أَجرم" الرباعي على وزن " أَفعل". ويجوز إتيانه في اللغة بصيغة الثلاثي فتقول: جَرَم يجْرِمُ، كضرب يضرِب؛ والفاعل منه جارم، والمفعول مجْروم، كما هو ظاهر)) [6].

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة (1/445– 446)، وتفسير اللباب لابن عادل الدمشقي (7/181– 182).

(2) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص 91)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (1/321).

(3) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة/ باب ما يكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه (4/361)، (ح: 7289).

(4) لسان العرب (1/604– 605)، والنهاية في غريب الحديث (1/262– 263).

(5) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، الشنقيطي، ولد سنة 1325هـ الموافق1907م في شنقيط بموريتانيا، ويرجع نسبه إلى قبيلة حِمْيَر باليمن، حج سنة 1367هـ الموافق1955م واستقر مدرسا في المسجد النبوي بالمدينة المنورة ثم الرياض، عُين في هيئة كبار العلماء، من مؤلفاته، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ومذكرة في أصول الفقه، و دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب توفي بمكة سنة 1393هـ الموافق1973م.

((انظر: مقدمة أضواء البيان (ص 19)، والأعلام (6/45))).

(6) أضواء البيان (4/490).

- **الإجرام اصطلاحا:**

لم تذكر كتب المصطلحات في التراث الإسلامي الإجرام ضمن ما ذكرته من مصطلحات، ولكنّها عرفت الجرائم بأنَّها: محظورات شرعية زجر الله عنها بِحَدٍّ أو تعزير[1].

والمحظورات هي: إما إتيان فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به، وقد وصفت المحظورات بأنها شرعية إشارة إلى أنه يجب في الجريمة أن تحظرها الشريعة.

فالجريمة إذن هي إتيان فعل محرم معاقب على فعله، أو ترك فعل محرم الترك معاقب على تركه، أو هي فعل أو ترك نصت الشريعة على تحريمه والعقاب عليه.

وجاء تعريف الجرم في بعض المراجع بأنه: الذنب العظيم، بفعل محرم يقع المرء عليه عن قصد ويكون ذلك بين العبد وربه والعبد والعبد [2].

- وعلى ضوء ذلك يمكن تعريف الإجرام بأنه:

ارتكاب مقصود لذنب عظيم سواء تعلق بحق المولى أو العباد يستحق صاحبه به النكال والعذاب[3].

أمّا في كتب القانون والمصطلحات الحديثة، فقد أخذ مصطلح الإجرام والجريمة بعدا اجتماعيا وقانونيا واسعا، فقيل: الجريمة كل فعل يعود بالضرر على المجتمع، ويعاقب عليه القانون.

ويتبين من تعريف الجريمة أن الفعل أو الترك لا يعتبر جريمة إلا إذا تقررت عليه عقوبة، ويعبر الفقهاء عن العقوبات بالأجزية، ومفردها جزاء، فإن لم تكن على الفعل أو ترك عقوبة فليس بجريمة.

وتتفق الشريعة تمام الاتفاق مع القوانين الوضعية الحديثة في تعريف الجريمة، فهذه القوانين تعرف الجريمة بأنها: إما عمل يحرمه القانون، وإما امتناع عن عمل يقضي به القانون، ولا يعتبر الفعل أو الترك جريمة في نظر القوانين الوضعية إلا إذا كان معاقباً عليه طبقاً للتشريع الجنائي[4].

---

(1) الأحكام السلطانية (ص 285).

(2) انظر: الكليات، للكفوي (ص 40).

(3) انظر: أضواء البيان (4/490).

(4) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي (1/66– 67)، وموسوعة نضرة النعيم (9/3780).

معاني الإجرام في القرآن الكريم:

وردت معاني مادة الجرم في القرآن على ستَّة أَوجه [1]:

الأَوّل: الجُرْم بمعنى: الشرك، والمجرم: المشرك، قال تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ **[المعارج، الآية: 11]، وقيل: المراد أَبو جهل وأَصحابه.**

الثاني: الجُرم بمعنى: اعتقاد أَهل القَدَر، والمجرم: القَدَري، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ **[القمر، الآية: 47]، قال أَهل التفسير: هم القَدَريّة.**

الثالث: بمعنى: الفاحشة، أي: اللِّواط، والمجرم: اللُّوطي، قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ **[الأعراف، الآية: 84]، أي: المشتغلين بها.**

الرّابع: بمعنى: حمل العداوة، قال تعالى إخبار عن النبي شعيب عليه السلام: ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾ **[هود، الآية: 89]، أي: لا يحملنَّكم خلافي. ومثله في قوله تعالى:** ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ **[المائدة، الآية: 8].**

الخامس: لا جَرَمَ بمعنى: حَقاً، وقد جرم الشيء، أي: حق، ودخول ((لا)) على ((جرم))؛ ليدل على أنه جواب الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ **[هود، الآية: 22]، وقوله تعالى:** ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ **[النحل، الآية: 62]، أي: ليس بجُرْم لنا أَنَّ لهم النَّار، تنبيهاً أَنَّهم اكتسبوها بما ارتكبوه.**

السّادس: بمعنى: الإثم والذنب والزَّلَّة، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ **[هود، الآية: 35]، أي: فعليَّ إِثمي، وأنا بريء ممّا تأثمون.**

---

(1) انظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي (355/2) ، والوجوه والنظائر، للدامغاني (ص 164).

أقسام الجريمة في الفقه الإسلامي:

للجريمة أقسام كثيرة تختلف بحسب وجهة النظر إليها؛ فإنَّ الجرائم تختلف قوة وضعفا بحسب ما فوتت من مصلحة، وبحسب مقدار أثرها على المجني عليه، وعلى المجتمع عموما، لذلك يمكن تقسيم الجرائم باعتبار عقوبتها، ونوعها، وطبيعتها الخاصة، وكيفية ارتكاب الجاني لها وقصده من ذلك، وسواء كانت بطريق السلب أو الإيجاب [1].

والذي يهمنا في هذا المبحث تقسيم فقهاء الشريعة المبني على جسامة العقوبة؛ فتكون قوة العقوبة وضعفها مبنية على قوة الاعتداء في الجريمة وضعفه.

وبهذا الاعتبار تنقسم الجريمة إلى أقسام ثلاثة: جرائم الحدود – جرائم القصاص – جرائم التعزير.

وفيما يلي بيانها على سبيل الاختصار [2]:

أولا: جرائم الحدود: وهي الجرائم المعاقب عليها بحد، والحد هو العقوبة المقدرة حقا لله تعالى.

فكل جريمة يرجع فسادها إلى العامة، وتعود منفعة عقوبتها عليهم، تعتبر العقوبة المقررة عليها حقا لله تعالى؛ فهي محددة ومعينة ليس فيها حد أدنى ولا حد أعلى، ولا تقبل الإسقاط من الأفراد ولا من الجماعة؛ تأكيدا لتحصيل المنفعة، وتحقيقا لدفع الفساد والمضرة.

وجرائم الحدود المعينة سبع، وهي: الزنا، والقذف، وشرب الخمر، والسرقة، والحرابة، والردة، والبغي.

ثانيا: جرائم القصاص أو الدية: وهي الجرائم التي يعاقب عليها بقصاص أو دية، وكل من القصاص والدية مقدرة حقا للأفراد، ومعنى أنها مقدرة أنه ليس فيها حد أدنى ولا أعلى تتراوح بينهما، ومعنى أنها حق للأفراد أنَّ للمجني عليه أن يعفو عنها إذا شاء، فتسقط بذلك العقوبة عن الجاني.

وجرائم القصاص والدية خمس، وهي: القتل العمد، القتل الشبه العمد، القتل الخطأ، الجناية ما دون النفس عمدا، الجناية على ما دون النفس خطأ.

ثالثا: جرائم التعزير: وهي الجرائم التي لم يأت تحديد عقوباتها في الشريعة الإسلامية، مع ثبوت النهي عنها لوجود المفسدة فيها، أو لأنها تؤدي إلى فساد.

---

(1) انظر: الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي (ص 42).

(2) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي (1/78 وما بعدها)، والجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي (ص 49- 78- 89).

ومعنى التعزير: التأديب، وقد جرت الشريعة على عدم تحديد العقوبة في هذا النوع من الجرائم، واكتفت بتقرير مجموعة من العقوبات تتدرج من الأخف إلى الأشد، وتركت الحرية للقاضي في اختيار العقوبة المناسبة بحسب ظروف الجريمة وأحوال المجرم [1].

التحذير من أفعال المجرمين في القرآن الكريم:

لقد عني القرآن بتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم؛ حتى يتبين للمؤمنين خطرهم على الأمة فيحذروا من مخططاتهم وأباطيلهم، وينجوا من السقوط في حبائلهم الشيطانية.

قال عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام، الآية: 55].

فإنَّ الله تعالى بيّن لنا الحجج وأوضح البراهين؛ لتظهر سبل المجرمين ظهورًا لا خفاء فيه؛ كي لا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين، ويظهر الفرق بين سبيل المتقين الموصل إلى النعيم، وبين دهاليز الكفر والإجرام الموصلة إلى الجحيم. وقد فرق الله بينهما بقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم، الآيتين: 35– 36].

---

(1) هذا النوع من الجرائم كثير بكثرة ما يبتكره الإنسان من فنون الإجرام، وما يوسوس به إبليس الرجيم في نفسه من ضروب الإيذاء، وقد ساق ابن تيمية طائفة منها، فقال: « وأما المعاصي التي ليس فيها حد مقدر ولا كفارة، كالذي يقَبِّل الصبي والمرأة الأجنبية، أو يباشر بلا جماع أو يأكل ما لا يحل، كالدم والميتة، أو يقذف الناس بغير الزنا، أو يسرق من غير حرز، ولو شيئًا يسيرًا، أو يخون أمانته، كولاة أموال بيت المال أو الوقوف، ومال اليتيم ونحو ذلك، إذا خانوا فيها، وكالوكلاء والشركاء إذا خانوا، أو يغش في معاملته، كالذين يغشون في الأطعمة والثياب ونحو ذلك، أو يطفف المكيال والميزان، أو يشهد بالزور، أو يلقن شهادة الزور، أو يرتشي في حكمه، أو يحكم بغير ما أنزل الله، أو يعتدي على رعيته، أو يتعزى بعزاء الجاهلية، أو يلبي داعي الجاهلية، إلى غير ذلك من أنواع المحرمات، فهؤلاء يعاقبون تعزيرًا وتنكيلا وتأديبا، بقدر ما يراه الوالي، على حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقلته. فإذا كان كثيرًا زاد في العقوبة؛ بخلاف ما إذا كان قليلا. وعلى حسب حال المذنب؛ فإذا كان من المدمنين على الفجور زيد في عقوبته، بخلاف المقل من ذلك. وعلى حسب كبر الذنب وصغره؛ فيعاقب من يتعرض لنساء الناس وأولادهم، بما لا يعاقب من لم يتعرض إلا لمرأة واحدة، أو صبي واحد. وليس لأقل التعزير حد، بل هو بكل ما فيه إيلام الإنسان، من قول وفعل، وترك قول، وترك فعل، فقد يعزر الرجل بوعظه وتوبيخه والإغلاظ له، وقد يعزر بهجره وترك السلام عليه حتى يتوب إذا كان ذلك هو المصلحة، كما هجر النبي ﷺ وأصحابه " الثلاثة الذين خُلِّفوا "، وقد يعزر بعزله عن ولايته، كما كان النبي ﷺ وأصحابه يعزرون بذلك، وقد يعزر بترك استخدامه في جند المسلمين، كالجندي المقاتل إذا فر من الزحف؛ فإن الفرار من الزحف من الكبائر، وقطع أجره نوع تعزير له، وكذلك الأمير إذا فعل ما يستعظم فعزله عن إمارته تعزير له. وكذلك قد يعزر بالحبس، وقد يعزر بالضرب، وقد يعزر بتسويد وجهه وإركابه على دابة مقلوبا؛ كما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه أمر بمثل ذلك في شاهد الزور، فإن الكاذب سود الوجه، فسود وجهه، وقلب الحديث، فقلب ركوبه. وأما أعلاه، فقد قيل : " لا يزاد على عشرة أسواط ". وقال كثير من العلماء : لا يبلغ به الحد ..... »

مجموع الفتاوى (28/189).

وتشتد حاجة المسلمين اليوم إلى معرفة سبيل المجرمين على التفصيل، لا سيما وقد تكالبت أمم الكفر على محاربة شريعة الإسلام، وذلك بتسخير أكابر مجرمي العالم، الذين ينشرون الأفكار الخبيثة ويبثون السموم القاتلة، يحاولون بها هدم الدين وتخريب الأخلاق وتدمير الأجيال.

فأخبر القرآن الكريم عن علاماتٍ وسماتٍ وأوصافٍ بل وأعمالٍ يُعْرَف من خلالها المجرمون،

قال تعالى: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ [الرحمن، الآية:41].

وفيما يلي بعض الآيات المبينة لأفعال المجرمين:

1- معاداة الأنبياء والمرسلين:

بمحاربة الشرائع السماوية، ومن ثم المعاداة لأتباعها الذين يدعون إلى ما دعا إليه الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴾ [الفرقان، الآية:31]. فهؤلاء المجرمون تضايقهم شريعة الله، وتزعجهم تعاليم الدين، ولا يريدون الامتثال لأوامر الشرع الحنيف، فيسعون للتمرد على الأنبياء والرسل، ومعاداة الدعاة إلى دين الله تعالى.

وهؤلاء جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ [الأنعام، الآيتين: 123- 124].

2- إضلال الناس وصدهم عن منهج الله:

قال تعالى حكاية عن تخاصم أتباع المجرمين في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [الشعراء، الآيات:97- 98- 99].

3- الاستهزاء بالمؤمنين:

قال جل جلاله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين، من الآية:29 إلى 32]، وهكذا دأب المجرمين يفتعلون الضحك على أهل الإيمان والسخرية منهم.

4- الترف والظلم:

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ **[هود، الآية:116]، وقال سبحانه:** ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴾ **[المرسلات، الآية:46]، فهاتان الصفتان القبيحتان من أسباب زوال النعم وحلول النقم.**

5- ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والتمادي في المعاصي:

أخبر جل وعلا عن نعيم المتقين الفائزين، وحال المجرمين: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ **[المدَّثر، من الآية:38 إلى 47].**

6- الإعراض عن الدين الله:

قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ **[السجدة، الآية:22]، وقال تعالى على لسان نبيه هود:** ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ **[هود، الآية:52].**

عاقبة المجرمين في القرآن الكريم:

أولا: تعجيل العقوبات في الدنيا:

- **قال الله تعالى:** ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ **[الأعراف، الآيتين: 83- 84].**
- **وقال سبحانه:** ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ **[الأعراف، الآية:133].**

- **وقال جل جلاله:** ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ **[الذاريات، من الآية: 32 إلى 37].**

- **وقال تبارك سلطانه:** ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ **[الأحقاف، الآيتين: 24– 25].**

ثانيا: تجرع ألوان العذاب والخزي في الآخرة:

- **قال الله تعالى:** ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ **[الأنعام، الآية: 124].**

- **وقال سبحانه:** ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ **[إبراهيم، الآيتين: 49– 50].**

- **وقال جل جلاله:** ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ **[القمر، الآيتين: 47– 48].**

- **وقال تبارك سلطانه:** ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ **[الزخرف، الآيتين: 74– 75].**

انتفاء الفلاح عن المجرمين:

ورد انتفاء الفلاح عن المجرمين في سياق التحذير من جرم افتراء الكذب على الله، وذلك في موضع واحد من القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ **[يونس، الآية:17].**

فلا أحد في البشر أعتى ولا أشد إجراما من رجلين:

– أحدهما من افترى على الله الكذب بنسبة الشّريك أو الولد لله، أو بتبديل كلامه على النّحو الذي افترتهألسنتهم.

– والثاني من كذَّب بآيات الله البيّنة، فكفر بها.

وفي هذا التهديد والوعيد دليل على عظم جرم المفتري على الله بعد بيانه الساطع بأن القرآن كلام الله تعالى، ودليل أيضا على أنه لا نجاة للكفار من العذاب الأخروي، وكذلك شأن المجرمين، أنهم لا يفلحون؛ فلا ينجون من محذور ولا يفوزون بمطلوب، ولن يصلوا إلى ما يبغون ويريدون، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى [1].

قال الألوسي[2]: « **والمراد بالآية: جنس المجرمين ويندرج فيه المفتري والمكذب اندراجاً أولياً** » [3].

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، للزحيلي (954/2).

(2) محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء، ولد سنة 1217هـ الموافق 1802م ببغداد. كان مفسرا، محدثا، أديبا، سلفي الاعتقاد، مجتهدا من المجددين، من أشهر مؤلفاته: «روح المعاني في التفسير»، و«حاشية على شرح القطر في النحو». توفي سنة 1270هـ الموافق 1854م

« انظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير (2595/3)، والأعلام (45/6) ».

(3) وروح المعاني (189/11).



المبحث الرابع: الساحرون.

– السِّحر لغة:

السحر في اللغة يدور حول عدة معانٍ، فتطلق مادة (س ح ر) عند اللغويين على معان مختلفة، تبعاً لورود استعمالها وسياقها في الكلام.

فالسِّحْرُ بالكسر يطلق على صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وعلى إخراج الباطل في صورة الحق، ويطلق على الأُخْذَةُ التي تأخُذ العينَ حتى يُظَنَّ أَن الأمرَ كملـيُرَى وليس الأَصل على ما يُرى، ويكون ذلك بالخداع والتمويه بالحيل والخفاء والاستمالة واللطافة، فهو عبارة عما لطف أمره وخفي سببه.
ومنه سُمي السَّحَر لآخِر الليل؛ لأنَّ الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سُمي السَّحُور لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنه يكون خفيا [1].

قال الأزهري[2]: « وأصل السِّحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق، وخيّل الشيء على غير حقيقته، قد سحر الشيء عن وجهه. أي: صرفه » [3].

والسحر أيضا: البيان في فطنة كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: « إِنَّ مِنَ للبَيَانِ لَسِحْرًا » [4].

قال ابن الأثير في معنى الحديث: « أي: منه ما يصرف قلوب السامعين وإن كان غير حق. وقيل: معناه إن من البيان ما يكسب من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره، فيكون في معرض الذم. ويجوز أن يكون في معرض المدح؛ لأنه يستمال به القلوب، ويترضى به الساخط، ويستنزل به الصعب » [5].

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة (138/3)، ولسان العرب (1951/3).

(2) أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة، الهروي الشافعي، من كبار أئمة اللغة والأدب، ولد في هراة بخرسان سنة 282هـ، وتوفي سنة 370هـ. من أشهر مؤلفاته: « تهذيب اللغة »، و« التقريب في التفسير»، و« تفسير ألفاظ المزني».

« انظر: بغية الوعاة (19/1)، ومعجم الأدباء (2321/5) ».

(3) تهذيب اللغة (290/4– 292).

(4) أخرجه البخاري: كتاب الطب/ باب إنَّ من البيان سحرا (49/4)، (ح: 5767).

(5) النهاية في غريب الحديث (346/2).

– السِّحر اصطلاحا:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف السحر اختلافاً متبايناً؛ وذلك لكثرة الأنواع الداخلة تحته، والتي لا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها، مانعًا لغيرها، وإلى تباين آراء العلماء في حقيقة السحر، فبعضهم يرى أنَّ السحر لا حقيقة له، والبعض الآخر يعتقد بأنَّ له حقيقة وتأثيرا [1].

---

(1) انظر: أضواء البيان (555/4)، وعالم السحر والشعوذة، للدكتور عمر سليمان الأشقر (ص 72).

– هل للسحر حقيقة وتأثيره ممكن ؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة وذهب إليه جمهور العلماء أنَّ السحر له حقيقة، ويؤثر في الأجسام كغيره من الأمراض، خلافا لرأي المعتزلة ومن وافقهم في أنَّ السحر هو تخيل فقط ولا حقيقة له.

قال ابن الحجر: « واختلف في السحر فقيل هو تخييل ولا حقيقة له وهذا اختيار أبي جعفر الأستراباذي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة، قال النووي: والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة ». فتح الباري (222/10).

وذكر النووي في شرح مسلم نقلا عن الإمام المازري: « أنَّ مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها وقد ذكره الله تعالى فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم وذكر مافيه إشارة إلى أنه مما يكفر به وأنه يفرق بين المرء وزوجه وهذا كله لا يمكن فيما لاحقيقة له، وهذا الحديث أيضا مصرح بإثباته وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ما قالوه فإحالة كونه من الحقائق محال ولا يستنكر في العقل أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر».

شرح النووي على مسلم (174/14).

قال ابن القيم الجوزية: « وقد دل قول الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، على تأثير السحر وأنَّ له حقيقة وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد قالوا وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك. وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء ». بدائع الفوائد (745/2– 746)، باختصار.

– واختار محمد الأمين الشنقيطي قولا وسطا من هذه الأقوال مبينا أنَّ السحر منه ما هو حقيقة وله تأثير على الأعيان ومنه ما هو على سبيل التخيلات والخداع. فقال رحمه الله: « واعلم أن لهذه المسألة واسطة وطرفين: طرف لا خلاف في أن تأثير السحر يبلغه كالتفريق بين الرجل وامرأته، وكالمرض الذي يصيب المسحور من السحر ونحو ذلك، ودليل ذلك القرآن والسنة الصحيحة وطرف لا خلاف في أن تأثير السحر لا يمكن أن يبلغه كإحياء الموتى، وفلق البحر، ونحو ذلك.. وأما الواسطة فهي محل خلاف بين العلماء، وهي هل يجوز أن ينقلب بالسحر الإنسان حماراً مثلاً، والحمار إنساناً؟ وهل يصح أن يطير الساحر في الهواء، ويمشي على الماء، ويركب الكلب، ونحو ذلك.... أما بالنسبة إلى أنَّ الله قادرٌ على أن يفعل جميع ذلك، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب وإن لم تكن هناك مناسبة عقلية بين السبب والمسبب كما قدمناه مستوفى في سورة "مريم" فلا مانع من ذلك، والله جل وعلا يقول ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.
وأما بالنسبة إلى ثبوت وقوع مثل ذلك بالفعل فلم يقم عليه دليل مقنع. لأن غالب ما يستدل عليه به قائله حكايات لم تثبت عن عدول، ويجوز أن يكون ما وقع منها من جنس الشعوذة والأخذ بالعيون، لا قلب الحقيقة مثلاً إلى حقيقة أخرى. وهذا هو الأظهر عندي، والله تعالى أعلم ».

انظر: أضواء البيان، باختصار (581/4– 583).

– وهذا الرأي رجحه الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه: عالم السحر والشعوذة (ص97 وما بعدها).

وفيما يلي عرض لبعض التعريفات التي تُقَرِّبُ مفهومَ السحر[1]:

أولا: من رأى أنَّ السحر لا حقيقة له:

– أبو بكر الرازي، المعروف بالجصاص[2] حيث قال: « هو كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخدع، ومتى أطلق فهو اسم لكل أمر مموه باطل لا حقيقة له ولا ثبات »[3].

ومن المعاصرين الأستاذ سيد قطب، فقد عرف السحر: « بأنه خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والمشاعر، وهو لا يغير من طبيعة الأشياء، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر »[4].

ثانيا: ممن ذهبوا إلى أنَّ للسحر حقيقة فقد عرفوه بغير ذلك، وهم جمهور العلماء منهم:

– ابن قدامة [5]، عرفه بقوله: « السحر عُقَدٌ وَرُقًى وكلامٌ يتكلمُ به الساحر أو يكتبه أو يعمل شيئاً، فيؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة فمنه ما يقتل وما يمرض وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين اثنين »[6].

– وعرفه ابن خلدون[7]، فقال: « هو علم بكيفية استعدادات تقتدر البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية. والأول: هو السحر، والثاني: هو الطلسمات »[8].

---

(1) انظر: عالم السحر والشعوذة (ص 71)، وموسوعة نضرة النعيم (4590/10).

(2) أحمد بن علي، أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص، من أهل الري. ولد سنة 305هـ، سكن بغداد ودرس بها. انتهت إليه رئاسة الحنفية في وقته، وكان على جانب كبير من الفقه والزهد والورع. توفي سنة 370هـ من تصانيفه : «أحكام القرآن»، و«شرح مختصر الطحاوي».

« انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية (220/1)، والأعلام (171/1) ».

(3) أحكام القرآن، للجصاص (51/1).

(4) في ظلال القرآن (4007/6).

(5) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين، من أئمة المذهب الحنبلي في زمانه، من مؤلفاته «المغني»، و«الكافي» و«المقنع» و«العمدة»، ولد سنة 541هـ، وتوفي بدمشق سنة 620هـ .

« انظر: سير أعلام النبلاء (165/22)، والذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب (281/3) ».

(6) المغني (299/12).

(7) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن، أبو زيد، الحضرمي، الأشبيلي الأصل، المعروف بابن خلدون، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي، البحاثة. ولد بتونس سنة 732هـ ، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، ثم توجه إلى مصر وولي فيها قضاء المالكية، توفي بالقاهرة سنة 808هـ. من تصانيفه : « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر »، و« شرح البردة ».

« انظر: الضوء اللامع، للسخاوي (145/4)، والأعلام (330/3) ».

(8) مقدمة ابن خلدون (655/1). وهي أول جزء من تاريخ ابن خلدون: (ديوان المبتدأ والخبر..).

– وجمعت بعض التعريفات القسمين معا، منها تعريف الكفوي[1]، الذي عرفه بأنّه:

«مزاولة النفوس الخبيثة لأفعال وأحوال يترتب عليها أمور خارقة للعادة لا يتعذر معارضتُهُ، ويطلق على ما يفعله صاحب الحيل بمعونة الآلات والأدوية، وما يريك إياه صاحب خفة اليد»[2].

ومن أحسن ما ذكر في هذا الباب أنَّ:

«السحر يقال على معان:

الأول: تخيلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذة.

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه.

الثالث: ما يغير الصور والطبائع كجعل الإنسان حمارا، ولا حقيقة له عند المحصلين.

وجاء في بعض التعريفات: أنَّ السحر قلب الحواس في مدركاتها عن الوجه المعتاد في صحتها عن سبب باطل لا يثبت مع ذكر الله عليه. وقيل: أمر خارق للعادة صادر عن نفس شريرة لا يتعذر معارضته»[3].

معاني السحر في القرآن الكريم:

ذكر بعض المفسرين أن السحر في القرآن على خمسة أوجه[4]:

– الأول: السحر المعروف الذي يأخذ بالعين والقلب. ومنه قوله تعالى: ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ ﴾ [البقرة، الآية:102]. وقوله تعالى: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ ﴾ [الأعراف، الآية:116].

– الثاني: العلم[5]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الزخرف، الآية:49].

---

(1) أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكوفي. ولد سنة 1094م، في كفه بالقرم – أحدى القرى بتركيا– وولي القضاء بها، وبالقدس، وببغداد. وعاد إلى استانبول فتوفي بها سنة 1683م من تصانيفه: «الكليات في القرآن».
«انظر: الأعلام (38/2)».

(2) الكليات (ص 510).

(3) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص 399)، والمفردات في غريب القرآن (ص 226).

(4) انظر: نزهة الأعين النواظر (ص 355)، والوجوه والنظائر (ص 270).

(5) قال ابن كثير: «معناه: العالم، وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم».
تفسير ابن كثير (315/12).

– الثالث: الكذب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف، الآية:116]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ﴾ [القمر، الآية:2].

– الرابع: الجنون. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴾ [الفرقان، الآية:8].

– الخامس: الصرف. ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ [المؤمنون، الآية:98]، أي: تصرفون عن الحق.

حكم الساحر وعقوبته:

إنَّ عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عدّه النبي ﷺ من السبع الموبقات، فقد ثبت في الحديث قوله ﷺ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ ؟
قَالَ: « الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ » [1].

والسحر منه ما يكون كفرا، وهو الغالب على أفعال السحرة، ومنه ما يكون كبيرة؛ فيوجب على مقترفه الإثم والعقاب، على التفصيل الآتي ذكره:

فالسحر في الشرع ينقسم إلى قسمين[2]:

الأول: عقد ورقى، يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، فهذا النوع من الشرك؛ لأنه يكون بواسطة الجن، يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.
وهذا الصنف يكفر صاحبه ويقتل ردة.

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فهذا لا يكفر صاحبه؛ ولكن يعتبر عاصيا ومعتديا، وهذا يقتل حدا لدفع آذاه وفساده في الأرض.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الوصايا/ باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ﴾[النساء، الآية:10].
(2/295)، (ح: 2766)، ومسلم في كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر وأكبرها (1/ 92)، (ح: 145).
انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (1/17).

(2) انظر: فتح المجيد مع القول المفيد لشرح كتاب التوحيد (ص 481– 482).

قال محمد الأمين الشنقيطي:

« اختلف العلماء فيمن يعلم السحر ويستعمله فقال بعضهم: إنه يكفر بذلك، وهو قول جمهور العلماء منهم مالك وأبو حنيفة وأصحاب أحمد وغيرهم. وعن أحمد ما يقتضي عدم كفره. وعن الشافعي أنه إذا تعلم السحر قيل له صف لنا سحرك. فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب، وأنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر، وإلا فلا. وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة معروفة.

والتحقيق في هذه المسألة هو التفصيل: فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة « البقرة » فإنه كفر بلا نزاع. كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ **[البقرة، الآية:102]، وقوله:** ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ ﴾ **[البقرة، الآية:102]، وقوله تعالى:** ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ **[طه، الآية:69] كما تقدم إيضاحه. وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر. هذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء »** [1].

– وأمّا عقوبة الساحر فالذي يظهر من دلالة النصوص القرآنية والنبوية وآثار الصحابة: أنَّ الساحر يقتل في جميع الأحوال سواء كفر بسحره أم لم يكفر.

وقد ورد في السنة ما يؤكد ذلك، كما في البخاري أنَّ عمر بن الخطاب ﵁ كتب قبل موته بسنة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة [2]**، وما رواه مالك عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّها: قتلت جارية لها سحرتها، فأمرت بها فقُتلت** [3].

---

(1) أضواء البيان (4/568– 569).

(2) انظر: البخاري مع الفتح (6/261)، (10/236).

(3) الموطأ برواياته الثمانية: كتاب العقول/ باب ما جاء في قتل الغيلة والسحر (4/ 226)، (ح: 1737).

فهذه الآثار عن بعض الصحابة في قتل الساحر، وهم: عمر وابنته أم المؤمنين حفصة ﷺ جميعاً، وجندب. ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة ﷺ ولم ينكروا على من عمل بمقتضاها. ويعتضد ذلك بما رواه الترمذي عن جندب [1] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ)) [2].

هي حجة من قال بقتله مطلقاً.

وممن قال بمقتضى هذه الآثار وهذا الحديث: مالك، وأبو حنيفة، وأحمد في أصح الروايتين، وعمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز. وغيرهم؛ فالقول بقتله مطلقاً قوي جداً لفعل الصحابة له من غير نكير [3].

– قال الشيخ ابن عثيمين[4]: ((والحاصل: أنه يجب أن تُقتَل السَّحَرَة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون، ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم؛ فإن بعضهم قد يسحر أحداً ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها، ولأنهم كانوا يسعون في الأرض فساداً؛ فكان واجباً على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه حد لضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد ... والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فساداً، وفسادهم من أعظم الفاسد؛ فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر)) [5].

---

(1) جندب بن كعب. وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد. والصحيح أنَّه: أبو عبد الله جندب بن كعب بن عبد الله بن جزء بن عامر بن مالك بن دهمان، الأزدي، الغامدي. وربما نسب إلى جده، وهو جندب الخير، وهو قاتل الساحر؛ فكان ذلك سببا في سجنه، ثم هرب من السجن، وانطلق إلى أرض الروم، فلم يزل يقاتل بها المشركين، حتى مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية، وذلك سنة 51هـ.

((انظر: الإصابة، لابن حجر (261/1)، وأسد الغابة، لابن الأثير (568/1))).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب الحدود/ باب ما جاء في حد الساحر (60/4)، (ح: 1460)، وقال: الصحيح أنّه موقوف على جندب.

(3) انظر: أضواء البيان (573/4– 575)، وعالم السحر والشعوذة (ص 230)، وفتح المغيث في السحر والحسد (ص 104– 105).

(4) أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين. ولد سنة 1347هـ في مدينة عنيزة بالمملكة العربية السعودية. لازم العلامة المفسر عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ثم اتصل بسماحة الشيخ ابن باز وانتفع به، كما تلقى من الشيخ محمد الأمين الشنقيطي. يعد الشيخ من أكابر العلماء المعاصرين في العالم الإسلامي، شغل عدة مناصب تعليمية إلى جانب عضوية هيئة كبار العلماء في المملكة السعودية، نال جائزة الملك فيصل العالمية سنة 1414هـ نظير جهوده في خدمة قضايا الإسلام والمسلمين. من مؤلفاته: ((القواعد المثلى في صفات الله الحسنى))، و((الشرح الممتع على زاد المستقنع))، وحولت الكثير من محاضراته إلى مؤلفات مطبوعة. توفي سنة 1421هـ ودفن بمكة المكرمة. ((انظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير (2118/3))).

(5) فتح المجيد مع القول المفيد لشرح كتاب التوحيد (ص 496– 497).

انتفاء الفلاح عن السحرة:

ورد انتفاء الفلاح عن السحرة مرتين في القرآن الكريم في سياق قصة النبي موسى عليه السلام ، وقد خصت هاته القصة بالتفضيل؛ لِما احتوت عليه من الحوادث العظيمة، والأنباء القيمة، ولأن رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأُرْسِل رسولها هادياً وشارعاً تمهيداً لشريعة تأتي لأمة أعظم منها تكون بعدها، ولأن حال المرسل إليهم أشبه بحال من أرسل إليهم محمد ﷺ فإنهم كانوا فريقين كثيرين اتَبع أحدهم موسى وكفَر به الآخر، كما اتّبع محمداً عليه السلام جمع عظيم وكفر به فريق كثير، فأهلك الله من كفر ونصر من آمن؛ فكانت قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبي ﷺ ؛ إذ أنه أوتى شريعة دينية دنيوية، وكوّن اللّه تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية.

وقد استعان فرعون بالسحرة؛ من أجل إظهار باطله، واستعباد بني إسرائيل وصدهم عن دعوة الحق التي بُعِث بها موسى عليه السلام ؛ فكان التأييد المؤزر من الله تعالى لنبيه بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات للدلالة على صحة رسالته، وصدق نبوته؛ التي كانت سببا في إيمان السحرة واتباعهم لموسى؛ لأنهم أيقنوا أنَّ ما جاء موسى من خوارق العادات إنما هو من جنس البراهين الربانية، والآيات الإلهية، وهي خارجة عن مقدور الإنس والجن، والأباطيل التي تظهر على أيدي السحرة.

وعلت صولة الحق في ضمائرهم، واستنارت عقولهم بنور الرسالة، ولامس الإيمان قلوبهم، فأثمر اليقين وانشراح الصدر؛ فإنَّ السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والدجل، أم من قدرة خالق الشمس والقمر.
والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور؛ ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين؛ فأسلموا وجوههم لله رب العالمين [1].

---

(1) انظر: تفسير التحرير والتنوير (34/9)، وتفسير المراغي (22/9)، وتفسير الظلال (1350/3).

– قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((صارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارًا لأهل الإيمان ولأهل الكفر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة، ولما بشر بقتل أبي جهل يوم بَدرٍ قال: " هذا فرعون هذه الأمة ")). مجموع الفتاوى (9/12).

– وقال ابن القيم: ((يذكر سبحانه وتعالى قصة موسى ويعيدها ويبديها ؛ ليسلي بها نبيه، فيقول الرسول ﷺ عندما يناله من أذى الناس: "لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر". فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين ، أعني الشريعة الصحيحة التي لم تبدل. والأمتين واللغتين؛ فقد اقترن التوراة بالقرآن في غير موضع من الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وتحت هذا سر يفهمه من فهم تقارب ما بين الأمتين والشريعتين)).

جلاء الأفهام (ص 221)، بتصرف.

– **قال الله تعالى:** ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ **[يونس، الآية: 77]**.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

"وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رَبَّى هذا الذي يَحْذَرُهُ على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولّى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وَمَلَؤه – قبحهم الله– على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرَد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **[الأنعام، الآية: 45]؛ وذلك أن فرعون – لعنه الله – أراد أن يَتَهَرَّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعوذين، فانعكَس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام؛** ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ **[الشعراء، من الآية 45 إلى 48]، فظن فرعون أن يستنصر بالسحَّار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار"** [1].

---

(1) تفسير ابن كثير (7/388– 389).

فالسحر لا يستهدف هداية الناس، ولا يتضمن عقيدة، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق؛ ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة. فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس، وما كان الساحرون ليؤدوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغراض، ويحقق مثل هذا الاتجاه. وما كانوا ليفلحوا وكل عملهم تخييل وتزييف[1].

وقال لهم موسى على وجه الإنكار والتوبيخ والتقريع والتجهيل: أتقولون للحق الواضح الظاهر، وهو أبعد الأشياء عن السحر الذي هو باطل، حين جاءكم دون أن تتروّوا وتتدبروا فيه : إنه سحر. وما ترونه بأعينكم من آيات اللّه وترجف له قلوبكم من عظمته لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم، وقد مضت سنة اللّه بأن السحرة لا يفلحون في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يفوزون في الأمور الهامة كالدعوة لدين، والتأسيس لملك، وذلك ما تتهمونني به على ضعفي وقوتكم، فإنَّ السحر شعوذة لا تلبث أن تفتضح وتزول؛ فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح، وعلى يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة[2].

– وقال جلَّ جلاله: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه، الآية: 69].

لقد أتت هذه الآية بعدما ذكر سبحانه الموعد الذي ضربه السحرة لموسى عليه السلام ، وهو يوم الزينة، وذكر أنهم قالوا قد أفلح اليوم من استعلى، وهذا أبلغ في التحريض حيث جعلوا الفوز لمن طلب الغلب فضلاً عمن غلب بالفعل وأرادوا بالفلاح ما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب.
ولا شك في كونه زائفا زائلا؛ لأنه يصدر عن نفس خبيثة تريد بطر الحق وإعلاء الباطل.

فكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بإلقاء ما معه، وأن يبدءوهم، فاختار الثانية، وحين بدءوا فألقوا حبالهم وعصيهم سحروا أعين الناس؛ وقد يبدو باطلهم ضخماً فخماً، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية.

---

(1) تفسير الظلال (1813/3).

(2) انظر: تفسير المراغي (141/11)، وتفسير السعدي (ص 371).

فالِه درهم ما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل.

فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم خاف موسى عاقبة أمره، فأوحى إليه ربه: ﴿ لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾، فمعك الحق ومعهم الباطل، معك العقيدة ومعهم الحرفة، معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة، أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً.

وقال المولى: ﴿ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾، فأخفى ذكر العصا؛ تهويلا لأمرها، وتفخيما لشأنها، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصيّ المعهودة، لما سينشأ عنها من عجيب الأثر وغريب الصنع.

وألقى موسى ووقعت المفاجأة الكبرى. فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرة، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون.

وقوله تعالى شأنه: ﴿ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ ﴾، أي: جنس الساحر. ﴿حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾، أي: حيث كان، وأين أقبل. فحيث ظرف مكان أريد به التعميم، وهذا من تمام التعليل؛ فإنَّ الساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلاً ويصنع تخييلاً؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية. شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق.

والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً، والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى، ويخيل إليه وهو الرسول أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به؛ فلما عاينوا ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله، وقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء، الآيتين:47– 48] [1].

(1) انظر: تفسير الظلال (2342/4)، وتفسير ابن كثير (350/9).

– قال صاحب الكشاف: « سبحان الله، ما أعجب أمرهم ! قد ألقوا حبا لهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود؛ فما أعظم الفرق بين الإلقاءين »[1].
وروي عن ابن عباس أنه قال: « كانوا أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بررة »[2].

فقد لجأ فرعون إلى العناد والاستكبار، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم في جذوع النخل، فقابلوا تهديده بالازدراء والسخرية، وقالوا إنما أنت مسلّط علينا في هذه الحياة الدنيا، وعذابك لا يعدوها، وما عند اللّه من العذاب لا يضارعه عذاب، وما عنده من الثواب لا يقدر قدره، ففي جناته التي تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[3].

الطرق الشرعية للوقاية من السحر والسحرة[4]:

1– الاستعاذة بالله من السحر ومن كيد السحرة، وقد أرشدنا القرآن إلى الاستعاذة في غير موضع من كتابه. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت، الآية:36].

2– تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله حفظه الباري ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق، الآية:2].

3– التوكل على الله والاعتماد عليه، قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الطلاق، الآية:3].

---

(1) تفسير الكشاف، للزمخشري (96/4).
– قال محقق الكتاب: « وفيه إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد ».
(2) تفسير ابن كثير (350/9).
(3) انظر: تفسير المراغي (127/16).
(4) انظر: عالم السحر والشعوذة، للدكتور عمر سليمان الأشقر (ص 199– 207)، ورسالة: فتح الحق المبين في أحكام رقى الصرع والسحر والعين.

4- تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلَّطت عليه أعداءه؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى، الآية:30].

5- الصدقة والإحسان؛ فإنَّ لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء والسحر والحسد.

6- الإكثار من قراءة القرآن والأدعية المأثورة.

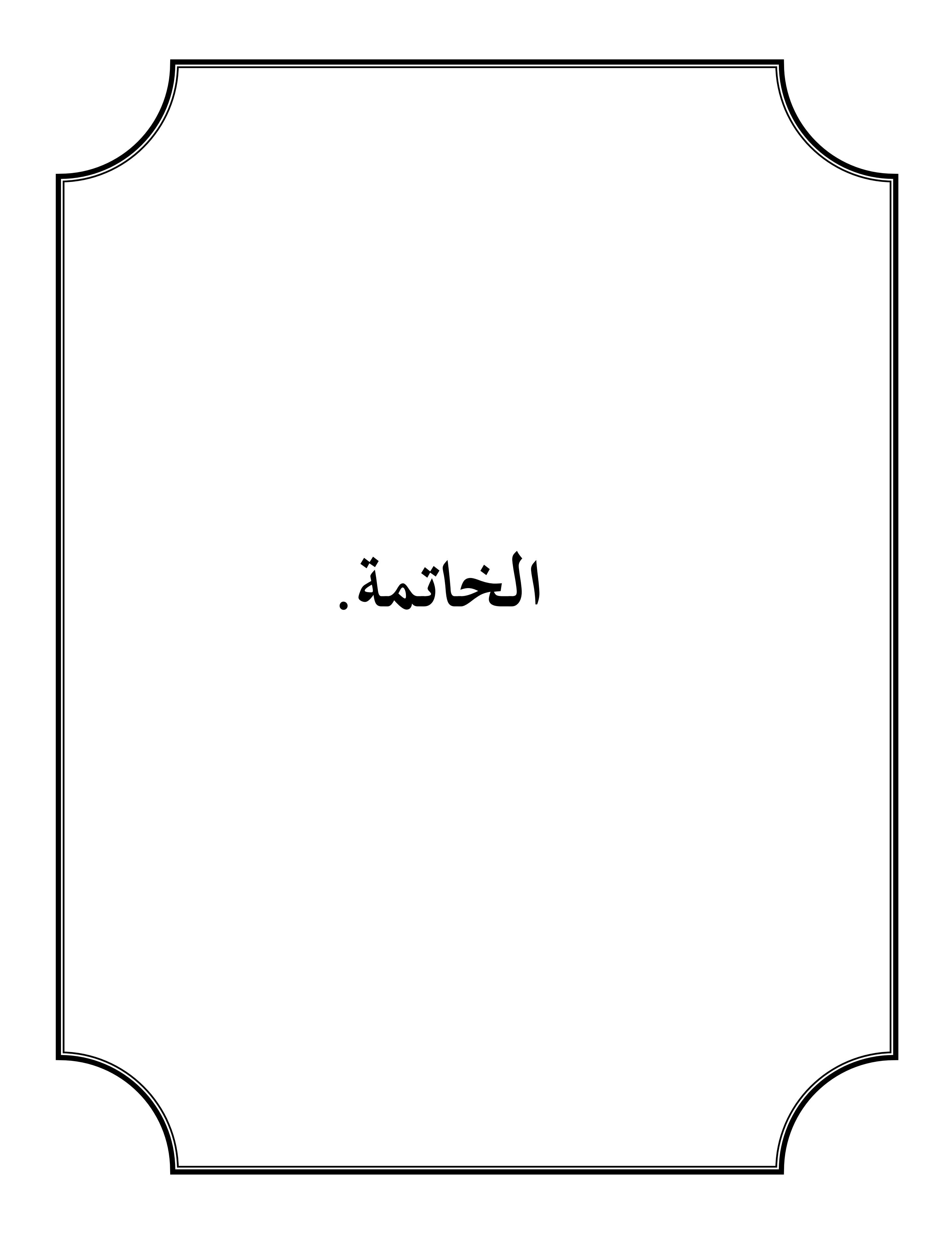
7- استخراج السحر وإبطاله بالرقية الشرعية، وهذه من طرق علاج السحر بعد وقوعه.

8- استعمال الأدوية المباحة شرعا والتي يعرفها الأطباء وأهل العلم، ومن أنفعها تمر العجوة [1]؛ فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: « مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُرُّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سَمٌّ وَلاَ سِحْرٌ » [2].

---

(1) العجوة تمر من أنواع تمر المدينة، يميل إلى سواد، غرسه النبي ﷺ بيده فصارت فيه هذه المنافع ببركة غرس النبي ﷺ.

(2) أخرجه البخاري: كتاب الطب/ باب الدواء بالعجوة للسحر (49/4)، (ح: 5769).



الخاتمة.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له على ما أنعم به من إتمام هذا البحث، وجمع ما تسير من شتات مسائله بعد تفرقها في بطون الكتب، وتوضيح ما أشكل من المعاني.

وبعد هذه الجولة المباركة في كتاب ربنا، والوقفات الإيمانية مع أهل الفلاح وصفاتهم، التي هذبت النفوس وشوقتها إلى نهج سبيل المفلحين؛ لتنال ما وعدوا به من السرور والنعيم المقيم؛ يأتي بيان أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، وهي كالآتي:

1- انفراد القرآن الكريم بأسلوبه العربي البليغ، وجودته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، بالإضافة إلى قوة ألفاظه الجامعة بين الإجمال والبيان، وما اشتملت عليه من التشريعات الحكيمة؛ لذلك كان معجزة الله الخالدة، التي أيد بها نبيه محمدا ﷺ سيد البشر، وخاتم المرسلين.

2- مجيء القرآن الكريم بهداية الخلق أجمعين، ووفاؤه بحاجات البشر في كل عصر ومصر؛ فقد تضمن من العلوم والمعارف أنفعها، ومن الحجج أنصعها، ومن المقاصد أنبلها، في نواحي الإصلاح الإنساني كلها، في العقائد والأخلاق، وفي العبادات والمعاملات، وفي السياسة والإدارات.

3- القرآن الكريم دعوة صريحة حاسمة للسعادة الدائمة، والحياة الأبدية، لأنه تضمن نظام الدين الذي هو أساس الأنظمة، وسبب الفلاح والصلاح، وقاعدة التحضر والتمدن والمجتمع الفاضل.

4- اتساع مفهوم الفلاح، وغزارة معانيه، بحيث جمع بين خيري الدنيا والآخرة في لفظة واحدة، فلا يوجد في كلام العرب كله كلمة واحدة تفي بهذه المعاني على شموليتها، مع إيجاز تركيبها وقلة حروفها، فألفاظ القرآن الوجيزة تؤدي المعاني بلا قصور، وبأحسن العبارات، من دون زيادة كلمة، فضلا عن حرف؛ فلو نزعت من القرآن الكريم لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد [1].

5- الفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع، وتنمية الحياة، ودفعها إلى الأمام، وليس هو مجرد الإنتاج المادي مع تحطم القيم الإنسانية، وانتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية، فذلك فلاح ظاهري موقوت، منحرف عن خط الرقي الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال.

---

(1) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (52/1).

6- لابد لتحقيق الفلاح من بذل أسبابه، والتحلي بصفات المفلحين الذين حصلوا على مبتغاهم، ونالوا المرتبة العليا التي لا مرتبة فوقها، وظفروا بالنعيم ونجوا من عذاب الله الأليم؛ وذلك هو الفوز العظيم.

7- من أراد الفلاح في الدنيا والآخرة، فتشعبت عليه الطرق، واستعصت عليه السبل؛ فما عليه إلا تحقيق الشهادتين، والقيام بشرائطها، مع الاستقامة على دين الله؛ مصداقا لقوله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا »، وقوله ﷺ : « اسْتَقِيمُوا تُفْلِحُوا »[1].

8- من تتبع آيات القرآن الكريم، واستقرأ معانيها يجد أنَّ الفلاح منفي عن الكافرين والظالمين والمجرمين والساحرين، وغالبا ما يأتي نفي الفلاح في سياق بيان خطورة افتراء الكذب على الله تعالى؛
لذلك وجب الحذر من هذه الأوصاف القبيحة والأفعال الشنيعة، التي تؤدي إلى حبوط الأعمال، وتوجب الخلود في النار.

9- استحقاق المؤمنين الفلاح الدنيوي والأخروي؛ فهم أهل السعادة الأبدية، والكرامة السرمدية، كما أنهم في الدنيا أهل الفلاح بالاستمتاع بالنصر والعزة، والعافية والكرامة، وانتصار الإيمان على الكفر، والهداية على الضلالة.

10- أعظم ثمرات الفلاح الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وخير من ذلك كله نيل رضى الرحمن، والتمتع بالنظر إلى وجه الملك الديان.

هذا ما تيسر جمعه وتهيأ إعداده، فإن اجتهدت لا شك أني قصرت، وإن رتبت فلا شك أني أخللت؛ فما كان من صواب فبتوفيق الله وفضله، وما كان من خطإ - ولا يستغرب صدوره من مثلي- فمن نفسي ومن الشيطان، فأستغفر الله من العمد وزلة القلم، وأسأله العفو والعافية وتثبيت القدم، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه سبحانه وتعالى، وأن ينفعني به الدنيا والآخرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) انظر: مسند الإمام أحمد (404/25)، (ح: 16023)، (95/37)، (ح: 22414).

توصيات البحث:

أهم التوصيات التي ارتأيت التنبيه إليها من خلال تجربتي المتواضعة في هذه الدراسة:

– ضرورة ربط الأمة الإسلامية بكتاب الله؛ حتى يعود لها مجدها الضائع.

– إعادة بعث الاهتمام بالدراسات القرآنية على وجه العموم، والاعتناء بالدراسات الموضوعية القرآنية بصفة خاصة.

– الاعتماد على الدراسات القرآنية فيما يخص إيجاد الحلول للمشكلات التي تعاني منها المجتمعات المسلمة.

– الاهتمام بالمواضيع القرآنية، وإبراز الجوانب العمليۃ فيها، مع التركيز على الأبعاد التربوية والأخلاقية.

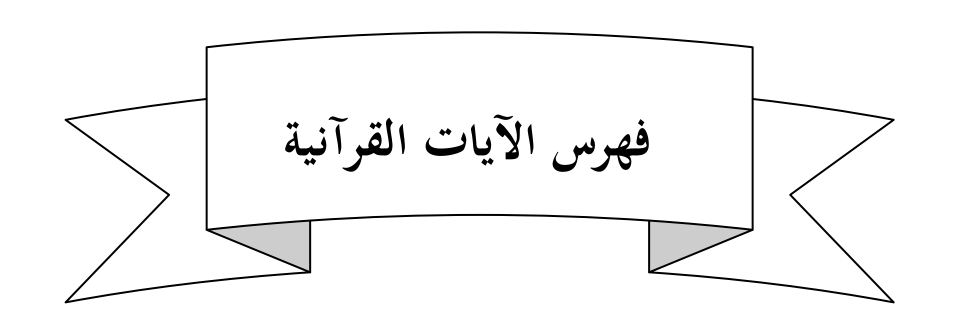
– الاهتمام بمناهج البحث في التفسير الموضوعي؛ وعليه أقترح إنشاء ورشة بحث تضم المتخصصين في مجال الدراسات القرآنية؛ تعمل على بلورة وتمحيص هذه الفكرة، من أجل التوصل إلى خطة شاملة ودقيقة، وموحدة على مستوى الجامعات، تخص الخطوات العلمية والمنهجية الضرورية في مجال البحث في التفسير الموضوعي.

– أقترح إنشاء موسوعة علمية مشتركة بين الجامعات تضم كل المواضيع التي تم دراستها في القرآن الكريم؛ من أجل الاستفادة منها في مختلف المجالات، وتجنبا لتكرار المواضيع التي سبق وأن تطرق إليها الباحثون.

– أقترح تخصيص موضوع تدبر القرآن كمادة مستقلة ضمن الدراسات القرآنية؛ لما يعود ذلك بالنفع العميم على الطلبة، ويشجعهم على تفهم القرآن الكريم، واستخراج كنوزه المكنونة.

الفهارس.

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.


فهرس الآيات القرآنية

سورة آل عمران

سورة الأعراف

سورة يونس

سورة هود

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

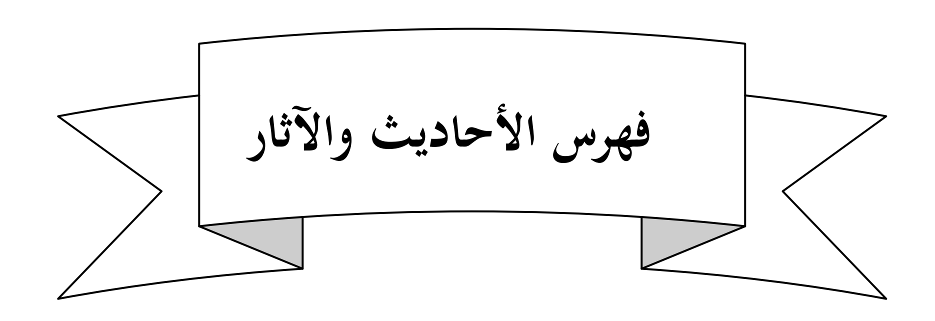
سورة الزخرف

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

الآية	رقمها	الصفحة
	سورة المجادلة	
﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾	**22**	**34، 223، 227، 232**
	سورة الحشر	
﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾	**7**	**171**
﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾	**8**	**216**
﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾	**9**	**34، 209، 213، 214، 217**
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ﴾	**18**	**56**
	سورة الممتحنة	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾	**1**	**226**
	سورة الصف	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾	**2**	**190**
﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾	**3**	**190**

الآية	رقمها	الصفحة
سورة التكاثر		
﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾	8	239
سورة العصر		
﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾	3	76



طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

أ

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

ب

ت

ث

ج

ح

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

خ

د

ذ

ر

س

ش

ص

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

ل

م

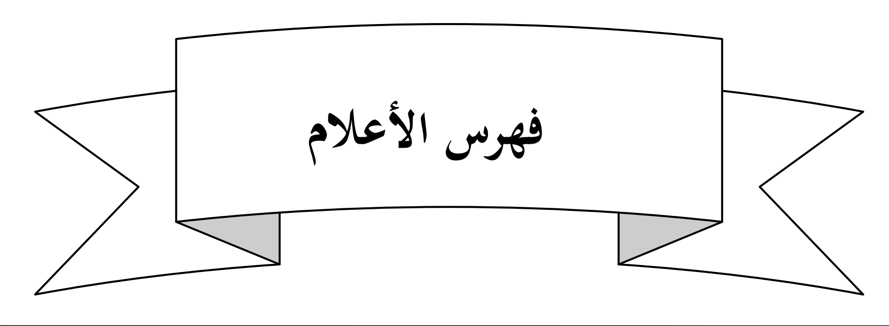
طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

ن

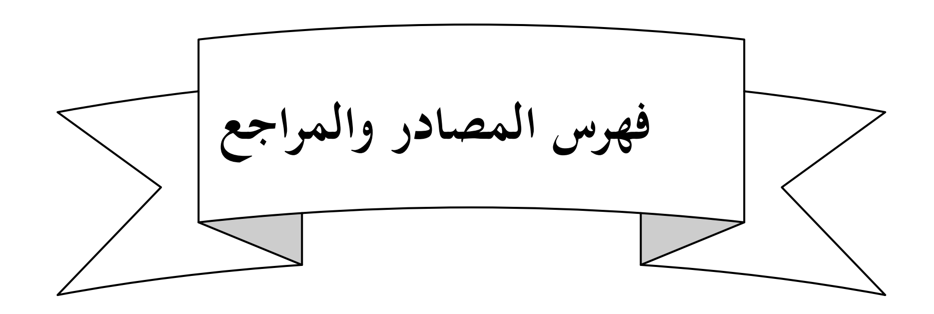
طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

و

ي



فهرس الأعلام



1- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

أ

2- الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1426هـ.

3- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: لشمس الدين محمد بن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق وتخريج بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الثالثة، 1421هـ - 2000م.

4- الأحكام السلطانية والولايات الدينية: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت 450هـ)، تحقيق الدكتور أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، الطبعة الأولى، 1409هـ - 1989م.

5- أحكام القرآن: لأحمد بن علي الرازي الجصاص (ت 370هـ)، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1214هـ- 1992م.

6- إحياء علوم الدين، وبهامشه تخريج أحاديث الإحياء للعراقي: للإمام أبي حامد الغزالي (ت 505هـ)، دار الشعب، القاهرة، دون سنة النشر.

7- إختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى: للإمام زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي (ت 795هـ)، تحقيق وتعليق جاسم الفهيد الدوسري، مكتبة دار الأقصى، الكويت، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1985م.

8- الأخلاق الإسلامية وأسسها: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، 1420هـ - 1999م.

9- أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن الماوردي (ت 450هـ)، شرح وتعليق محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405هـ - 1985م.

10- الأذكار: للإمام محي الدين يحي بن شرف النووي (ت 676هـ)، تحقيق وتخريج عبد القادر الأرناؤوط، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، 1391هـ - 1971م.

11- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، وبهامشه متن صحيح مسلم وشرح النووي عليه : لشهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني (ت 923هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، الطبعة السابعة، 1323هـ.

12- الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لأبي محمد موفق الدين بن قدامة المقدسي (ت 620هـ): شرح عبد الله بن جبرين، أعده وخرج أحاديثه محمد بن حمد المنيع، دار طيبة للنشر والتوزيع،الرياض، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.

13- أسباب النزول: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت 468هـ)، تحقيق وتخريج الدكتور ماهر ياسين الفحل، دار الميمان، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1426هـ - 2005م.

14- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لأبي عمر يوسف بن عبد البر (ت 463هـ)، صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الأعلام، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.

15- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير بن محمد الجزري (ت 630هـ)، تحقيق وتعليق علي محمد عوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون سنة النشر.

16- الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: لمحمد نور الدين المنجد، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م.

17- الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

18- أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: إعداد نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1421هـ.

19- الأصول الثلاثة وأدلتها: لمحمد بن عبد الوهاب (ت 1206هـ)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة العاشرة، 1420هـ.

20- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ومعه تتمة أضواء البيان: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت 1393هـ)، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1426هـ.

21- الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل: لبهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.

22- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: لخير الدين الزركلي (ت 1397هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، 2002م.

23- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة: لحافظ بن أحمد حكمي (ت 1377هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1423هـ - 2003م.

24- إعلام الموقعين عن رب العالمين: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب، المعروف بابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، علق عليه وخرَّج أحاديثه أبو عبيدة مشهور حسن سلمان، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1423هـ.

25- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لأبي عبد الله بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق محمد سيد كيلاني، مكتبة دار التراث، القاهرة، دون سنة النشر.

26- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لأبي بكر أحمد بن محمد الخلال (ت 311هـ)، تحقيق الدكتور يحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.

27- الأمر بالمعروف والنهي المنكر أصوله وضوابطه وآدابه: لخالد بن عثمان السبت، المنتدى الإسلامي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1995م.

28- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة: لسليمان بن عبد الرحمن الحقيل، الطبعة الرابعة، 1417هـ - 1996م. (المكتبة الشاملة).

29- إنباه الرواة على أنباه النحاة: لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت 646هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1986م.

30- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: لأبي بكر جابر بن موسى الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، 1423هـ - 2003م.

31- الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة: لعبد الله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود، مدار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.
32- ابن حنبل حياته وعصره _ آراؤه وفقهه: لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون سنة النشر.

ب

33- بدائع الفوائد: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، دون سنة النشر.
34- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: لمحمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ)، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.
35- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1404هـ - 1984م.
36- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت 817هـ)، تحقيق محمد علي النجار، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة، 1416هـ - 1996م.
37- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1399هـ - 1979م.

ت

38- تاج العروس من جواهر القاموس: للسيد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت 1205هـ)، إصدار وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 1385هـ - 1965م.
39- التاج والإكليل لمختصر خليل: لمحمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري (ت 897هـ)، دار الفكر، بيروت، 1398هـ.
40- تاريخ آداب العرب: لمصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2000م.
41- تاريخ بغداد: لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.
42- التبيان في أيمان القرآن: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق عبد الله بن سالم البطاطي، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1429هـ.
43- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لأبي العلى محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (ت 1353هـ)، ضبط ومراجعة عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، دون سنة النشر.
44- تذكرة الحفاظ: لأبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت 748هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون سنة النشر.
45- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت 671هـ)، تحقيق الدكتور صادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1425هـ.
46- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي: لعبد القادر عودة، دار الكتاب العربي، بيروت، دون سنة النشر.
47- تصنيف آيات القرآن الكريم: لمحمد محمود إسماعيل، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.

48- التعريفات: لعلي بن محمد الجرجاني (ت 816هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ.
49- تعظيم قدر الصلاة: لمحمد بن نصر المروزي (ت 294هـ)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1406هـ.
50- تفسير البحر المحيط: لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت 745هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، و علي محمد عوض، بمشاركة آخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.
51- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: لعبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي (ت 1359هـ)، جمع وترتيب الدكتور توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تعليق وتخريج أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1424هـ - 2003م.
52- تفسير التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م.
53- تفسير الثعالبي المسمى الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت 875هـ)، تحقيق وتخريج علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.
54- تفسير الشعراوي: لمحمد متولي الشعراوي (ت 1419هـ)، دون دار الطبع، و دون سنة النشر.
55- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب: لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت 606هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1401هـ - 1981م.
56- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ)، أشرف على طبعه وتصحيحه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، 1376هـ - 1957م.
57- تفسير القرآن العظيم: لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت 774هـ)، تحقيق مصطفى السيد محمد، محمد فضل العجماوي، محمد السيد رشاد، علي أحمد عبد الباقي، حسن عباس قطب، مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2000م.
58- تفسير القرآن الكريم: لمحمد بن صالح العثيمين (ت 1421هـ)، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.
59- تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي (ت 1371هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1365هـ - 1946م.
60- تفسير المنار: للسيد محمد رشيد رضا (ت 1354هـ)، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية، 1366هـ - 1947م.
61- تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل: لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت 710هـ)، تحقيق سيد زكريا، مكتبة نزار مصطفى الباز.
62- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثانية، 1428هـ - 2008م.
63- التفسير الوسيط: لوهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، 1422هـ.
64- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي، دار المعارف، القاهرة، 1993م.
65- التمهيد لشرح كتاب التوحيد: لصالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.

66- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي (ت 463هـ)، تحقيق وتعليق مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1387هـ - 1967م.
67- تهذيب التهذيب: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، إعتناء إبراهيم الزيبق، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1996م.
68- تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة محمد علي النجار، الدر المصرية للتأليف والترجمة، دون سنة النشر.
69- التوبة النصوح في ضوء القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة: لسليم الهلالي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1421هـ - 2000م.
70- التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد عبد الرؤوف المناوي (ت 1031هـ)، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ.
71- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.

ج

72- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.
73- الجامع الصحيح (صحيح البخاري): لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وتحقيق محب الدين الخطيب، إشراف قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1400هـ.
74- الجامع الصحيح (سنن الترمذي): لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 279هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، 1398هـ - 1987م.
75- جامع العلوم والحكم: لابن رجب الحنبلي (ت 795هـ)، تحقيق وتخريج مسعد بن كامل، أسامة بن عبد العليم، بإشراف مصطفى بن العدوي، دار ابن رجب، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.
76- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت 671هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ - 2006م.
77- الجامع لشعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت 458هـ)، تحقيق مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1423هـ - 2003م.
78- الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي: لمحمد أبي زهرة (ت 1394هـ)، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة، 1998م.
79- جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ : لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، دون سنة النشر.
80- الجنى الداني في حروف المعاني: للحسن بن قاسم المرادي (ت 749هـ)، تحقيق فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1992م.
81- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: لمحي الدين أبي محمد عبد القادر بن أبي الوفاء (ت 775هـ)، تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1413هـ - 1993م.

ح

82- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1428هـ.
83- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة: لأبي يحي زكريا بن محمد الأنصاري (ت 926هـ)، تحقيق الدكتور مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ، 1991م.
84- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصفهاني (ت 430هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1409هـ - 1988م.

د

85- الداء والدواء: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، تخريج زائد بن أحمد النشيري، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1429هـ.
86- درة التنزيل وغرة التأويل: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، المعروف بالخطيب الإسكافي (ت 420هـ)، دراسة وتحقيق الدكتور مصطفى آيدن، طبع جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.
87- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: لأحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي (ت 756هـ)، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، دون سنة النشر.
88- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، الدكتور عبد الله بن عبد لمحسن التركي، بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.
89- الدرر السنية في الأجوبة النجدية: جمع عبد الرحمن بن القاسم النجدي، الطبعة السادسة، 1417هـ - 1996م.
90- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، دار الجيل، بيروت، 1414هـ - 1993م.
91- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (ت 728هـ): جمع وتقديم الدكتور محمد السيد جليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، 1404هـ - 1984م.
92- دلائل الإعجاز: لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471هـ)، تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون سنة النشر.
93- الدليل إلى مراجع الموضوعات الإسلامية: لمحمد صالح المنجّد، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1414هـ.
94- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: لإبراهيم بن نور الدين، المعروف بابن فرحون المالكي (ت 799هـ)، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.
95- ديوان لبيد بن ربيعة (ت 41هـ): اعتنى به حمرو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.

ذ

96- الذيل على طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (ت 795هـ)، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2005م.

ر

97– رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار: لمحمد أمين، الشهير بابن عابدين (ت 1252هـ)، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ – 1994م.
98– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي (ت 1270هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دون سنة النشر.
99– الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني : لأبي القاسم سليمان بن أحمد للطبراني (ت 360هـ)، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ – 1985م.

ز

100– زاد الداعية إلى الله: لمحمد بن صالح العثيمين (ت 1421هـ)، دار الوطن للنشر، الطبعة الثالثة، 1413هـ.
101– زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597هـ)، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، 1404هـ – 1984م.
102– زاد المعاد في هدي خير العباد: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، 1415هـ – 1994م.
103– الزواجر عن اقتراف الكبائر: لأحمد بن محمد بن حجر الهيثمي (ت 947هـ)، دراسة وتحقيق أحمد عبد الشافي، دار الفكر.

س

104– سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: لمحمد ين يوسف الصالحي الشامي (ت 942هـ)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جمهورية مصر العربية، 1418هـ – 1997م.
105– سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت 275هـ)، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، عادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ – 1997م.
106– سنن ابن ماجة: لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (ت 273هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
107– السنن الكبرى: لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت 303هـ)، تحقيق وتخريج حسن عبد المنعم شلبي، تقديم عبد الله بن عبد المحسن التركي، إشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1421هـ – 2001م.
108– سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة جديدة، 1415هـ – 1995م.
109– سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة: لمحمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة 1412هـ – 1992م.
110– سير أعلام النبلاء: لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1413هـ – 1993م.

ش

111- شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة: لمحمد علي الهاشمي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1425هـ.

112- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لشهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي، الشهير بابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1986م.

113- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: لأبي القاسم هبة الله بن منصور اللالكائي (ت 418هـ)، تحقيق الدكتور أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة، 1416هـ - 1995م.

114- شرح الرضى على الكافية: لرضي الدين الأستراباذي (ت 686هـ)، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية، 1996م.

115- شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للنووي: لمحمد بن صالح العثيمين (ت 1421هـ)، دار الإمام مالك، الجزائر، الطبعة الأولى، 1426هـ - 2005م.

116- شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي (ت 792هـ)، راجعها جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة، 1408هـ - 1988م.

117- شرح مشكل الآثار: لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت 321هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1994م.

118- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

ص

119- الصبر في القرآن الكريم: للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1410هـ - 1989م.

120- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية: لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1990م.

121- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت 354هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1414هـ - 1993م.

122- صحيح الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م.

123- صحيح الجامع الصغير وزيادته: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1988م.

124- صحيح سنن أبي داود: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة 1419هـ - 1998م.

125- صحيح سنن ابن ماجة: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة 1417هـ - 1997م.

126- صحيح سنن الترمذي: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة 1420هـ - 2000م.

127- صحيح سنن النسائي: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة 1419هـ - 1998م.

128- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

129- صحيح مسلم بشرح النووي: لأبي زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي (ت 676هـ)، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى، 1347هـ - 1929م.

130- صفوة التفاسير: لمحمد علي الصابوني، الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الرابعة، 1402هـ - 1981م.

ض

131- ضعيف سنن الترمذي: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة 1420هـ - 2000م.

132- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م.

ط

133- طبقات الحفاظ: لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م.

134- طبقات الشافعية: لأبي بكر بن أحمد تقي الدين بن قاضي شهبة (ت 851هـ)، تصحيح وتعليق الدكتور عبد الحليم خان، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، 1399هـ - 1979م.

135- طبقات المفسرين: لأحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.

136- طبقات المفسرين: لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1396هـ - 1976م.

137- طريق الهجرتين وباب السعادتين: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، تخريج زائد بن أحمد النشيري، إشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1429هـ.

ع

138- عالم السحر والشعوذة: للدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثالثة، 1418هـ - 1997م.

139- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق إسماعيل بن غازي مرحبا، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1429هـ.

140- علوم القرآن بين البرهان والإتقان – دراسة مقارنة – : للدكتور حازم سعيد حيدر، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1420هـ.

141- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: لأحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي (ت 756هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ – 1996م.

142- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين أبي محمد العيني (ت 855هـ)، ضبطه وصححه عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1421هـ – 2001م.

غ

143- غريب الحديث: لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت 224هـ)، تحقيق الدكتور حسين محمد محمد شرف، مراجعة عبد السلام محمد هارون، مجمع اللغة العربية بمصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1404هـ – 1984م.

144- غريب الحديث، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597هـ)، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1985م.

145- الغريبين في القرآن والحديث: لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت 401هـ)، تحقيق ودراسة أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1419هـ – 1999م.

ف

146- الفائق في غريب الحديث: لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1399هـ – 1979م.

147- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح وإشراف محب الدين الخطيب، قرأه وقابل نسخه الخطية وعلق عليه عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1379هـ.

148- فتح الحق المبين في أحكام رقى الصرع والسحر والعين: لأبي البراء أسامة ين ياسين المعاني، دار المعالي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1421م – 2000م.

149- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376هـ)، اعتنى به عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة.

150- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ)، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1428هـ – 2007م.

151- فتح المجيد مع القول المفيد في شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب (ت 1206هـ): شرح عبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب، محمد بن صالح العثيمين، دار الإمام مالك، الجزائر، الطبعة الأولى، 1426هـ – 2005م.

152- فتح المغيث في السحر والحسد ومس إبليس: لأبي عبيدة ماهر بن صالح آل مبارك، تقريض عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، دار علوم السنة للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1995م.

153- فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها: للدكتور غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، الطبعة الرابعة، 1422هـ – 2001م.

154- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: لتقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية (ت 728هـ)، حققه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، 1405هـ - 1985م.

155- الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري (ت 395هـ)، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، دون سنة النشر.

156- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (ت 456هـ)، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر، الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1416هـ - 1996م.

157- فقه الأدعية والأذكار: لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، دار ابن عفان للنشر والتوزيع.

158- فقه الزكاة: ليوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1393هـ - 1973م.

159- فقه السيرة: لمحمد الغزالي (ت 1417هـ)، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، القاهرة – بيروت.

160- الفوائد: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق محمد عزير شمس، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1429هـ.

161- في ظلال القرآن: لسيد قطب (ت 1387هـ)، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، 1423هـ- 2003م.

ق

162- القاموس المحيط: لمجد الدين الفيروزآبادي (ت 817هـ)، تحقيق مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1426هـ - 2005م.

163- قوت القلوب في معاملة المحبوب: لمحمد بن علي بن عطية الحارثي، المشهور بأبي طالب المكي (ت 386هـ)، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم محمد الرضواني، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.

164- القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لعبد العزيز بن عبد الله الراجحي، موقع الإسلام على النت، (المكتبة الشاملة).

ك

165- كتاب الكبائر وتبيين المحارم: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق محي الدين مستو، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الرابعة، 1998م.

166- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.

167- كشف الأستار عن زوائد البزار: لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م.

168- الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث: لبرهان الدين الحلبي، المعروف بسبط ابن العجمي (ت 841هـ)، تحقيق صبحي السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987م.

169- كشف المشكل من حديث الصحيحين: لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597هـ)، تحقيق الدكتور علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.

170- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت 1104هـ)، أعده للطبع الدكتور عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1419هـ - 1998م.

ل

171- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: لمحمد فؤاد عبد الباقي (ت 1388هـ)، دار الحديث، القاهرة، 1407هـ - 1986م.

172- لباب التأويل في معاني التنزيل، المعروف بتفسير الخازن: لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشهير بالخازن (ت 741هـ)، وبهامشه تفسير النسفي، دار الكتب العربية الكبرى لصاحبها البابي الحلبي، تصوير مكتبة المثنى، بغداد.

173- اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص عمر بن عادل الدمشقي (ت 880هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.

174- اللباب في تهذيب الأنساب: لعز الدين بن الأثير الجزري (ت 630هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، دون سنة النشر.

175- لسان العرب: لابن منظور (ت 711هـ)، تحقيق نخبة من العاملين في دار المعارف، القاهرة، دون سنة النشر.

م

176- مجمع الزوائد: لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ - 1992م.

177- مجموع الفتاوى: لتقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (ت 728هـ)، اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار، أنور الباز، دار الوفاء، جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة، 1426هـ - 2005م.

178- محبة الرسول بين الاتباع والابتداع: لعبد الرءوف محمد عثمان، بإشراف رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وكالة الطبع والترجمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1414هـ.

179- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت 546هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.

180- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت 666هـ)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415هـ - 1995م.

181- مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية: لعبد الله بن عبد العزيز الجبرين، مطبعة سفير، الرياض، الطبعة الثالثة، دون سنة النشر.

182- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، ضبط وتحقيق رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.

183- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لأبي الحسن عبيد الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (ت 1414هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند.

184- المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405هـ)، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي، وبذيله تتبع أوهام الحاكم التي سكت عنها الذهبي للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.

185- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ): حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م.

186- مشكاة المصابيح: لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ت 741هـ)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ - 1979م.
187- المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت 770هـ)، دراسة وتحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية.
188- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد: لحافظ بن أحمد حكمي (ت 1377هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.
189- معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت 510هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة، 1417هـ - 1997م.
190- معالم السنن وهو شرح سنن الإمام أبي داود: لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (ت 388هـ)، طبع وتصحيح محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب، الطبعة الأولى، 1351هـ - 1932م.
191- المعتمد في أصول الفقه: لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري (ت 436هـ)، اعتنى بتهذيبه وتحقيقه محمد حميد الله، بالتعاون مع محمد بكر وحسن حنفي، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، 1384هـ- 1964م.
192- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: لياقوت الحموي الرومي (ت 626هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1993م.
193- معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم: لعبد الصبور مرزوق، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.
194- معجم ألفاظ القرآن: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمجمعات وإحياء التراث، جمهورية مصر العربية، 1409هـ - 1989م.
195- المعجم الجامع في تراجم العلماء المعاصرين: إعداد وتقديم أعضاء ملتقى أهل الحديث، المكتبة الشاملة.
196- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: لمحمد حسن الشريف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996
197- المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد للطبراني (ت 360هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
198- معجم كلمات القرآن الكريم: للدكتور محمد زكي خضر، 1426هـ - 2005م، المكتبة الشاملة.
199- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية: لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.
200- المعجم المفصل في تفسير غريب القرآن: للدكتور محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.
201- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: لمحمد فؤاد عبد الباقي (ت 1388هـ)، دار الحديث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ.
202- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم: لمحمد بسام رشدي الزين، إشراف محمد عدنان سا لم، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م.
203- المعجم المفهرس لمواضيع القرآن الكريم: لمحمد حسن الحمصي، دار الرشيد، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م.
204- معجم مقاليد العلوم: لأبي الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق الدكتور إبراهيم محمد عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2004م.

205- معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

206- المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته: للدكتور أحمد مختار عمر، مؤسسة سطور المعرفة، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م، إصدار مؤسسة التراث، الرياض، المملكة العربية السعودية.

207- المغني: لأبي محمد موفق الدين بن قدامة المقدسي (ت 620هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، 1417هـ - 1997م.

208- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشام الأنصاري (ت 761هـ)، تحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2000م.

209- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تقديم وتخريج علي حسن الحلبي، راجعه الدكتور بكر أبو زيد، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1996م.

210- المفردات غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

211- مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية: لعبد الحميد الفراهي (ت 1349هـ)، تحقيق الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.

212- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري (ت 324هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1411هـ - 1990م.

213- مقدمة ابن خلدون: لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ)، ضبط متنه ووضع حواشيه الأستاذ خليل شحاذة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1431هـ - 2001م. (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر).

214- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ)، ضبطه وخرج آياته الشيخ أحمد قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

215- مناقب الإمام أحمد بن حنبل: لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597هـ)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية.

216- مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزرقاني (ت 1367هـ)، حققه واعتنى به فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

217- منهاج المسلم: لأبي بكر الجزائري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 2003م.

218- منهج البحث العلمي وكتابته في علوم الشريعة: للدكتور محمد عمر بن سالم بازمول، دار التوحيد والسنة، الطبعة الأولى، 1428هـ - 2007م.

219- منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية: للدكتور سامر عبد الرحمن رشواني، دار الملتقى، حلب، سوريا، الطبعة الأولى، 1430هـ - 2009م.

220- الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية: لمحماس بن عبد الله بن محمد الجلعود، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة، دار الفرقان، الرياض، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987م.

221- موسوعة أخلاق القرآن الكريم: للدكتور أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1401هـ - 1981م.

222- الموسوعة الفقهية: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، الطبعة الثانية، طباعة ذات السلاسل - الكويت.

223- موسوعة القواعد الفقهية: لمحمد صدقي بن أحمد البورنو، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.

224- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة: جمع وإعداد وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إياد بن عبد اللطيف القيسي، بشير بن جواد القيسي، مصطفى بن قحطان الحبيب، عماد بن محمد البغدادي، سلسلة إصدارات الحكمة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.

225- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ : إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمن بن محمد بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.

226- موطأ الإمام مالك (ت 179هـ) برواياته الثمانية: تحقيق وتخريج سليم الهلالي، مكتبة الفرقان، دبي، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.

ن

227- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597هـ)، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم راضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1404هـ - 1984م.

228- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون سنة النشر.

229- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: لأحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 758هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ - 1988م.

230- النفس في القرآن الكريم: للدكتور أحمد عمر هاشم، تقديم الشيخ متولى الشعراوي، محمد الغزالي، دار الفيصل، دون سنة النشر.

231- النهاية في غريب الحديث والأثر: لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن الأثير الجزري (ت 606هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دون سنة النشر.

هـ

232- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق عثمان جمعة ضميرية، إشراف بكر أبو زيد، الطبعة الأولى، 1429هـ، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية.

و

233- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: لأبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

234- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لعبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت 1420هـ)، دار الوطن، الرياض.

235- وجوه القرآن الكريم: لأبي عبد الرحمن إسماعيل الحيري النيسابوري (ت 430هـ)، تحقيق فاطمة يوسف الخيمي، دار السقا، دمشق، الطبعة الأولى، 1996م.

236- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: لسلوى محمد العوا، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.

237- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم- دراسة موازنة -: للدكتور سليمان بن صالح القرعاوي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1410هـ - 1990م.

238- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (ت 478هـ)، تقديم وتحقيق عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

239- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376هـ)، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، 1421هـ - 2000م.

240- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان (ت 681هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

241- الولاء والبراء في الإسلام: لمحمد بن سعيد القحطاني، تقديم الشيخ عبد الرزاق عفيفي، دار طيبة، مكة المكرمة - الرياض الطبعة السادسة، 1413هـ.

ي

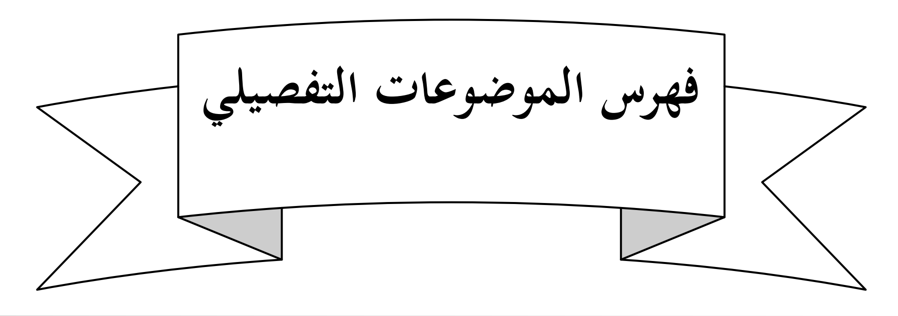
242- اليوم الآخر- القيامة الكبرى: للدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة السادسة، 1415هـ - 1995م.

المجلات العلمية

- مجلة البحوث الإسلامية: مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

- مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها: المجلد (12) العدد (20)، صفر 1421هـ / مايو - أيار 2000م.

- مجلة جامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: العدد (53)، المملكة العربية السعودية.



فهرس الموضوعات التفصيلي

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

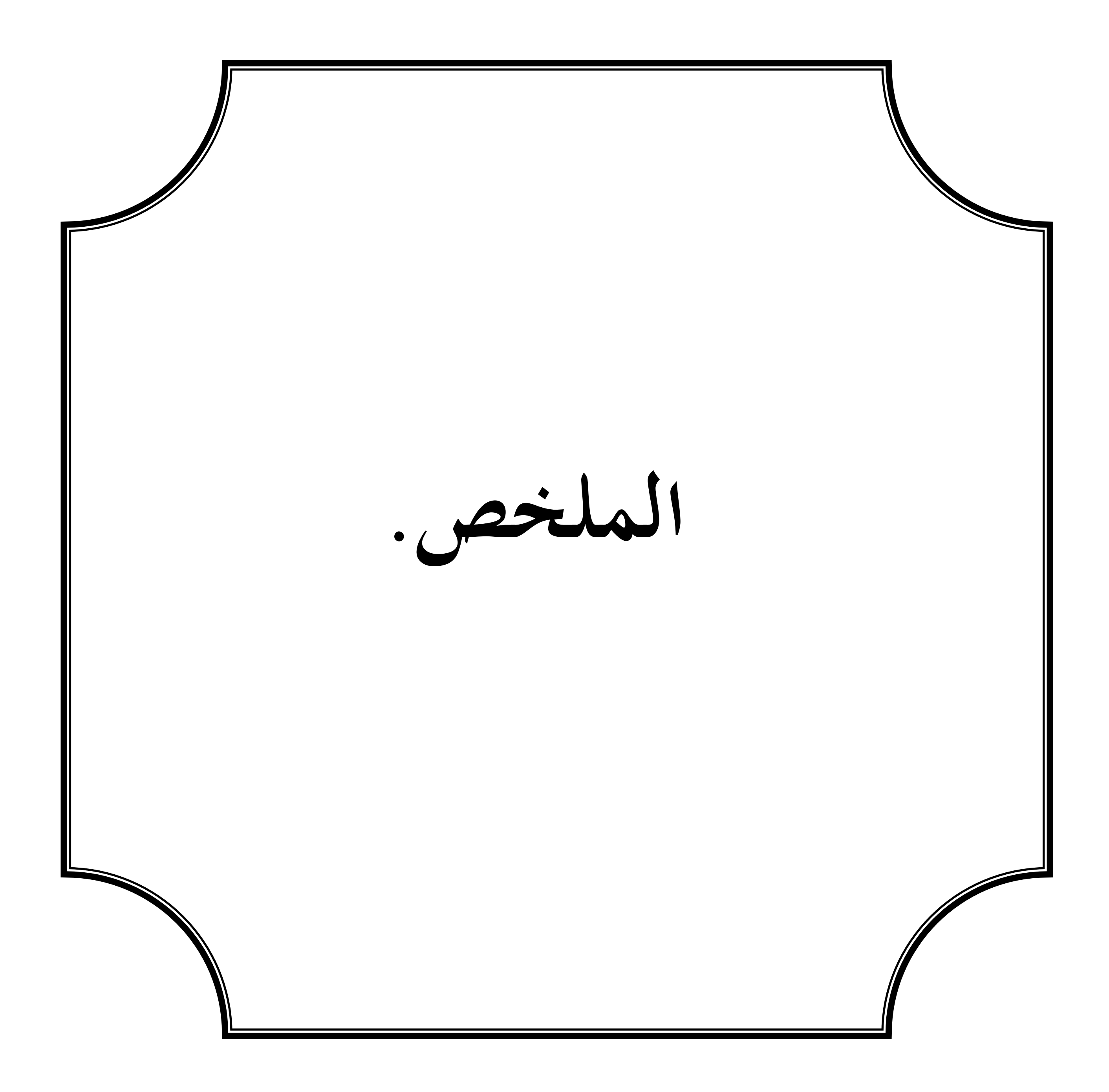
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



الملخص.

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة: الفلاح في القرآن الكريم – دراسة موضوعية –.

إعداد الطالب: سوماتية فاروق. **الأستاذ المشرف:** الدكتور السعيد رحماني.

الدرجة: مقدمة لنيل درجة الماجستير.

هدف الدراسة:

بيان حقيقة الفلاح في القرآن الكريم، واستجلاء المنهج القرآني في تناوله لموضوع الفلاح، وتنزيل ذلك على واقع الناس، مع تسليط الضوء على الأبعاد التربوية لمفهوم الفلاح.

موضوع الرسالة:

تتبع وجمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الفلاح، ودراستها دراسة متكاملة؛ لاستخراج المعاني والدلالات الإيمانية الواردة فيها، مع إبراز أوجه الإعجاز الذي تضمنته تلكم الآيات، دون إغفال سياقها القرآني.

محتويات الرسالة:

اشتملت الرسالة على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:
أما المقدمة ذكرت فيها أهمية الموضوع، وأسباب الاختيار، والدراسات السابقة المتعلقة به، ومنهج البحث وخطته.

الفصل الأول: معاني الفلاح وأسبابه في القرآن الكريم، واشتمل على ثلاث مباحث.

الفصل الثاني: صفات المفلحين و ثمرات الفلاح في القرآن، وتضمن مبحثين.

الفصل الثالث: من نفي عنهم الفلاح في القرآن، واحتوى على أربعة مباحث.

وأخيرا خاتمة البحث، وفيها نتائج الدراسة وتوصيات الباحث.

حقيقة الرسالة:

مساهمة متواضعة في بحوث التفسير الموضوعي، استلزمته طبيعة هذا العصر الذي طغت فيه الماديات، واستشرت فيه فتن الشبهات والشهوات؛ لذلك حرصت في هذه الدراسة على تصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة لحقيقة الفلاح، ومعالجة المظاهر السلبية في المجتمعات المسلمة، من وجهة دعوية تربوية تتصل بحياة الناس وتلامس واقعهم؛ ترغيبا في أسباب الفلاح والسعادة، وتحذيرا من أسباب الخسران والشقاوة.

أهم النتائج والتوصيات:

– عظمة القرآن الكريم لما اشتمل عليه من أنواع الهداية الربانية في جميع نواحي الإصلاح الإنساني؛ الكفيلة بالسعادة والفوز في الدنيا والآخرة لمن استنار بنورها، وسار على منوالها.

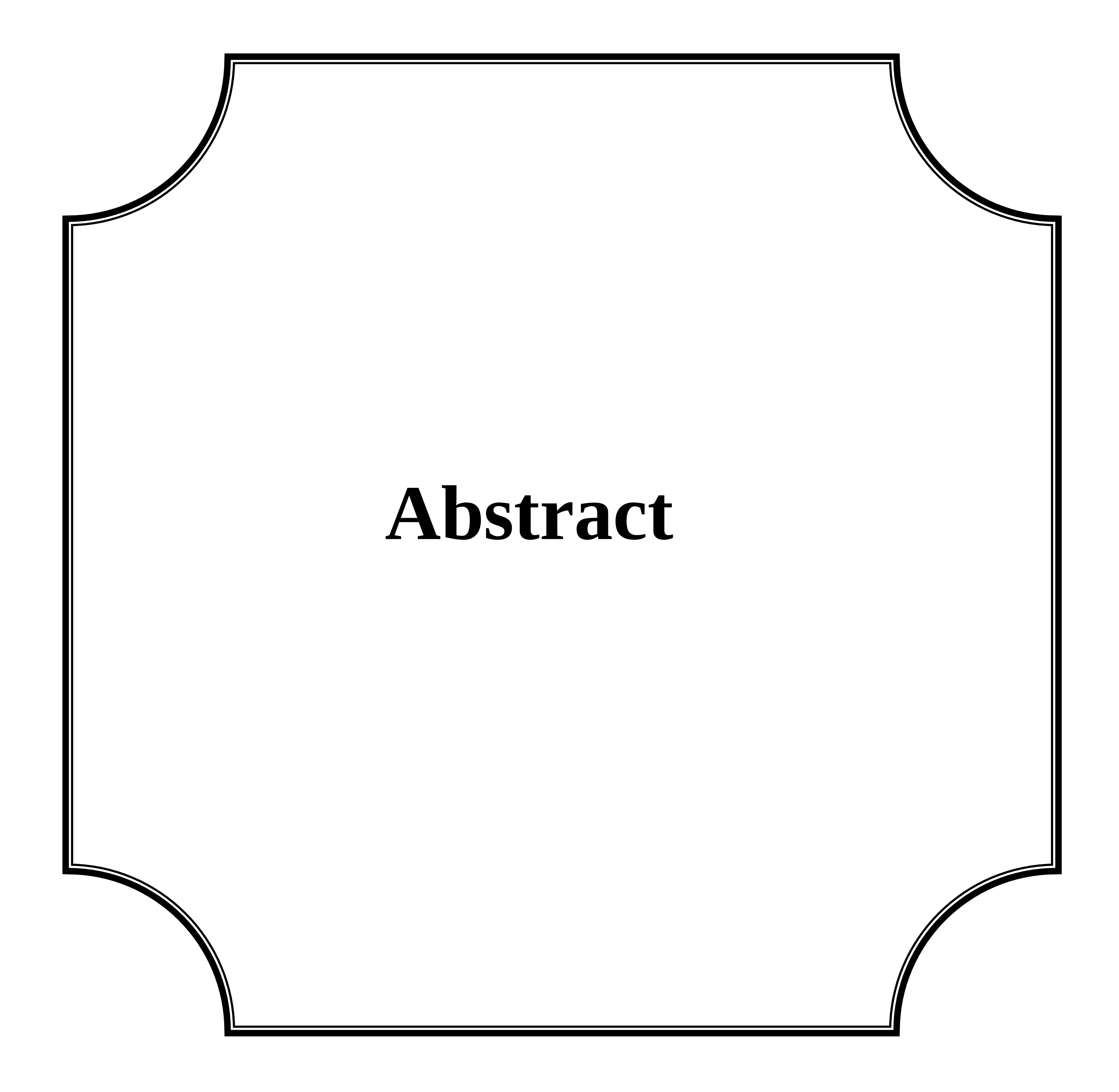
– اتساع مفهوم كلمة الفلاح، وغزارة معانيه، على إيجاز تركيبها وقلة حروفها؛ بحيث جمعت بين خيري الدنيا والآخرة في لفظة واحدة.

– الفلاح الحقيقي يكون باتباع تعاليم الدين الإسلامي، الذي يؤدي إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع، وتنمية الحياة، وليس هو مجرد الإنتاج المادي مع تحطم القيم الإنسانية، وانتكاس الفطر السوية.

– الحذر والابتعاد من الصفات القبيحة والأفعال الذميمة التي يترتب عنها انتفاء الفلاح في الدنيا والآخرة.

– استحقاق المؤمنين الفلاح الدنيوي والأخروي؛ فهم أهل السعادة الأبدية، والكرامة السرمدية.

– الضرورة الملحة لعودة الأمة الإسلامية إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ؛ لتتحول من الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة.



Abstract

Summary

Title of Thesis: EL-Faleh in the Holy Quran (an objective study).

The Researcher: Farouk SOUMATIA.

The Degree: presented to obtain Magister degree.

The Objective of the Research:

It seeks to show the reality of El-Faleh in the holy Quran, to underline the Quranic method to deal with the subject of El-Faleh, as well as seeing how does not it apply on people's daily life, and finally , to shed light on the educational dimensions of the concept of El-Faleh.

The Subject of the Study:

Our research is aimed to follow and gather the Quranic verses related to the subject of El-Faleh, and studying it carefully and completely in order to fathom out the meanings, faith symbols which come with it. Furthermore, to illuminate the aspects of Miracles which contain those verses without ignoring its Quranic context?

The Content of the Study:

It does include an introduction, three chapters and a conclusion.

The Introduction:

It highlights the importance of the theme, the rational reasons beyond choosing it, the methods and framework of the research, and the literature review.

The first Chapter: the meanings of El-Faleh and its causes in the holy Quran. It is divided into three subchapters.

The second chapter: the characteristics of El-Moufliheen and the fruits of El-Faleh in the holy Quran. It contains two subchapters.

The third chapter: those who never be successful in the holy Quran. It is made of four subchapters.

At the end, we finish off with a **conclusion.**

The Importance of the Study:

It is a modest contribution to the explanative research, as it has been needed by the nature of this era dominated by the materialistic values. That is why we become aware that there is a necessity for correcting some terms and the misconception of the reality of El-Faleh. In addition, we attempt to cope with the negative attitude emerged in Muslim society. From educational point of view, that is associated to people's daily life and touched their real world, to stimulate people for the reasons of El-Faleh, happiness as well as warning them about the great sorrow in life

The Most Important Result of the Research:

- The greatness of the holy Quran that contains a different sort of divine guidance in various aspects of human reforms, that ensures happiness and successful in life and hereafter, in particular, for those who follow the true path.
- The ambiguous surrounding the concept of El-Faleh in its meanings, because it gathers the two goodness's of the life and hereafter.
- The real Faleh is to follow the Islam that calls for the goodness, to hence people's life, to improve the society, not just the materialist production that collapses the human values.
- The warning and breaking away from the hideous manners and attitudes and their serious repercussions on the wasted of El-Faleh in life and hereafter.
- For believers, it is worth winning the El-Faleh in life and hereafter.
- The necessity to come back to the Islamic nation to the Quran and El-Sunna, to move from weakness to strengthens, and from indignity to crowning glory.

University of Algiers 1
Faculty of Islamic Sciences
Departments of Creeds and Religions

EL - FALEH in The Holy Qur’ân

- Objective Study -

A Thesis submitted to obtain a magister degree in Islamic Studies

Specialty: Kitab and Sunnah

Presented by:
Farouk SOUMATIA

Supervised by:
Dr: Said RAHMANI

Committee Discussion

Chairman: Dr: Abd elmadjid BIREM ………………………..

Reporter Supervisor: Dr: Said RAHMANI ………………...

Member: Dr: Hamou EL CHIHANI…………………………

Academic year: 2012- 2013

University of Algiers 1
Faculty of Islamic Sciences
Departments of Creeds and Religions

EL - FALEH in The Holy Qur'ân

- Objective Study -

A Thesis submitted to obtain a magister degree in Islamic Studies

Specialty: Kitab and Sunnah

Presented by:
Farouk SOUMATIA

Academic year: 2012- 2013